الإمامة وأهل البيت عليهم السلام

النظرية والاستدلال



شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم

الإمامة وأهل البيت

النظرية والاستدلال

الإمامة وأهل البيت

النظرية والاستدلال

طبعة منقّحة

تأليف

شهيد المحراب آية الله العظمى
السيّد محمّد باقر الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

هوية الكتاب

عنوان الكتاب:..................... الإمامة وأهل البيت عليهم السلام النظرية والإستدلال

تأليف:..................... شهيد المحراب السيد محمد باقر الحكيم قدس سره

الناشر:..................................... مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره

اسم المطبعة:.. النخيل

الطبعة:... الثالثة

عدد صفحات الكتاب:..٣٢٧ صفحة

الإخراج والمتابعة الفنية:........................ السيد أحمد الهاشمي

العدد:.. ٣٠٠٠ نسخة

مؤسسة تراث الشهيد الحكيم

النجف الأشرف

صيف ٢٠٠٩م/ ١٤٣٠هـ

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

لئن تمت الرسالة الخاتمة ـ على من بلغها للعالمين اشرف الصلوات والتسليم ـ بكل أبعادها الفكرية والعقائدية والفقهية، فقد تمت على يدي صاحبها ومن بعده على أيادي عترته الكرام الميامين إبان ما عرف بعصر الحضور، أما في عصر الغيبة، فيبقى شرحها للمكلفين وتثبيتها في عقول ونفوس معتنقيها أمانة في أعناق علمائهم الذين ساروا على خطهم ونهجوا منهجهم، وهنا يظهر مجال التنافس جلياً، والغياصة في محيطه تجعل الذكر ندياً، والعالم خالداً خلوداً سرمدياً، وتعمق العالم الرباني ليبدو فيه أوحدياً، باذلاً جهده لتنقية سليم النصوص من عليلها، وكشف دخيلها من أصيلها، ثم سبر أغوارها ومداليلها مصوباً ثاقب نظره تلقاء لحظة عودته واندماجه بربه ومعشوقه حينما يتخلص من تكبيل جسده لروحه المتطلعة إلى التسامي والتحليق إلى حيث المطلق.

وتوالت بصمات علمائنا الإعلام، وكلٌّ أتى بلبنته المميزة في صرح الإسلام وحسب أجندة أئمة أهل البيت عليهم السلام وجداول أعمالهم الموحاة.

حتى إذا حل دور عالمنا الرباني الذي بين يديك ـ عزيزنا القارئ اللبيب ـ كتابه جاء بلبنته المميزة البراقة في صرح العقيدة الإمامية الاثني عشرية، والقى بنظره الشامل الحاصر جميع مورثات هذه العقيدة، فعرف أية لبنةٍ عليه جلاؤها،

فبادر إليها بالّتيّ الجلي لديه، يراع حصيف ينبع من فكر ثر ذي وريف مركزاً فيها على أدلة عدد الأئمة المخصوص وتفسيره، مضافا إلى ما خطه قلمه الشريف حول هذه الفكرة توطئة واستطراداً.

فوضع لبنة مميزة في الصرح الفكري الثقافي لمعتنقي المذهب الاثني عشري؛ لان من سبقه من علماء كانوا حينما يصنفون بعنوان الإمامة فإنما يركزون جهودهم لإثبات نصوصها، وتوجيه دلالاتها، وبعدها يتوجهون لسرد حيوات الأئمة واحداً فواحداً.

وهذا ما صنعه أولاً شيخنا المفيد في إرشاده، وتبعه عليه أمين الإسلام الطبرسي في إعلامه، وحاول بعض المعاصرين أن ينهج نهجاً مختلفاً عن النهج التقليدي بسلوكه النهج التحليلي المنبري، لكن شهيد المحراب بقي متفرداً في طرقه موضوع العدد المحدد للائمة عليهم السلام وأسبابه.

ثم لا يسعنا في أخر الحديث ـ أيها القارئ الفطن ـ إلا أن نلاحظ سوية ما أعطاه هذا العالم الرباني والقطب الصمداني استجابة من مولاه لدعوته الملحة له، بان يجعل الشهادة آخر فيوضاته عليه.

فحقق له سبحانه ما تمناه عبده المخلص لتكون آية على الحب المتبادل بينهما، لكن شاءت إرادة المقتدر الحبيب أن لا تكون شهادته إلا عند جده علي عليه السلام كرم الله وجهه وكرم حفيده، وجهاً ونفساً وإباءً.

ولا غرو فهو صاحب الجملة الخالدة: «هيهات منا الذلة».

مؤسسة تراث الشهيد الحكيم

قسم التأليف والتحقيق

١٧/ربيع الأول/١٤٣٠هـ

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين....

الإمامة كضرورة دينية مفهوم مُتجذِّر لدى المسلمين عامة، ولذا انبسط نورها على جميع نواحي الحياة، والتي تتجلى إدارياً ـ فيما عُرف في عصرنا الحاضر ـ بالسلطات الثلاث: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، وإن كانت الإمامة بنظر الإمامية لا يسعها ثوبُ السلطات الثلاثة المذكورة؛ لأنّ ما أولاه الباري تعالى الإمام أوسع دائرة منها.

ولذا، أضحت محاولات طمس هذا المعلم طمساً للإسلام، إذ قوامه الإمامة وانتفاء الإمامة انتفاؤه.

كما أن محالة إعطائها وإلباسها جانب الغنّوصية والغيبية والمثالية والتأويل المتكلف، ووصم الإمامية بالسير وراء هذه الأفكار محاولة أقل ما نقول فيها: إنها تفتقر إلى الدقة والموضوعية.

وهذا الكتاب الذي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ يسير بك سيراً قرآنياً تتلمس فيه هذه الحقيقة ببيان واضح، يفهمه المثقف والدارس، وتسفر الحقيقة فيه لذي عنين...

كما أنّ المنهجية والتبويب وفرز الأدلة وجعلها ضمن دوائر معينة جعل الانتقال بين رياضه وجنانه سهلاً سلساً، ومشفوعاً بأريج ربما ألزمك البقاءَ في

فصلٍ من فصوله على الرغم من أن عينيك مشدودتان للروضة الأُخرى، فكله زهور متعددة الألوان والروائح.

ولعلك لا تجد هذا التبويب للأدلة بهذه الطريقة في غيره، وهذا كلّه يرجع إلى الجهد الذي تنكّب عناءه شهيد المحراب آية الله السيد محمد باقر الحكيم ـ تغمد الله بواسع رحمته ـ وقد فاجأنا وأذهلنا نبأ استشهاده مع فتية أبرار، ونحن نضع اللمسات الأخيرة لهذا الكتاب.

والحق نقول: لقد كنتَ في الذروة علماً وعملاً، نسباً وحسباً، وتُوّجت بتاج الشهادة فزدت عند الله تعالى درجة، وعند خلقه تألقاً ونوراً..

سيدي أيها الباقر..

يا من خار بدمه في ميلاد باقر العلم المحمدي..

منهم صلوات الله عليهم استمددت علمك وزكاتك..

وإليهم عدت مختلطاً دمكَ بمداك..

فهنيئاً لك حيث تُوفىَّ أجر الصابرين..

ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم...

علي احمد آل كبيش

قم المقدسة

٣/ رجب/ ١٤٢٤هـ

تمهيد

كان الدور الأساس والعنوان العام لأهل البيت عليهم السلام هو (الإمامة)، فكان وجودهم المبارك تعبيراً عن الرسالة الإلهية الخاتمة ـ التي كان من ميزاتها تجسيد التكامل في وحدة النبوة والإمامة ـ وامتدادها في خط الإمامة.

ولكن قد يعتري هذا العنوان شيء من الغموض؛ بسبب أن المتبادر إلى الذهن دائماً في الثقافة الإسلامية الرسمية العامة، أن الإمامة: عبارة عن الخلافة المتمثلة بولاية الأمر، وقيادة التجربة الإسلامية، والحكم الإسلامي؛ ومن هنا قد يأتي هذا التساؤل: إذا كانت الإمامة عبارة عن الخلافة والولاية والحكم، فأهل البيت عليهم السلام قد حُرموا منها باستثناء فترات محدودة جداً في التأريخ الإسلامي، وهي فترة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام(1)، وخلافة الإمام الحسن عليه السلام(2)، وإن كنا ننتظر الولاية والخلافة المطلقة لهم عليهم السلام التي يقوم بأعبائها الإمام المهدي عجل الله فرجه، وباستثناء ذلك فإن القرون العديدة التي مضت من تأريخ الإسلام، وما يمكن أن نفترض من قرون أخرى تأتي ـ حتى يظهر الإمام المهدي عجل الله فرجه، ويتولى أهل البيت عليهم السلام هذا الدور ـ لم يتسلم فيها أهل البيت الخلافة، فهل يعني ذلك تعطيلاً لدورهم في الحياة الإسلامية أو أن الإمامة لها معنىً أشمل، وبالتالي يكون

---

(1) كانت فترة توليه عليه السلام خلافة المسلمين ظاهرياً أربع سنوات وعشرة أشهر، امتدت منذ شهر ذي الحجة عام ٣٥ للهجرة وانتهت بشهادته ليلة الواحد والعشرين من شهر رمضان عام ٤٠ للهجرة.

(2) امتدت خلافته عليه السلام ستة أشهر بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام.

دورهم عليهم السلام أوسع وأشمل من قضية تولّي الحكم وإدارته، وأنّ توليه هو أحد الأبعاد المهمة في دورهم عليهم السلام الواسع في حياة الإسلام والمسلمين؟

إن الجواب عن التساؤل سيتضح من خلال مطاوي البحث إن شاء الله تعالى.

وهنا يحسن بنا الإشارة إلى أن موضوع الإمامة من الأبحاث التي يمكن أن يكتب الباحثون فيها موسوعة كاملة[1]، تسمى بـ(موسوعة أهل البيت عليهم السلام)

وقد طرح عليّ بعض الأخوة الأعزاء من وسطين مختلفين ـ الحوزة العلمية والجامعة ـ أن أقوم بشرح أفكار هذا المخطط على مستوى الفهرست والمنهج العام

(١) ولديّ أمل أن أكتب ذلك في المستقبل إن شاء الله تعالى في عدة كتب، قد يشتمل كل منها على عدة أجزاء، لبيان هذه الأدوار. وأحد النماذج الخارجية لهذه الكتب، هو كتاب (دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة) الذي يعبر عن دور واحد من هذه الأدوار، وقد وضعت ـ حتى الآن ـ الإطار النظري والتخطيطي لإنجازها، كما أشرت إلى بعض موضوعاتها في هوامش الكتاب المذكور، ولكن لا أعرف هل أن الوقت يساعدني على ذلك، ولا سيما مع ظروفي الخاصة؟! وهل أن الأجل ـ الذي أنتظره دائماً ـ يسمح لنا بذلك كي أتمكن أن أقوم بهذه المهمة أو لا؟

فإذا هيأ الله تعالى لنا الفرصة لكتابته تفصيلاً، فنعما هو، وإلا فقد يوجد في كثير من الأعزاء، من كتّاب وباحثين وعلماء، مَنْ تتهيأ له هذه الفرصة.

وإني أعتقد أن فيه فائدة ومنفعة كبيرة جداً، ولا سيما في عصرنا الحاضر، الذي أصبح فيه مذهب أهل البيت عليهم السلام من الرموز البارزة التي يتطلع لها المسلمون وينظرون إليه بعين الأمل من ناحية، والبشرية جمعاء من ناحية أخرى.

ولا أريد في هذا الحديث أدعي أني سوف آتي بشيء جديد مهم في المضمون والمحتوى، فقد يكون الكثير من المضامين والموضوعات التي سوف نتناولها بالبحث، من الموضوعات التي تناولها الباحثون في كتبهم وأبحاثهم، على أني لا أعلم ذلك لأني ـ بسبب ضيق الوقت ـ لم أوفق حتى الآن إلى مراجعة البحوث ذات العلاقة بهذا الموضوع إلا بشكل محدود جداً، ومن ذلك بعض بحوث الشهيد الصدر، أو ما تبقى لدي من مخزون في الذاكرة للمصادر الأصلية (القرآن الكريم والحديث الشريف) ، ولكن الجديد فيه هو تنظيم هذه الأبحاث وترتيبها ومنهجيتها وتكميلها وتطويرها في بعض الموارد والإشارة إلى بعض الآفاق، للحديث أو الاستنتاج منه أو الإثارة حوله، وهذا شيء مهم مما نحتاجه في هذه المرحلة. منه قدس سره.

لهذه الموسوعة، لتشكل الإطار العام لهذا البحث.

تقسيم البحث

نحاول ـ في هذا البحث[1] ـ بيان الأبعاد والأدوار الواقعية المتعددة لأهل البيت عليهم السلام في الحياة الإسلامية العامة، مضافاً إلى دور الخلافة وقيادة التجربة الإسلامية وولاية الأمر.

فيتركب البحث من خطين رئيسين:

الخط الأول: الحديث عن النظرية الإسلامية في موقع أهل البيت عليهم السلام من الرسالة الإسلامية، حيث تتم الإشارة فيه إلى مفهوم الإمامة، ثم إلى أبعاد النظرية الإسلامية.

ومن الملاحظ أن الرسالات الإلهية السابقة كانت تعتمد في إدامتها واستمرارها وبقائها على مجموعة من الأنبياء، الذين يأتون بعد كل نبي من أنبياء أولي العزم، يتحملون مسؤولية رسالتهم على مستوى التفسير والتطبيق والتنفيذ، ولكن الرسالة الخاتمة ـ التي هي أعظم الرسالات وأفضلها، والتي أراد الله لها الاستمرار والبقاء إلى آخر الحياة البشرية ـ يلاحظ أنها رسالة لا وجود لنبي فيها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لما نص عليه القرآن من قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[2]، وما تواتر لدى المسلمين من قوله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنه لا نبيّ بعدي»[3].

---

(١) سوف يبيّن شهيد المحراب قدس سره منهجية بحث الإمامة بكل أبعادها وجوانبها وليس بحوث هذا الكتاب فقط كما سترى.

(٢) الأحزاب: ٤٠.

(٣) أمالي المفيد: ٥٧. المستدرك ٢: ٣٣٧. صحيح البخاري ٥: ١٢٩. كتاب المراجعات: ٢٠٠ فقد ذكر فيه مصادر المسلمين التي نقلت الخبر.

إذن، فهذه الرسالة ـ من ناحية ـ هي أعظم الرسالات الإلهية، وأُريد لها الاستمرار والدوام أكثر مما أُريد للرسالات الإلهية الأخرى، ولكن من ناحية أخرى لم توضع لها ضمانات للاستمرار والبقاء من خلال إرسال الأنبياء التابعين، كما هو الحال في الرسالات التي جاء بها أنبياء أُولي العزم، حيث إن هؤلاء الأنبياء التابعين كانوا يقومون بمهمة إدامة زخم تلك الرسالة، ومتابعة الإشراف على تطبيقها، ودعوة الناس إليها؛ لأن عمر الرسول ـ بصورة عادية ـ يبقى محدوداً بالنسبة إلى عمر الرسالة نفسها، ولا يستمر ـ عادة ـ باستمرار الرسالة نفسها؛ ولذلك كان الله تعالى يرسل الأنبياء التابعين من أجل إدامة حركة الرسالة ومسيرتها.

من هنا يمكن أن نسأل: هل وضع الله تعالى للرسالة الخاتمة ضمانات للاستمرار والبقاء كما وضعت للرسالات السابقة؟

هذا السؤال هو الذي يفرض الحديث عن ضرورة وجود الإمامة، وموقع ودور أئمة أهل البيت عليهم السلام من الرسالة الخاتمة، حيث شاء الله تعالى أن يكون استمرار الرسالة الخاتمة عن طريق نظرية الإمامة، وأن تكون الإمامة في أهل البيت عليهم السلام.

وهذا الموضوع وإن كان يحتاج إلى بحث وشرح واسع، ولكن سأشير إليه في حدود الإثارة وبيان بعض خطوطه العامة، حيث نحاول معالجة ثلاثة أسئلة رئيسية:

الأول: ما هي ضرورة وجود الإمامة في الرسالة الخاتمة؟

الثاني: لماذا كان استمرار الإمامة في الرسالة الخاتمة في خصوص أهل البيت عليهم السلام، ولم يكن بصيغة أوسع وأشمل من هذه الأسرة الشريفة؟

الثالث: لماذا اختصت الإمامة بخصوص الأئمة الاثني عشر المعروفين من أهل البيت عليهم السلام؟

إن الجواب عن كل واحد من هذه الأسئلة يحتاج بيان بعدين:

البعد الأول: تفسير ظاهرة الإمامة؛ لأن الظواهر الإلهية والإسلامية بصورة عامة ليست اعتباطية، أو مجرد قضايا تعبدية، وإنما هي ظواهر لابد أن يكون وراءها حكمة ومصالح تفسرها. وهذا البُعد من البحث ذو طابع جديد نسبياً.

البعد الثاني: الاستدلال العلمي على ثبوت ظاهرة الإمامة في الإسلام، واختصاصها بأهل البيت عليهم السلام، وهو بحث تناوله علماؤنا في مختلف العصور حين بحثوا عقيدة الإمامة[1].

إن هذا التصور النظري ـ الخاص للاستمرار ـ من الامتيازات التي اختصت بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام على المدارس الأخرى؛ لأن المدارس الأخرى تدعي أن استمرار الرسالة الإسلامية كان بطريق آخر، وهو الدعوة والدولة، دون الاختصاص بأهل البيت عليهم السلام.

وهنا نحتاج من الناحية النظرية أن نتبين هذا الموقع الخاص لأهل البيت عليهم السلام في استمرار وإدامة هذه الرسالة من خلال ما يلي:

أولاً: بيان دور الإمامة وضرورتها في الرسالة الخاتمة التي أُريد لها أن تكون رسالة أبدية تنتهي بعمر البشرية.

ثانياً: بيان اختصاص أهل البيت عليهم السلام بهذا الدور دون غيرهم من الناس، وتفسير هذا الاختصاص، من حيث إنه مجرد اصطفاء غيبي ليس له تفسير وعلاقة بحركة البشرية والحياة الاجتماعية، أو أن له علاقة بالحياة البشرية، ومن ثم وجود الارتباط بين الأمر الأول والثاني.

ثالثاً: بيان اختصاص أهل البيت عليهم السلام بخصوص هذا العدد المحدود، وهو الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام.

---

(١) وقد تناوله شهيد المحراب قدس سره في القسم الثاني من هذا الكتاب.

هذا كله فيما يتعلق بأصل النظرية، وهو الخط الأول[١] الذي يكون البحث فيه على المستوى النظري، والذي سيقع في مدخل ومباحث ثلاث[٢]:

المدخل: بيان مفهوم الإمامة.

الفصل الأول: ضرورة الإمامة، وموقعها في الرسالة الإسلامية.

الفصل الثاني: اختصاص الإمامة بأهل البيت عليهم السلام.

الفصل الثالث: اختصاص الإمامة بالأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام.

الخط الثاني: تشخيص الأهداف والأدوار العامة لأهل البيت عليهم السلام على المستوى النظري، مع الإشارة إلى أدلتها من الكتاب الكريم والسنّة الواردة من النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام. حيث نلاحظ أن هناك سبعة أهداف وأدوار رئيسية وأساسية لأهل البيت عليهم السلام، يمكن استنباطها من مختلف الأدلة، وبالخصوص من أحاديثهم عليهم السلام حول دورهم في حياة المسلمين[٣]، وهي:

الدور الأول: حفظ الحياة الإنسانية؛ لما ورد في شأن الإمامة وأهل البيت عليهم السلام بأنهم أمان لأهل الأرض[٤].

الدور الثاني: قيادة التجربة والحكم الإسلامي، وولاية الأمر.

الدور الثالث: المرجعية الدينية والفكرية للمسلمين.

---

(١) موضوع هذا الكتاب هو الخط الأول بجميع تفاصيله، على مستوى النظرية والاستدلال عليها.

(٢) لقد تمّ استبدال كلمة مبحث بفصل من اجل تنظيم البحوث في الكتاب.

(٣) لم يتناول شهيد المحراب قدس سره هذه الأدوار في هذا الكتاب وإنما أحالها إلى فرصة أخرى كما ذكر قدس سره. وقد تناول قدس سره الدور الثاني في كتابه (الحجة والولاية من منظور الثقلين)، والدور السادس وبعض الأدوار المرتبطة به بصورة مفصلة في كتابه القيّم (دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة).

(٤) روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «لو بقيت الأرض يوماً واحداً بلا إمام منّا لساخت الأرض بأهلها» دلائل الإمامة: ٤٣٦، ح ١١.

الدور الرابع: المحافظة على وجود الشريعة الإسلامية فاعلة ومؤثرة في حياة الناس، وكذلك إبقاء أصل الرسالة محفوظة ومنزهة عن التحريف والتزوير.

الدور الخامس: المحافظة على وجود الأمة الإسلامية، ووحدتها، وحيويتها.

الدور السادس: بناء الجماعة الصالحة للقيام بدور المساعد والبديل لأهل البيت عليهم السلام عند الغيبة.

الدور السابع: تجسيد القدوة والأسوة في السلوك الإسلامي الراقي، وإيجاد المثال الخارجي للتكامل الإنساني الذي يمثل الهدف من وجود الإنسان.

إن كل واحد من هذه الأدوار يستحق بحثاً أو كتاباً مستقلاً، ولكننا في هذا الاستعراض سوف نحاول الاختصار والاقتصار على القضايا الرئيسية، مع الإشارة إلى أدلتها وذكر العناوين التي يمكن أن تكون مجالاً للبحث التفصيلي، مع الإشارة إلى بعض المصادر التي تناولت هذه الأبحاث التفصيلية.

المواقف

يوجد إلى جانب هذين الخطين من البحث ـ النظرية والأدوار ـ بحث ثالث مهم، وهو استعراض المواقف والانجازات المهمة الرئيسية، التي اختص أو تميز بها كل واحد من الأئمة الاثني عشر، إلى جانب المساهمة في الأدوار المشتركة، وتحقيق الأهداف العامة، حيث يمكن تقسيم البحث في هذا الموضوع على عدد الأئمة أنفسهم، وبيان الأدوار من خلال المواقف الخاصة لهم، والتي كان لها ـ بطبيعة الحال ـ أثر مهم في تحقيق الأهداف العامة المشتركة.

القسم الأول

نظرية الإمامة

- المدخل: مفهوم الإمامة
- الفصل الأول: ضرورة الإمامة وموقعها في الرسالة الإسلامية
- الفصل الثاني: اختصاص الإمامة بأهل البيت عليهم السلام
- الفصل الثالث: اختصاص الإمامة بالأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام

المدخل

مفهوم الإمامة

تقدم أنَّ مفهوم الإمامة في الثقافة الإسلامية العامة الرسمية يتبادر منه الولاية والحكم، ويمثل هذا التصور تحريفاً لمفهوم الإمامة إذا رجعنا فيه إلى المصادر الإسلامية الأصيلة، كالقرآن الكريم، والسنة النبوية.

ولعل السبب في هذا التحريف هو فرض فكرة الأمر الواقع في التأريخ الإسلامي، وجعلها مبرراً لتحريف هذا المفهوم، حيث إن مدرسة تبرير الأمر الواقع فرضت نفسها على الكثير من المفاهيم، وعلى كيفية التلقي للنصوص الإسلامية والاستنباط منها، وهو ما يعبّر عنه بالاجتهاد في مقابل النص، أو التفسير بالرأي، وذلك بتحميل النص للعناصر الذاتية والميول الخاصة أو الظروف السياسية والاجتماعية وتفسيره بها، بحيث يتحول الأمر الواقع والسلوك الخاص لهذه الجماعة حقيقةً يقيّم ويفهم بها النص الإسلامي بدل أن يؤخذ بصورة موضوعية، ويفهم من خلال مداليل الكلام وقواعد اللغة واعتماد القرائن الحالية والمقالية التي أحاطت به.

فقد انقلب ـ مع الأسف ـ السلوك الاجتماعي للإنسان مفسراً وموجهاً للنص الإسلامي، بدل أن يكون النص الإسلامي هادياً وموجهاً للسلوك الاجتماعي.

ومن هنا ينبغي الرجوع إلى النصوص القرآنية التي تعتبر أفضل مصدر لفهم مدلول (الإمامة)، ثم نستعين بالنصوص النبوية، لنخرج بمفهوم صحيح عن (الإمامة).

ولعل أفضل نص يمكن أن نتعرف من خلاله على مفهوم الإمامة، هو الآية الكريمة التي تحدثت عن جعل الإمامة لإبراهيم عليه السلام، والذي تؤيده مجموعة نصوص قرآنية أخرى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1].

أبعاد مفهوم الإمامة

إن النص المتقدم يمكن أن نفهم منه عدة أبعاد لمفهوم الإمامة:

البُعد الأول: إنّ الإمامة هي هداية الناس إلى الله تعالى من خلال تقدمهم عملياً في المسيرة الربانية.

وهذا ما يدل عليه مفهوم الإمامة لغة[2]، وتؤكده مجموعة من الآيات الكريمة التي تحدثت عن الإمامة وقرنتها بالهدى، منها قوله تعالى في معرض حديثه عن قصص إبراهيم عليه السلام وولده: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[4].

وكذلك ما ورد في سورة الأنعام في معرض الحديث عن الأنبياء منذ نوح عليه السلام إلى عيسى عليه السلام: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾[5].

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) لسان العرب ١٢: ٢٤ ـ ٢٦. القاموس المحيط ٤: ٧٧.

(٣) الأنبياء: ٧٣.

(٤) السجدة: ٢٤.

(٥) الأنعام: ٨٩ ـ ٩٠.

ويبدو من هذه الآيات الكريمة أنَّ الهداية ليست مجرد الموعظة والإرشاد وبيان الحقائق الإلهية: «بل هي الهداية التي تقع بأمر الله تعالى، وهذا الأمر هو الذي بيّن حقيقته في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾»[1]. ولعله بذلك كانت هذه الإمامة مجعولة من قبل الله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[2].

البُعد الثاني: إنَّ الإمامة عهد إلهي إلى عباده الصالحين، كما تصرح بذلك الآية الكريمة: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾، والسّر في ذلك ما أشرنا إليه من أنها هداية بأمر الله تعالى؛ ولذلك لابد أن نفترض فيها جانباً من الاصطفاء والاجتباء من ناحية، كما تشير إليه الآيات الكريمة التي تحدثت عن الاصطفاء، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3].

كما نفترض فيها ـ في الوقت نفسه ـ درجة خاصة من الهداية العملية، بحيث تكون هداية بأمر الله تعالى، لا بأمر الإنسان ومبادراته واجتهاداته وفهمه للدين من خلال اكتساب العلم والتفقه في الدين وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

البُعد الثالث: إنَّ الإمام لا يمكن أن يكون ظالماً، كما تصرح بذلك الآية الكريمة: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾، ولابد أن يكون انتفاء الظلم عن الإمام بدرجة عالية لما تقتضيه عدة قرائن حالية ومقالية تمّ تناولها في أبحاث التفسير[4]، ترجع في نهايتها:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١: ٢٧٢.
(٢) البقرة: ١٢٤.
(٣) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.
(٤) راجع كتاب الميزان في تفسير القرآن ١: ٢٧٤ ـ ٢٧٦.

إما إلى مناسبات الحكم والموضوع، حيث إن السؤال أو الطلب من إبراهيم عليه السلام لإمامة ذريته إنّما يتناسب مع سؤال أو طلب الإمامة للمؤمن من ذريته، وحين يأتي النفي لوصول العهد إلى الظالم فهو نفي للظالم المؤمن، وهذا يدل على النقاء المطلق.

أو إلى أنَّ طبيعة هذه الهداية الربانية العملية التي تكون بأمر الله تعالى واصطفائه وجعله، إنّما تناسب الإنسان السعيد والمهتدي بذاته دون حاجته إلى هداية غيره، وهذا يعني بلوغه درجة العصمة العالية التي تؤهله هٰذه الهداية.

أو أن هذا الجعل الإلهي للإمامة والهداية الخاصة بعد الابتلاء والامتحان، إنّما يتناسب مع هذا المستوى العالي الراقي من التكامل الإنساني، والذي تمَّ تأكيده بقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

البُعد الرابع: إنَّ مرتبة الإمامة أعلى من درجة النبوة التي كان عليها إبراهيم عليه السلام عند مخاطبته بهذا الجعل الإلهي، كما يبدو ذلك من بعض القرائن القرآنية: من مخاطبته بها بعد الابتلاء والامتحان، وهو ما تحقق بعد النبوة، ومن سؤال أو طلب الإمامة لذريته ولم تكن له ذرية إلاّ في آخر عمره.

وهو ما تشير إليه الآيات الكريمة التي تحدثت عن الأنبياء السابقين، من أنَّ هذا الجعل كان بعد نبوتهم، وما تنص عليه بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام، مثل ما رواه الكليني عن الصادق عليه السلام: «إنَّ الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال عليه السلام: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، قال عليه السلام: لا يكون السفيه إمام التقيّ»[1].

---

(١) وروي هذا المعنى بأسانيد أُخرى عن الباقر والصادق عليهما السلام، وللعلامة الطباطبائي قدس سره بحث رواني مفيد حول هذا الحديث، الميزان في تفسير القرآن ١: ٢٧٦ـ ٢٧٩.

فعندما تكون الإمامة أعلى درجة من النبوة، لابد أن تجتمع فيها أبعاد النبوة ومسؤولياتها بأعلى درجاتها، بل يمكن القول: إن الإمامة تمثل تطوراً وسمواً في حركة النبوة يتناسب مع تطور الإنسان في إدراكه وفهمه للحياة والمشاكل التي تواجهه في هذا الفهم، وتطور المجتمع الإنساني في علاقاته ومشاكله الحياتية، بحيث يتحول دور النبي فيها من دور الإخبار وبيان الحقائق وحمل الرسالة الإلهية إلى الناس وإبلاغها لهم، إلى دور أعظم، وهو دور التجسيد العملي الاجتماعي لهذه الرسالات، ودور التزكية والتطهير والتعليم وإقامة الحق والعدل بين الناس، وحل مشاكلهم والحكم فيما يختلفون فيه.

البُعد الخامس: إنَّ هذه الإمامة هي إمامة عالمية وللناس جميعاً، وليست خاصة بالقوم والجماعة أو المنطقة والإقليم، بل هي للناس: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

وهذا جانب آخر من تطور النبوة في مساحة عملها وحركتها الخارجية، وليس في آفاقها النظرية، إذ يمكن أن نفترض أنَّ النظرية كانت عامة، ولكن لم تأخذ طريقها إلى الواقع من خلال حركة النبوة الخارجية.

وهذا البعد يلقي بظلاله على محتوى ومفهوم هذه الإمامة، بحيث تكون قادرة على الوفاء بجميع هذه الحاجات الإنسانية.

أبعاد الإمامة في نظر أهل البيت عليهم السلام

وانطلاقاً من هذا الفهم للنصوص القرآنية، يمكن تلخيص أبعاد الإمامة في نظر أهل البيت عليهم السلام بما يلي:

الأول: بُعد الاصطفاء والاجتباء والاختيار من قبل الله تعالى للإمام- كما هو الحال في النبوة ـ للقيام بالمهمات الخاصة التي اصطفى الله سبحانه وتعالى الأنبياء والأولياء من أجلها، كالشهادة، والهداية، وإبلاغ الرسالات، والبشارة، والإنذار،

والتزكية، والتعليم، وإقام العدل والقسط بين الناس، كما أشار إليها القرآن الكريم في مواضع عديدة[١].

ولكن الإمامة في الحالات التي تنفصل فيها عن النبوة قد تكون أدنى من النبوة في بعض هذه المجالات، كمجال إبلاغ أصل الرسالة الإلهية عن الله تعالى، فهي ميزة النبوة، وهي أرقى من النبوة في بعض المجالات الأُخرى، كالتزكية والتعليم، وإقامة القسط والعدل بين الناس.

وهذا البُعد يمكن فهمه من الجعل والاصطفاء للأنبياء.

الثاني: الاستمرار والامتداد لمهمات الرسالة الإلهية، عندما لا يتسع زمان الرسول ـ صاحب الشريعة ـ للوفاء بالقيام بمهماته كاملة، لأن عمر الرسول ـ عادة ـ يكون أقصر من عمر الرسالة، وبذلك قد تستمر الرسالة من خلال الأنبياء التابعين للأنبياء أولي العزم، أو من خلال الأئمة عندما تنقطع النبوة، كما في الرسالة الخاتمة.

ويمكن معرفة هذا البعد من آية إمامة إبراهيم عليه السلام، حيث تبادر إلى ذهنه عليه السلام بقاء الإمامة واستمرارها، مما أثار السؤال عن استمرارها في ذريته، فجاء الجواب الإلهي مؤكداً لذلك.

الثالث: الامتياز بالعلم والأخلاق والصفات الروحية المكتسبة ـ عادة ـ من خلال الممارسة والتجربة والامتحان والابتلاء، بحيث يكون متقدماً في ذلك على أهل زمانه، فهو أعلمهم وأفضلهم في صفات الكمال.

وليس من الضروري أن تكون هذه الصفات مكتسبة، بل قد تكون منحةً

(١) قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ البقرة:١٢٩، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ آل عمران:١٦٤.

إلهية - كما سوف نشير - ولكن من الضروري أن تكون ثابتة فيه، ليكون مؤهلاً لهذه الإمامة.

وهذا البُعد يمكن استفادته مما أشارت إليه الآية وغيرها: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾، إذ يفهم منه أنَّ الابتلاء بالكلمات كان السبب في هذا الجعل والتأهيل له.

وكذلك ما ورد من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾[1]، حيث يفهم منه أنَّ الصبر كان وراء هذا الاستحقاق.

ويؤكد ما يفهم من الآية ورود التصريح به في روايات أهل البيت عليهم السلام، من أن الإمامة أعلى درجة من النبوة[2].

الرابع: الولاية والحكم والإدارة لشؤون الناس، لإقامة الحق والعدل والقسط بينهم؛ لأنَّ من يتقدم الناس في هذا الأمر ويتصدى له ويتحمل مسؤوليته بالاصطفاء الإلهي له، لابد أن يكون مستحقاً لهذه الولاية والإدارة والحاكمية.

ويمكن استنباط هذا البُعد من الآية الكريمة، ومن الآيات الأُخرى التي أكدت وجوب الطاعة للرسول ولأولي الأمر، وذكرت قيام الناس بالقسط والحكم فيما يختلفون هدفاً لإرسال الرسل وبعثة الأنبياء، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ

---

(١) السجدة: ٢٤.

(٢) روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام إنه قال: «إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله إتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل ان يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء قال ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قال: فمن عظمها في عين إبراهيم، قال: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾، قال: لا يكون السفيه إمام التقي» الكافي ١: ١٧٥، ح٢.

(٣) الحديد: ٢٥.

وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾(١).

الخامس: وجوب الحب والولاء والمودة الخاصة والتقديس والتعظيم للإمام بما يتناسب مع مواصفاته الإيمانية الممتازة ومسؤوليته الإلهية الخطيرة، كما تشير إلى ذلك الآيات الكثيرة التي دلّت على حب الرسول، وأنه حب لله تعالى وولاء وتقديس وتعظيم له تعالى...

السادس: إنَّ الإمامة والإمام يمثلان التكامل الإنساني في مسيرة البشرية، والهدف الذي خلق الله الإنسان على الأرض من أجل تحقيقه والدرجة العليا في المصير الأخروي، وهو ما تذكره بصورة واضحة آية جعل الخلافة على الأرض: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(٢)، وكذلك الآيات التي تتحدث عن السبب في خلق الإنسان والجن، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٣).

وذلك لأنَّ الإمام هو الذي يتقدم مسيرة الإنسانية كلها ليهديها إلى هذه الأهداف، فلابد أن يكون المثال الكامل الذي يُقتدى به في هذا الطريق.

إنَّ هذه الأبعاد التي يمكن استنباطها من القرآن الكريم تمثل أبعاد نظرية أهل البيت عليهم السلام للإمامة.

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) الذاريات: ٥٦.

الفصل الأول

ضرورة الإمامة

ضرورة الإمامة

إن الاستمرار من خلال النبوة في الرسالات السابقة كان أمراً طبيعياً؛ وذلك للوصول بالرسالة والإنسانية معاً إلى مرحلة التكامل الرسالي والإنساني، فكان من الضروري بعث أنبياء تابعين للرسالة الإلهية التي يأتي بها نبيٌّ من أنبياء أولي العزم؛ لأن الرسالات الإلهية كانت تتعرض إلى التحريف، لدرجة تفقدها دورها الرسالي المطلوب من ناحية، ولعدم بلوغ الرسالات تكاملها الرسالي المفروض الذي بلغته في الرسالة الخاتمة من ناحية أخرى، كما وأن الإنسانية لم تبلغ مرحلة التكامل الرسالي في ثبات الأصول والمبادئ الأساسية للرسالات الإلهية في مسيرتها من ناحية ثالثة، فتحتاج إلى النبوات التابعة التي قد يندمج فيها دور النبوة والإمامة في بعض الأحيان، وقد ينفصل أحياناً أخرى حسب طبيعة المرحلة والزمان، فنشاهد أنبياء دون إمامة يبلغون الرسالة، ويبينون أو يكشفون ما تعرضت له من تحريف، ونشاهد أوصياء دون نبوة، ليكون دورهم هو مواصلة دور النبوة السابقة.

أما في الرسالة الخاتمة وبعد فرض تكاملها الرسالي والإنساني معاً، سواء على مستوى النظرية، أم ثبات الأصول والمبادئ الأساسية للرسالة، فقد انتفت الحاجة إلى أنبياء تابعين؛ ولذا انقطعت النبوة[1].

ولكن لماذا كان الاستمرار في الرسالة الخاتمة من خلال خط الإمامة دون النبوة، مع أنّ الحاجة في استمرار وبقاء الرسالة الخاتمة ـ بسبب أهميتها وجلالتها

---

(١) لشهيد المحراب ﷺ بحث مفصّل في كتابه (الرسول الأعظم) يعالج فيه هذا الأمر بالتفصيل.

وسموها وامتيازها على الرسالات السابقة ـ أكثر من حاجة الرسالات السابقة، فكيف لا تحتاج إلى مَن يتابعها مع أن الرسالات الأقل احتاجت إلى مثل هذه المتابعة على مستوى إبلاغ الرسالة أو المحافظة عليها من التحريف؟

والسبب في ذلك:

أما على مستوى إبلاغ الرسالة، فإن الرسالة الخاتمة أصبحت ـ من حيث مضمونها ومحتواها الرسالي ـ رسالة كاملة وخاتمة، ولا تحتاج عندئذ إلى متابعة على مستوى الأنبياء؛ لبيان أصل الرسالة وتثبيت الأصول؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله أكملها في بلاغها وعَرَضِها على الناس، وقد صرح القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

إذن، فالرسالة الخاتمة من هذه الناحية لا تحتاج إلى إكمال على مستوى البلاغ، والتبشير، والإنذار، الذي يتحمله الأنبياء ـ عادة ـ لمعالجة الانحرافات وتثبيت الأصول والأسس.

نعم، قد تحتاج إلى إكمال بيان بعض التفاصيل، ولكن هذا وحده لا يفسّر الحاجة إلى الإمامة ودورها الكبير المطروح في النظرية الإسلامية.

وأما على مستوى المحافظة عليها من التحريف، فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تختص الرسالة الإسلامية ـ من بين الرسالات الأخرى ـ بضمانات، ووسائل الحفظ من الضياع والتحريف المطلق في مضمونها من خلال عدة عناصر أساسية ومهمة، يأتي في مقدمتها القرآن الكريم، والمحافظة عليه من التحريف والزيادة والنقصان، ببركة قيام النبي صلى الله عليه وآله بتدوينه[2]، وكذلك وجود العدد الكبير من الصحابة الأفذاذ الصالحين ـ وفي مقدمتهم الإمام علي عليه السلام ـ الذين تمكنوا من حفظ القرآن في الصدور، وغير ذلك من الأسباب الغيبية أو المادية، كما بينه الله

(١) المائدة:٣.

(٢) لشهيد المحراب بحث قيّم في هذا المجال في كتابه علوم القرآن:١٠٨ ـ ١٢٤.

تعالى في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[(١)].

ولا شك أن لوجود أهل البيت عليهم السلام دوراً مهماً وعنصراً أساسياً في ذلك[(٢)].

وبذلك لم تعد بحاجة إلى نبوات تابعة، ولكن مع ذلك كله، تبقى الرسالة الإسلامية الخاتمة بحاجة إلى متابعة على مستويات أخرى؛ ومن أجل ذلك كان وجود الإمامة واستمرار الرسالة من خلالها ضرورة لازمة.

ولتوضيح ذلك، أشير إلى ثلاث نقاط رئيسية، لابد من بحثها بدقة، وهي:

النقطة الأولى: الإمامة والاختلاف في العبادة

عندما يرسل الله سبحانه وتعالى الأنبياء إلى عباده فإنّهم يقومون بمهمات ذات بعدين رئيسين:

أحدهما: البلاغ والإنذار وبيان الرسالة بتفاصيلها المطلوبة للناس، وهذا ما قام به رسول الله صلى الله عليه وآله في الرسالة الخاتمة، وقام به الأنبياء السابقون في الرسالات الأخرى.

ثانيهما: مواجهة ظاهرة الاختلاف في المجتمع الإنساني والعمل على حلّه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[(٣)].

وتدخل مهمة التزكية والتطهير، ومهمة التعليم كنتيجة لهاتين المهمتين الرئيسيتين.

إذن، الاختلاف قضية مهمة جداً، يواجهها الأنبياء في حركتهم ويتحملون مسؤولية حلها، والمراد من الاختلاف هو: اختلاف في المثل العليا التي يتخذها

---

(١) الحجر:٩.

(٢) علوم القرآن: ٢٥٥.

(٣) البقرة:٢١٣.

الناس للعبادة، وفهمهم للحياة والكون وحركتهم الاجتماعية، حيث يعبدون من دون الله الآلهة المصطنعة والمُثُل المحدودة، أو التكرارية، والأسماء المزيفة المستلهمة: من القوى الموجودة في هذا الكون، أو من الشهوات والأهواء والميول، أو من الطغاة والمستكبرين والمترفين، أو من تقليد الآباء والأجداد.

ولمّا كان عمر الرسول محدوداً ـ عادة ـ فهو لا يستوعب الزمان الكافي لحل هذا النوع من الاختلاف خارجياً، بحيث يمكّنه من إزاحة جميع العوائق والموانع، التي تقوم أمام الرسالة في حركتها الاجتماعية والإنسانية، فتصبح الرسالة بحاجة إلى قيادة معصومة للحركة الاجتماعية، وإدامة العمل لحل هذا النوع من الاختلاف. وهذه الحاجة ثابتة في كل الرسالات الإلهية، فكيف إذا كانت الرسالة رسالة خاتمة طويلة، يُراد لها أن تعمّ الأرض كلها، وتزيل جميع الآلهة المصطنعة، والأمثلة التي يبتدعها الإنسان وتنتصب في وسط الطريق؟ !

لذا كانت الحاجة قائمة لوجود القائد ـ الإنسان الكامل ـ الذي نعبّر عنه بـ(الإمام)؛ ليقود معركة تحرير الإنسان من كل هذه الآلهة والقيود، وتحقيق العبادة المطلقة لله تعالى، وهو المثل الأعلى للحق؛ لأن هذه المعركة تحتاج إلى شخص يتصف بالاستيعاب الكامل، والرؤية الواضحة للرسالة من ناحية، والشعور العالي بالمسؤولية أمام الله تعالى في إدامة المعركة من ناحية ثانية، والإدارة القوية لها التي تعتمد على جهاد النفس من ناحية أخرى.

وقد أشار الشهيد الصدر قدس سره إلى هذا السبب في حديثه حول ضرورة الإمامة بعد الرسول[1]، وقد أعطى الإمامة مضموناً شاملاً، يتحد مع النبوة أحياناً عندما تكون الحاجة إلى النبي والقائد معاً، ويفترق عنها أحياناً أخرى عندما تكون الحاجة إلى القائد وحده، ولكنه على أن يرتبط بهذه المهمة الخاصة، وهي قيادة المعركة التي يواجهها الأنبياء في المجتمعات الإنسانية لإزالة كل الأمثلة المزيفة والآلهة

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٤٣ ـ ١٤٦.

المصطنعة، التي يخترعها الإنسان ويبتدعها، سواء كانت عبارة عن طواغيت يحكمون بين الناس أم شهوات وهوىً يتحكم في مسيرة هؤلاء الناس، أم أفكاراً منحرفة يختلقها الإنسان ويبتكرها، فيجعلها مثالاً له يقتدي ويهتدي بها، فتتحول إلى إله يعبده من دون الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾(١)، فهي معركة إزاحة هذه الآلهة المصطنعة عن طريق الهدى والصلاح والخير الذي يقوده الأنبياء.

وهذه المعركة عمرها أطول من عمر النبي مهما طال زمانه؛ لأن الله تعالى جعل قضية الاختلاف بين الناس سنّة من السنن الطبيعية، التي تحكم حركة التأريخ في كل الأدوار.

فقضية الاختلاف قضية قائمة لا يختلف فيها زمان عن زمان، ولا تنتهي إلا بنهاية حركة البشرية، ويشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾(٢).

إذن، فالمعركة ضد الاختلاف تحتاج إلى من يقودها، وزمنها أطول من زمن النبي، ولو كانت تنتهي بعمر النبي كان يمكن له أن ينهي المعركة، ولا نحتاج إلى من يقودها من بعده، ولكنه لمّا كانت هذه القضية سنّة تحكم حركة التأريخ، احتجنا بعد النبي إلى من يقود معركة إزاحة الآلهة المزيفة والمصطنعة أمام الحركة التكاملية للإنسان.

وقيادة هذه المعركة تارةً تكون من قبل نبي يقوم بدور الإمام أيضاً كما في كثير من الأنبياء السابقين التابعين، وأخرى تكون من قبل الإمام الذي لا يتصف بعنوان النبوة؛ لعدم الحاجة إليها، ولمّا كانت الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة، الكاملة، المحفوظة، ونبوة محمّد ﷺ لا نبوة بعدها، اقتضى أن يكون الدور للإمامة التي لا تتصف بالنبوة.

---

(١) النجم:٢٣.

(٢) هود:١١٨ ـ ١١٩.

والشواهد على هذه الحقيقة عديدة تؤكد النظرية التي أشارت إليها الآيات القرآنية المذكورة، وهذه الآيات وإن كانت تكفي أن تكون شاهداً ودليلاً عليها، ولكن الواقع التأريخي شاهد أيضاً على هذه الحقيقة، فإن ظاهرة الاختلاف قائمة وثابتة في التأريخ الإنساني، كما أنها ثابتة في التأريخ الإسلامي في زمن النبي صلى الله عليه وآله وبعده، ولا يمكن لأحد من الناس أن ينكرها أو يخفيها.

إذن، فهذه القضية ليست مجرد نظرية، وإنما هي قضية ذات واقع قائم في المجتمع الإنساني والإسلامي كله، وهذا هو ما نواجهه أيضاً في هذا العصر والزمان.

النقطة الثانية: الإمامة والاختلاف في التأويل

إنّ الرسالات الإلهية تواجه عادة ـ مع غض النظر عن الاختلاف الذي تقدم في النقطة الأولى ـ بعد ثبوتها ورسوخ أقدامها نوعاً آخر من الاختلاف، وهو الاختلاف في تفسيرها، وفهم مداليلها وتأويلها، وتجسيد المصاديق الخارجية فيها، وهذا نوع آخر من الاختلاف أشار إليه القرآن الكريم في كثير من آياته، التي تحدث فيها عن أهل الكتاب وما اختلفوا فيه من تأويله، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ

(١) البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٦.

يَخْتَلِفُونَ ﴾[(١)]، كما أن بعض الآيات القرآنية أشارت إلى كلا النوعين من الاختلاف، كما في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(٢)].

وهذا النوع من الاختلاف هو معركة أخرى تخوضها الرسالات الإلهية ـ عادة ـ وهو غير الاختلاف الناشئ من تحريف أصل الرسالة، بمعنى ضياع بعض معالمها المهمة، فهو تحريف في التطبيق والفهم، ويحتاج أيضاًإلى قيادة معصومة في فهمها الكامل للرسالة، وفهم مضمونها وآفاقها، وفي معرفتها لتفاصيلها، التي لا يمكن ـ عادة ـ للنبي أن يوضحها لجميع الناس ـ كما تدل على ذلك شواهد كثيرة[(٣)] ـ وكذلك معصومة في حرصها على الرسالة، وقيمها، ومُثلها، ومبادئها، وصبرها، واستقامتها في هذا الطريق، وتحمّلها لمسؤوليتها وأعبائها.

وكان يتم ذلك في الرسالات الإلهية الأخرى عن طريق النبوات التابعة لها، أو الأوصياء الذين كانوا يتحملون هذا الدور من الإمامة أيضاً وأما في الرسالة الخاتمة فقد تمحّض هذا الأمر في دور الإمامة.

وهذا النوع من الاختلاف هو الذي يفسّر لنا ما ورد في أحاديث عديدة عن رسول الله ﷺ، عندما كان يتحدث مع الإمام علي عليه السلام، وغيره عن المستقبل، وتطورات الأحداث فيه، حيث كان يتحدث عن معركتين: إحداهما على التنزيل، كان يقودها هو ﷺ في مواجهة المشركين وأهل الكتاب، وأخرى على التأويل،

---

(١) الجاثية:١٦ ـ ١٧.

(٢) البقرة:٢١٣.

(٣) راجع علوم القرآن: ٢٤٧ ـ ٣٠٧.

التي أخبر الرسول ﷺ عن دور الإمام علي عليه السلام في قيادتها، فقد روى سعيد بن المسيب، عن سعيد بن مالك: أن النبي ﷺ قال: «يا عليّ أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي، تقضي ديني وتنجز عدتي وتقاتل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل، يا عليّ حبّك إيمان وبغضك نفاق ولقد نبّأني اللّطيف الخبير أنه يخرج من صلب الحسين تسعة من الأئمة، معصومون مطهّرون، ومنهم مهديّ هذه الأمة، الّذي يقوم بالّدين في آخر الزمان كما قمت به في أوله»(١).

إذن، فهذه المعركة هي قضية حقيقية قائمة في التأريخ الرسالي والتأريخ الإسلامي، وقد ذكرها القرآن الكريم على مستوى تأريخ الأنبياء أيضاً وأكدتها الأحداث التي جرت بعد رسول الله ﷺ كحقيقة من الحقائق التأريخية، أخبر بها رسول الله ﷺ.

النقطة الثالثة: الإمامة والولاية

إنّ الرسالة الخاتمة لها امتيازات عديدة(٢):

منها: إن الله تعالى شاء أن يحفظ هذه الرسالة بمضمونها الرسالي بصورة كاملة من خلال القرآن الكريم؛ ولذا لم تحتج إلى النبوات التابعة، أما الرسالات السماوية الأخرى فقد تعرضت للتحريف والضياع؛ لأسباب يطول الحديث فيها.

ومنها: تمكّن الرسالة الإسلامية من إقامة الدولة الإسلامية ـ الكيان السياسي الإسلامي ـ في المجتمع الإنساني في عصر صاحب الرسالة وبعده.

فقد دعت الرسالات السابقة إلى إقامة الحق والعدل بين الناس، وتحكيم ما أنزل الله تعالى بينهم، قال تعالى في سياق الحديث عن نزول التوراة: ﴿وَمَن لَّمْ

---

(١) كفاية الأثر: ١٣٥، وقد ورد مضمون القتال على التأويل والقتال على التنزيل في عدد من النصوص التي رواها الفريقان. راجع المستدرك ٣: ١٢٣.

(٢) لست بصدد بيان جميع امتيازات الرسالة الخاتمة على الرسالات السابقة، ولكن أريد الإشارة هنا إلى الامتيازات التي هي محل الشاهد في بحثنا هذا. منه رحمه الله.

يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1]، وقال في سياق الحديث عن نزول الإنجيل: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2]، كما قال في سياق الحديث عن نزول القرآن الكريم: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[3].

إذن، فقضية الدعوة إلى إقامة الحكم بين الناس ليست خاصة بالرسالة الإسلامية، بل هي قضية ترتبط بكل الرسالات الإلهية، ولكن شاء الله تعالى في حركة وتأريخ الرسالات الإلهية، أن يقوم الحكم بين الناس كحالة سياسية اجتماعية خارجية ـ نعبّر عنها بقيام الدولة الإسلامية ـ في خصوص تأريخ الرسالة الخاتمة دون بقية الرسالات الأخرى.

فنوح عليه السلام لم يتمكن من تحقيق قيام دولة إسلامية، ولو بمستوى الإسلام الذي جاء به نوح عليه السلام، كما أن إبراهيم عليه السلام ـ وهو أبو الأنبياء ـ لم يتمكن أن يقيم هذا الكيان السياسي الإسلامي، وموسى عليه السلام شاء الله تعالى أن يقبضه إليه، قبل أن يتمكن من إقامة هذا الكيان السياسي الإسلامي، بعد أن مهّد له بإخراج بني إسرائيل من سلطة فرعون، وجاء بألواح التوراة؛ ليحقق ذلك، ولكنهم رفضوا الاستمرار في المسيرة، ودخول الأرض المقدسة لتحقيق هذه المهمة الإلهية الصعبة، فكتب الله تعالى عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة[4].

---

(١) المائدة:٤٤.

(٢) المائدة:٤٥.

(٣) المائدة:٤٧.

(٤) وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ المائدة:٢١ ـ ٢٦.

وكذا الحال بالنسبة إلى عيسى عليه السلام، حيث رفعه الله تعالى قبل أن يحقق هذا الهدف الإسلامي العظيم.

ولم يتمكن الحواريون من القيام بذلك ـ أيضاً ـ فولدت الرهبانية والانعزال، وانحرفت المسيحية على يد (بولس)، عندما تحولت إلى الحكم والسلطان والقيصرية.

وشاء الله أن يكون ذلك من امتيازات نبوة محمد ﷺ.

إذن، فإقامة الدولة الإسلامية من الامتيازات الخاصة بالرسالة الإسلامية[1]،

---

(١) هذا بحث عميق، وفيه الكثير من التفاصيل، وقلت: إنّي أشير هنا إلى العناوين الكلية، ومن هذه التفاصيل، تفسير ظاهرة قيام الدول التي أقامها بعض الأنبياء، كداود وسليمان عليهما السلام، وغيرهما من الأنبياء، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك عندما تحدث عن تفضيل ونعم الله على بني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ المائدة:٢٠، فإن بعض هؤلاء الأنبياء أقاموا دولة، ولكن الدولة التي أقاموها تختلف بحسب مضمونها، وهويتها وخصوصياتها عن الدولة الإسلامية، التي أقامها النبي ﷺ، ليس بحسب سعتها ودائرة وجودها وتفاصيلها، بل بحسب الهوية والمضمون، وهذا بحث أشرت له بصورة موجزة في بحث (العالمية والخاتمية والخلود) كصفات للرسالة الإسلامية.

فالدول التي أقامها هؤلاء الأنبياء أقاموها من خلال التحولات البشرية للقدرة والسلطان، فهي دولة سلطان يمكّنه الله تعالى من القدرة في المجتمع، فيقيم حكم الله تعالى، لا أنها دولة أقيمت منذ البداية على أساس الحركة التغييرية للمجتمع الإنساني الذي تقوده الرسالة التي جاء بها هذا النبي، والصراع السياسي والتغيير في المجتمع الإنساني لإقامة حكم الله في الأرض.

فقد مكّن الله تعالى داود عليه السلام كقائد عسكري من أن يمسك بالقدرة، فيقيم ـ بطبيعة الحال ـ حكم الله، ولذا توجه إليه الخطاب الإلهي: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ ص:٢٦، فمن الطبيعي أن يحكم بين الناس بالحق. إذن، كانت هناك قدرة بموجب طبيعة حركة انتقال السلطة بين الناس، ومن بعد هذه القدرة أقيمت هذه الدولة.

أما النبي ﷺ فقد أقام دولة الإسلام كمشروع طرحه منذ البداية، ثم أسسه وأقام دعائمه. منه ﷺ.

ولمّا كانت كذلك فلابد أن تكون لها قيادة معصومة منذ البداية؛ لتتخذ الدولة صيغتها الإسلامية الكاملة في التطبيق المتميزة عن الصيغ الأخرى، وهذا إنها يتحقق من خلال الإمامة؛ لأن مثل هذه الدولة والتجربة لا يمكن أن تقاد بصورة كاملة وصحيحة، بحيث تحقق كل الأهداف التي جاءت بها الرسالة، إلاّ بمثل هذه القيادة التي نعبّر عنها بالإمامة.

وهنا ينفتح أمامنا باب بحث الخلافة الإلهية ـ الذي هو من الأبحاث الكلامية المهمة التي تناولها علماؤنا، واستدلوا فيها على تشخيص مَن يتولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ ويقوم بإدارة هذه الدولة ـ وفيه بُعدان:

- بُعد يرتبط بالجانب العقائدي، وهو استمرار الرسالة في الإمامة، وعصمة هذه الإمامة كعصمة الرسالة.

- ويُعد آخر يرتبط بالجانب التأريخي، والسياسي، والنصوص التي وردت في ذلك، والتحولات الاجتماعية والظروف السياسية التي اقترنت بهذا الموضوع.

وعلى هذا فحينما نتحدث عن موضوع الخلافة لا نتحدث عن أمر تأريخي ذهب مع الزمن وانتهى وقته، وإنما نتحدث عن أمر عقائدي، يرتبط بفهمنا للإسلام وللرسالة الإسلامية ولتكاملها، وهذه قضية مهمة جداً.

إذن، فالنقطة الثالثة في ضرورة الإمامة، هي: ضرورة وجود قيادة معصومة للحكم الإسلامي والكيان السياسي، من أجل أن يكون قادراً على تطبيق الحق والعدل على البشرية بصورة كاملة ودقيقة تتناسب مع الهدف الكبير للرسالة الإسلامية.

ولذا نعتقد أنه بسبب عدم تولي الإمامة المعصومة لقيادة الحكم الإسلامي شهد التأريخ الإسلامي هذا القدر الكبير من الانحراف في مجال تطبيق العدل والحق، بحيث جعل الرسالة الإسلامية كلها في موضع الشك والريب؛ بسبب الظلم، والاستبداد، والطغيان، الذي مارسه الحكام المسلمون في عدة قرون من

الزمن، وعلى مر العهود: الأموية، والعباسية، والعثمانية، ولولا الفترة القصيرة للقيادة المعصومة لرسول الله صلى الله عليه وآله وللإمام علي عليه السلام، التي تمكنت أن تبين الوجه الناصع الحقيقي لطبيعة الحكم الإسلامي، لكان مواجهة هذه الشبهة ـ واقعياً وعملياً ـ أمراً عسيراً، ولاسيما وأن فترة الخلافة الأولى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله شهدت الاضطراب والتذبذب في صيغة الحكم الإسلامي، وفي النتائج المروعة التي انتهت إليها في خلافة الخليفة الثالث.

من هنا كانت فكرة الإمام المنتظر عجل الله فرجه ـ الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً ـ فكرة مطروحة منذ البداية في الرسالة الإسلامية، وهي مما يجمع عليها المسلمون، وذلك من أجل تحقيق هذا الهدف الكبير في الكم والانتشار على مستوى العالم البشري، وفي الكيف على مستوى التطبيق الكامل للحكم الشرعي، وعندئذٍ ستكون كل المساعي التي بذلها أئمة أهل البيت عليهم السلام وهم بعيدون عن قيادة الحكم الإسلامي، والتجربة الإسلامية، وكذلك كل المساعي الأخرى التي بذلها ويبذلها العلماء المجاهدون والمؤمنون على طول التأريخ الإسلامي، إنما هي تمهيد لظهور هذه الدولة المباركة الكريمة، التي تملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً.

وبهذا تتضح حقيقة الجواب عن السؤال: ما الضرورة من استمرار الرسالة الإسلامية من خلال الإمامة، مع كونها رسالة خاتمة، ثم لماذا لم يكن هذا الاستمرار بهذه الصورة في الرسالات السابقة، بل كان من خلال النبوات التابعة.

الفصل الثاني

اختصاص الإمامة في أهل البيت عليهم السلام

بعد الإنتهاء من البحث في ضرورة وجود الإمامة ينبثق سؤال مهم، وهو: لماذا كان هذا الخط مستمراً في خصوص أهل البيت عليهم السلام؟ فمثلاً بالإمكان أن نفترض ـ ولو نظرياً ـ أن يكون الأئمة المعصومون في أسرة ووسط آخر غير هذا البيت الشريف.

وبعبارة أخرى: هل اختصاص الإمامة بأهل البيت عليهم السلام في الرسالة الإسلامية هو تكريم وتشريف لرسول الله صلى الله عليه وآله باعتباره الرسول الخاتم، فجعل ذلك نعمة منه سبحانه وتعالى على هذا العبد الصالح، الذي أفنى كل وجوده في سبيل الإسلام، وفي سبيل الله، وفي سبيل تكامل مسيرة الإنسان، أو أن القضية تعويض إلهي عن الجهود التي بذلها في سبيل الله، والحق، والعدل، والإنسانية، كما قد يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1]، فيكون أجراً له على ذلك، واختصاصه صلى الله عليه وآله بهذا الأجر دون بقية الأنبياء عليهم السلام ـ الذين أكد القرآن على أنهم لا يبغون أجراً على رسالاتهم، إلا الإيمان بالله تعالى ـ لأنه صلى الله عليه وآله قد بذل جهداً لم يبذل مثله أحد من الأنبياء عليهم السلام، وقد تحمل من الآلام والمحن ما لم يتحمله أحد قبله ولا بعده، أو أن هناك شيئاً آخر غير موضوع التكريم والتشريف؟

يمكن أن نشير بهذا الصدد إلى عدة نقاط مع قطع النظر عن الروايات الواردة في هذا الموضوع، والنصوص الشريفة التي دلت على إمامتهم[2]:

---

(١) الشورى:٢٣.

(٢) هذا بحث كلامي عقائدي، له أساليبه وأدلته وبراهينه الخاصة به، سنتناوله في محله، وإنما نريد في هذا البحث تفسير ظاهرة تعيين الإمامة وتشخيصها في خصوص أهل البيت عليهم السلام تفسيراً ينسجم مع الأطر العامة التي جاء بها الإسلام، وأكدها القرآن الكريم، وترتبط أيضاً بمسيرة الإنسان وتكامله. منه قدس سره.

النقطة الأولى: التكريم والتشريف

نلاحظ من خلال القرآن الكريم، ومسيرة التأريخ الرسالي لكل الرسالات الإلهية، أن الله تعالى شاء بلطفه وكرمه وفضله على أنبيائه أن يجعل من ذرياتهم أئمة وهداة يقومون بهذا الواجب الإلهي تكريماً لهم، ونعمة منه تعالى عليهم، وفي الوقت نفسه كان هذا التكريم رغبة وأمنية من أمنيات الأنبياء أنفسهم، تعبّر عن حالة فطرية في الإنسان الكامل، وهي الاتجاه والرغبة إلى البقاء والاستمرار من خلال ذريته، وقد أكد هذه الحقيقة الفطرية القرآن الكريم[1]، والسنّة النبوية الشريفة في عدة مواضع.

إذن، فهذه القضية ترتبط بكلا الجانبين: **الجانب الإلهي**، الخالق، المنعم، الكريم، الجواد، المتفضل على أنبيائه، المجيب لدعائهم وندائهم، **وبالجانب الإنساني**، العبودي، المتمثل بهؤلاء الأنبياء، الذين أخلصوا لله تعالى في العبودية، فإن من جملة إخلاصهم وإحساسهم بالعلاقة الأكيدة مع الله تعالى أنهم كانوا يتمنون على الله، ويرجون منه، ويدعونه في أن يجعل من ذرياتهم أئمة وهداة، يضمن لهم البقاء والاستمرار في عبوديتهم له تعالى، ودورهم ومهمتهم في الحياة الإنسانية.

فإبراهيم عليه السلام ـ أبو الأنبياء ـ عندما خاطبه الله تعالى وابتلاه بكلمات من عنده، وجعله إماماً للناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[2]، كان أول شيء يطرحه على الله تعالى ويرجوه منه، هو أن تكون هذه الإمامة في ذريته ـ أيضاً ـ: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[3].

وهذا ما رجاه أيضاً إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما يقيمان دعائم البيت:

---

(١) كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي...﴾ البقرة:١٢٤.

(٢) البقرة:١٢٤.

(٣) البقرة:١٢٤.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[1].

ثم لا يكتفيان بأن تكون هذه الذرية مسلمة مهتدية مقبولة، بل تترقى الدعوة، بأن يطلبا: أن تكون هذه الذرية تتحمل مسؤولية النبوة والرسالة ـ أيضاً ـ: ﴿ وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2]؛ ولذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفتخر ويقول: «أنا دعوة أبي إبراهيم»[3]، بمعنى انه يرى نفسه في تحمله لهذه الرسالة كان استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام عندما كان يرفع القواعد في البيت.

النقطة الثانية: الإمامة في الذرية سُنّة

نلاحظ في دراستنا لتأريخ الأنبياء والمرسلين، أن هذا التكريم قد تحوّل إلى سنّة من السنن الواضحة في التأريخ الرسالي، وذلك عند الرجوع إلى القرآن الكريم ومفاهيمه وآياته وتصوره لحركة الرسالات الإلهية والأنبياء، كقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[4]، ففي هذه الآيات الكريمة إشارة إلى أمرين يدلان على هذه السّنة التأريخية:

---

(١) البقرة:١٢٧ـ ١٢٨.

(٢) البقرة:١٢٩.

(٣) أمالي الطوسي: ٣٧٨ ـ ٣٧٩. كنز العمال١٢: ٤٢٣.

(٤) الأنعام:٨٣ ـ ٨٧.

أحدهما: الانتقال بالإشارة إلى نوح عليه السلام: ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ ليربط هذه السّنة التأريخية بما قبل إبراهيم عليه السلام.

ثانيهما: تعميم النعمة على الآباء والذريات والإخوان، مما يفهم منه القانون العام: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾.

وهكذا ما ورد في سورة مريم، عندما تحدث القرآن الكريم عن مجموعة من الأنبياء، ثم يختم الحديث بالقانون العام بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾[1].

والشيء نفسه يذكره القرآن الكريم في سورة الحديد ـ ولكن على نحو الإشارة ـ عندما يتحدث عن نوح وإبراهيم عليهما السلام، حيث جعل في ذريتهما النبوة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[2]، وموارد أخرى لا يسع المجال لتفصيلها.

إذن، فهذا الأمر من السنن التي كانت تحكم مسيرة الرسالات الإلهية، ولا غرابة إن رأينا هذه السنّة تجري أيضاً في الرسالة الخاتمة، بل هي امتداد لسنّة إلهية شاء الله تعالى أن يجعلها حاكمة على مسيرة الأنبياء والمرسلين منذ بداية الرسالات الإلهية وإلى نهايتها.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الإمامة بدأت من نوح عليه السلام ـ كما يذهب إلى ذلك العلامة الطباطبائي[3] وشهيدنا الصدر[4] ـ فقد نرى أن التأكيد في القرآن

(١) مريم: ٥٨.
(٢) الحديد: ٢٦.
(٣) الميزان في تفسير القرآن١٣: ٣٧.
(٤) المدرسة القرآنية: ١٤٧.

الكريم على نوح وإبراهيم عليهما السلام، وجعل النبوة في ذريتهما، إنما هو إشارة إلى قضية الإمامة واستمرارها في ذرية هذين النبيّين، ولاسيما أن النبي صلى الله عليه وآله هو من ذرية إبراهيم عليه السلام؛ حيث ينتمي إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وانه صلى الله عليه وآله دعوة إبراهيم عليه السلام، وبذلك تصبح القضية مرتبطة تماماً بهذه السلسلة المباركة للأنبياء، وتجسيداً لهذه السنّة التي كتبها الله تعالى في الرسالات الإلهية، وهي سنّة التكريم والتشريف لهم، والنعمة الإلهية عليهم.

النقطة الثالثة: حكمة الإمامة في الذرية

إن قضية التشخيص في أهل البيت عليهم السلام، ليست مجرد عملية تكريم وتشريف وفضل ونعمة أنعم الله تعالى بها على نبيه صلى الله عليه وآله، بل إن وراء ذلك أموراً أخرى، يمكن ملاحظتها عند دراسة هذه الظاهرة، وهي أمور ذات أبعاد: غيبية، وتأريخية، ورسالية، وإنسانية.

وهذه الأبعاد التي يمكن ملاحظتها من خلال دراسة القرآن الكريم، ومراجعة ومطالعة الرسالة الإسلامية، قد تفسر النقطتين السابقتين؛ ببيان الحكمة في هذا التكريم الإلهي، والاتجاه الفطري في الإنسان الذي تحوّل إلى سُنّة في مسيرة الأنبياء، والله سبحانه وتعالى هو العالم، والأبعاد هي:

أولاً: البعد الغيبي

خلق الله تعالى الإنسان بصورة وحقيقة ميّزه فيها عن بقية المخلوقات، وجاء التعبير عن ذلك بالنفخ فيه من روح الله، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[1]، فالإنسان ليس موجوداً متمحضاً في الجانب المادي فقط، وإنما فيه عنصر غيبي، وهو امتياز له

(١) السجدة:٩.

شاء الله تعالى أن يتعامل مع الإنسان من خلاله، بمعنى أن هناك الكثير من الأسرار في حركة الإنسان، وحركة التأريخ الإنساني ترتبط بالغيب، ولم يشأ الله تعالى أن يكشفها للإنسان في هذا العالم، ولكن قد يكون لهذه الأسرار أثر في تكامل حركة الإنسان في حياته الدنيوية، التي لها ارتباط أيضاًبالغيب في هذا العالم المشهود، وتكامله في حياته الأخروية؛ لأن الحياة المادية الدنيوية حياة محدودة، والحياة الحقيقية ـ كما يعبّر القرآن الكريم ـ إنما هي الحياة الآخرة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(1)، وهي الحياة الممتدة الطويلة الأبدية الخالدة، وهذه الحياة في الحقيقة هي حياة غيبية.

فهناك الكثير من الأسرار ذات العلاقة والتأثير بحركة الإنسان في الدنيا، ولها تأثير أيضاًفي حياته الآخرة.

وهذا الأمر لابد من التأكيد عليه دائماً في تفسير الكثير من الظواهر الإنسانية، فالظواهر الإنسانية لا يمكن تفسيرها دائماً تفسيراً مادياً فقط؛ لوجود الجانب الغيبي، ومن ثم فلابد من افتراض وجود جانب من التفسير يرتبط بهذا الغيب.

وهذا الأمر ليس مجرد فرضية واحتمال عقلي، وإنما يمكن أن نجد له شواهد من القرآن الكريم، الذي أشار إلى الجانب الغيبي في الإنسان وحركته التكاملية، ومن ثم يمكن الافتراض في أهل البيت عليهم السلام ـ كما ورد في النصوص والروايات ـ وجود أسرار غيبية ترتبط بجعل الإمامة بهم عليهم السلام لها تأثير في حركة الإنسان وتكاملها.

أما الشواهد القرآنية التي تتحدث عن ارتباط الحركة التكاملية للإنسان بالغيب، فهو ما نلاحظه في مجموعة من المؤشرات:

المؤشر الأول: ما تقدم من أن الله تعالى خصّ الإنسان من دون جميع الكائنات أنه نفخ فيه من روحه.

---

(١) العنكبوت: ٦٤.

وعلى هذا فالإنسان موجود ومخلوق يختلف عن بقية الكائنات، التي لم توصف بمثل هذا الوصف، وترتبط بالله تعالى في جانب الخلقة.

المؤشر الثاني: ما يشير إليه القرآن الكريم في مجال خلق الإنسان، من أن الله تعالى عندما خلق الإنسان أخذ عليه عهوداً ومواثيق في عالم الغيب، كما يبدو ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[1]، وهذا يعني: أن الله تعالى انتزع من ظهور هؤلاء الناس ذريات، ثم بعد ذلك أشهدهم على حقيقة من الحقائق الرئيسية في الكون والحياة، وهي الربوبية، وهذه الشهادة لا ندركها الآن كأفراد نعيش الحالة المادية، ولا نتذكر هذا الجانب من الشهادة والعهد والميثاق الذي أخذه الله سبحانه وتعالى على بني آدم في ذرياتهم، فهو أمر غيبي في خلق الإنسان.

نعم، قد ندرك بفطرتنا وبوجداننا هذه الحقيقة المعبرة عن هذا الجانب الغيبي، والاعتراف بالحقيقة الإلهية، عندما تكون الفطرة سليمة، ولكن هذا المشهد الذي يشير إليه القرآن الكريم في الآية الكريمة المتقدمة لا نحس به في حالتنا المادية وإن كنا ندرك الحقيقة في وجداننا وفطرتنا، من خلال إيماننا بالله تعالى والاعتراف بالربوبية له تعالى.

المؤشر الثالث: ما يمكن أن يستنبط من حديث القرآن الكريم الواسع والكثير، الذي يمتد في عدد كبير من الآيات والمناسبات حول الاصطفاء والاجتباء في حركة التأريخ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2]، فالآية صريحة في حديثها عن ظاهرة الاصطفاء كقضية من القضايا الإلهية الغيبية، التي لا

---

(١) الأعراف:١٧٢.

(٢) آل عمران:٣٣ ـ ٣٤، وهناك آيات عديدة يمكن أن يجدها الباحث في مادة الاصطفاء والاجتباء وغيرها في المعجم المفهرس.

تخضع للتفسيرات المادية السارية في حركة التأريخ، فاصطفى آدم اصطفاءً خاصاً، واصطفى نوحاً، ثم اصطفى إبراهيم وآل إبراهيم، ثم اصطفى عمران وآل عمران، وكذلك أكد القرآن الكريم أن هذا الاصطفاء ليس أمراً واقفاً على هذه الأسماء والجماعات، وإنما هو قضية ذات امتداد في الذرية: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ بمعنى أنها حركة تأريخية تتحرك في التأريخ الإنساني، يمكن أن نسميها حركة الاصطفاء، وكذلك قد تكون حركة في الأسرة، أو في الجماعة والأمة.

إذن، فلماذا لا يمكن افتراض وجود هذه الحركة، وهذا العامل الغيبي في اصطفاء الله تعالى لآل محمد ﷺ، وهو ما يشير إليه أيضاًالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1]، ويتم تأكيد ذلك أيضاًفي آية المباهلة[2] وغيرها.

إذن، فيمكن أن يكون اصطفاء آل محمد ﷺ سرّاً من الأسرار الإلهية الغيبية ـ لها دلالات معروفة وآثار في حركة التأريخ، وتكامل الإنسان الدنيوي ـ التي لا نعرفها وفق فهمنا المادي المحدود لحركة التأريخ، ويكون لها أيضاً أبعاد في مستقبل حياة الإنسان الأخروية.

ثانياً: البعد التأريخي

لقد أشار الشهيد الصدر قدس سره إلى البعد التأريخي فيما كتبه حول خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، فذكر أننا نلاحظ في تأريخ الأنبياء والرسالات الإلهية أن الله تعالى قد اختار الأوصياء والقادة من أولئك الأقربين للأنبياء: «ويلاحظ في تأريخ العمل الرباني على الأرض أن الوصاية كانت تعطى غالباً لأشخاص يرتبطون بالرسول

(١) الأحزاب:٣٣.

(٢) قال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ آل عمران:٦١.

القائد ارتباطاً نسبياً أو لذريته»[١].

وهذه الظاهرة لم تتفق في أوصياء النبي محمد صلى الله عليه وآله فحسب، وإنما هي ظاهرة تأريخية اتفقت في أوصياء عدد كبير من الرسل، ويشير الشهيد الصدر قدس سره كشاهد على هذه الحقيقة إلى الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣].

وقد طبقت أيضاً على رسالة النبي صلى الله عليه وآله، باعتبار أن الرسالة الخاتمة وإن كانت رسالة كاملة، ويكمالها تتميز على الرسالات السابقة، ولكنها في الحقيقة امتداد لتلك الرسالات الإلهية، والنبي صلى الله عليه وآله جاء من أجل أن يصدّق تلك الرسالات، ثم يهيمن عليها، وقد ورد في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله ما يؤكد ذلك، وأن ما تشهده هذه الرسالة الخاتمة يتطابق تماماً مع ما شهدته الرسالات السابقة، حتى جاء التعبير في مقام التطبيق الكامل في قوله صلى الله عليه وآله: «لتركبن سنّة من كانت قبلكم حذو النعل بالنعل»[٤].

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٤٦.

(٢) الحديد:٢٦.

(٣) الأنعام:٨٣ ـ ٨٧.

(٤) تفسير القمي٢: ٤١٣. وجاء هذا الحديث في كتب الفريقين إما بلفظه أو بمضمونه، مثل: مجمع البيان٧: ٤٠٥. وكمال الدين وتمام النعمة: ٥٧٦. وصحيح البخاري٤: ١٤٤. وصحيح مسلم٨: ٥٧. وسنن بن ماجه٢: ١٣٢٢، ح٣٩٩٤.

فإذا كانت هذه الظاهرة تأريخية في الرسالات الإلهية ـ بأن تكون الوصاية في أقرباء النبي القائد ـ فلماذا تختلف الرسالة الإسلامية ـ خصوصاً بعد فرض ضرورة الإمامة واستمرارها ـ عن بقية الرسالات الإلهية؟!

وربما يعود تفسير هذه الظاهرة التأريخية ـ والله العالم ـ لأحد أمرين:

الأمر الأول: الجذر التأريخي ودوره

إن الوصي والإمام عندما يكون له جذر تأريخي، وارتباط نسبي بالرسالة، يكون إحساسه بالانتماء إليها وشعوره بالمسؤولية تجاهها متجذراً بدرجة عالية جداً، وذلك حينما يرى في نفسه فرعاً من شجرة طيبة أصيلة، تمتد جذورها الرسالية عبر القرون في التأريخ الرسالي والإنساني، وتمده بالعزم، والإرادة، والانتصارات والتقدم، والصبر، والصمود، والقدرة على تحمّل المحن، والآلام، والشدائد.

ويؤكد هذا التفسير عدة مؤشرات، يمكن أن نلاحظها في القرآن الكريم:

المؤشر الأول: تأكيد القرآن الكريم على الجذر التأريخي للرسالة الإسلامية، مع أنها أفضل الرسالات الإلهية، وهي الرسالة المهيمنة عليها، والرسالة الخاتمة، ورسولها أفضل الأنبياء على الإطلاق، ومع ذلك كله كان القرآن الكريم يؤكد على هذا الجذر التأريخي، والانتماء للأنبياء السابقين، ولاسيما إبراهيم عليه السلام الذي ينسب القرآن الكريم الإسلام إليه في مواضع عديدة، كقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[1].

---

(١) البقرة:١٣٢ ـ ١٣٣.

بل إن إبراهيم عليه السلام هو الذي سمى الأمة الخاتمة، بهذا الاسم منذ البداية، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[١].

المؤشر الثاني: ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[٢]، فقد تقدم أن وجود رسول الله كان بدعوة من إبراهيم عليه السلام وقد كان صلى الله عليه وآله يفتخر بذلك.

المؤشر الثالث: ذِكر القرآن الكريم لقصص الأنبياء، وتأكيده أن أحد الأهداف لذلك هو تثبيت النبي صلى الله عليه وآله، وطلب الصبر والثبات منه تأسياً بالأنبياء السابقين، كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٣].

الأمر الثاني: التدرج في التاريخ

إن سنّة الله تعالى في التأريخ هي تكامل الرسالات الإلهية تدريجياً، حيث تمر الدعوة عبر الرسالات المتعددة، التي يكمّل بعضها بعضاً، فكذلك الحال في تكامل الرسل والأنبياء، فإنها يمكن أن تكون ـ والله العالم ـ سنّة تمر في حالة من التكامل عبر الجذر التأريخي للحركة الوراثية للنبي، والاستمرار في الذرية وأهل البيت عليهم السلام.

وهذه السُّنة قائمة في كثير من مظاهر مخلوقاته عزَّ وجلّ، فالشجرة الطيبة القوية المثمرة هي الشجرة الضاربة الجذور في الأرض، بخلاف الشجرة الخبيثة.

---

(١) الحج:٧٨.
(٢) البقرة:١٢٩.
(٣) الاحقاف:٣٥.

وكذلك الكلمة الطيبة التي هي كالشجرة الطيبة، التي ضربها الله مثلاً لها، فإنها هي التي تكون لها أصول وجذور، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1]، وهذا بخلاف الكلمة الخبيثة، فهي كالشجرة الخبيثة، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[2].

ثالثاً: البعد الرسالي

تقدم أن عمر الرسول ـ عادة ـ يكون أقصر من عمر الرسالة وأعبائها ومهامها، وهذا ما حدث أيضاً في الرسالة الإسلامية، فقد كان عمر رسول الله صلى الله عليه وآله محدوداً بالنسبة إلى أعبائها ومهماتها، حيث توفي صلى الله عليه وآله بعد مضي ثلاث وعشرين سنة من البعثة الشريفة، وبالرغم من الجهود المضنية التي بذلها، والانجازات العظيمة التي حققها في هذه المدة القصيرة، لكن بقيت أعباء الرسالة الإسلامية العالمية قائمة وموجودة إلى حد كبير في مجال التفهيم والتوضيح، وفي مجال التطبيق والتنفيذ، حيث لم تتجاوز المساحة التي انتشر فيها الإسلام الجزيرة العربية، من حيث الحركة والقدرة والسيطرة، وإن كان قد خاطب رسول الله صلى الله عليه وآله برسالته الأقوام المجاورة للجزيرة، أو دخل بعض المعارك العسكرية معهم، بل كانت بعض الجيوب والمناطق في الجزيرة العربية نفسها غير مستكملة في تفاعلها مع الرسالة الإسلامية، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في الحديث عمن يطلق عليهم اسم (الأعراب)، وهم أولئك الناس الذين كانوا يعيشون في البوادي، ولم يتعلموا الإسلام، أو يتخلقوا بأخلاقه، أو المؤلفة قلوبهم وهم ضعفاء الإيمان والاعتقاد من العرب الجاهليين، الذين استسلموا للواقع السياسي والاجتماعي للهيمنة الإسلامية

(١) إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) إبراهيم: ٢٦.

والنصر الإلهي، فأعلنوا دخولهم في الإسلام، وإن لم يبلغ الإيمان قلوبهم، أو أولئك المنافقين الذين أظهروا الإسلام، وأضمروا الكفر والعصيان والتمرد، ويشير القرآن الكريم إلى هذه النماذج في كثير من الموارد، منها ما أشير إليه في سورة التوبة(١) والحجرات(٢) والمنافقون(٣).

وأفضل شاهد على هذه الحقيقة السياسية والاجتماعية هو ما شهده المسلمون من حركة الارتداد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله مباشرة في بعض مناطق الجزيرة العربية، أو مواقف بعض الأشخاص والجماعات السلبية من أهل بيته عليهم السلام.

وإذا كان الوضع الثقافي والسياسي في الجزيرة العربية بهذه الصورة، فكيف الحال في خارجها؟ ومع هذا الوضع لا يمكن أن نفترض أن مهمات الرسالة في إكمال عملية البلاغ العام قد انتهت بنهاية عمر الرسول صلى الله عليه وآله.

نعم، يمكن القول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أنهى مهمة التبيين، وإقامة الحجة، ومهمة التأسيس، وإقامة القواعد الاجتماعية، ومهمة إيجاد الجماعة الإنسانية، التي يمكنها أن تتحمل هذه الأعباء بصورة عامة.

وعندئذ، فلابد من وجود الإمامة؛ لتحمل هذه الأعباء الثقيلة بعده، ولكن تحمّل هذه الأعباء الثقيلة يحتاج إلى إعداد كامل، يتناسب مع طبيعة وحجم هذه الأعباء الضخمة، التي سوف يتحملها هؤلاء الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وآله.

ولذا يمكن القول: إن عملية الإعداد هذه ـ التي يراد إنجازها من أجل تحمّل

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ التوبة: ٦٠.

(٢) قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ الحجرات: ١٤.

(٣) قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ المنافقون: ١.

هذه الأعباء ـ إنما يمكن أن تتم في داخل البيت الرسالي، بصورة أفضل وأكمل من إنجازها خارجه.

وهذا ما أشار إليه الشهيد الصدر قدس سره في قوله: «فاختيار الوصي كان يتم عادة من بين الأفراد الذين انحدروا من صاحب الرسالة ولم يروا النور إلا في كنفه وفي إطار تربيته، وليس هذا من أجل القرابة بوصفها علاقة مادية تشكل أساساً للتوارث، بل من أجل القرابة بوصفها تشكل ـ عادة ـ الإطار السليم لتربية الوصي وإعداده للقيام بدوره الرباني.

وأما إذا لم تحقق القرابة هذا الإطار، فلا أثر لها في حساب السماء، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾»[1]، فالذرية ـ عادة ـ تكون قابلة ومهيأة للإعداد الرسالي، بصورة أفضل في حركة التأريخ الإنساني[2].

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٤٦.

(٢) صحيح، قد نشاهد ـ أحياناً ـ في داخل البيت الرسالي أشخاصاً يشذّون عن المسيرة، وعن الارتباط بالرسالة، كما يذكر القرآن الكريم بعض النماذج، كابن نوح عليه السلام، عندما يذكره القرآن الكريم نموذجاً لخروج ابن الرسول عن أهداف الرسالة ومسيرتها، ونموذج آخر يذكره القرآن الكريم، له بُعد آخر من الخروج، وهو أب إبراهيم عليه السلام ـ كما يعبّر عنه القرآن الكريم ـ الذي قد يكون هدف القرآن الكريم من التأكيد عليه هو تفسير موقف أبي لهب من النبي صلى الله عليه وآله باعتباره قريباً لرسول الله وعمه، ومع ذلك خرج على هذه الرسالة، وهو الشخص الوحيد الذي ذكره القرآن الكريم بالاسم من المشركين، أو أراد به بعض أقرباء الرسول صلى الله عليه وآله الذين كانوا بمستوى الأعمام في الحالة النسبية والارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله، ونموذج ثالث يذكره القرآن الكريم هو زوج نوح ولوط، كمثل لما يمكن أن تقفه الزوجة من صاحب الرسالة، فإنها وإن لم تكن من ذريته وبيته، ولكنها عادة ما تكون تحت تأثير عمله.

ولكن بصورة عامة وإجمالية، يفترض بأن عملية الإعداد عندما يراد إنجازها بصورة كاملة، تكون أسهل وأفضل وأكمل في دائرة البيت الرسالي من إنجازها في خارج دائرة البيت الرسالي. منه قدس سره.

الإعداد والواقع التاريخي

وهذه الفكرة إذا أردنا أن ننظر إليها من خلال الواقع التأريخي الذي عاشته الرسالة الإسلامية، نراها فكرة متطابقة تماماً معه، فالوصي ـ الإمام علي عليه السلام ـ قد احتضنه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو طفل صغير، حيث تذكر بعض النصوص أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد تكفله بالتربية قبل البعثة؛ للتخفيف من المسؤوليات الاقتصادية عن كاهل أبي طالب(١).

ويدأ الرسول صلى الله عليه وآله في هذه المرحلة بية الإمام علي عليه السلام، كما يجمع المسلمون ـ تقريباً ـ على أن علياً عليه السلام كان أول من أسلم(٢)، وأنه لم يعرف في حياته عبادة الأصنام، أو عبادة غير الله سبحانه وتعالى، ولذلك عندما يذكر اسمه جمهور المسلمين، يخصونه بدعاء (كرّم الله وجهه)، وهم بذلك يشيرون إلى هذه الخصوصية لعلي عليه السلام، وهذه الخصوصية إنما كانت له عليه السلام بحسب النظر إلى الظروف التأريخية ومن هذه الزاوية بسبب إعداد الرسول صلى الله عليه وآله له عليه السلام.

مضافاً إلى ذلك، ما تشير إليه النصوص التأريخية، وتؤكده روايات بعض الأشخاص ـ حتى ممن لا يميل إلى عليّ عليه السلام من الناحية الروحية والنفسية ـ من إعداد رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام علمياً ومعنوياً، فيما كان يسّاره في ليله ونهاره، بحيث كان يأخذ من النبي صلى الله عليه وآله العلم والأخلاق في كل مناسبة، بل في كل وقت حتى قال صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»(٣)، وقال عليّ عليه السلام: «علمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب»(٤).

---

(١) عمدة الطالب: ٥٩.

(٢) أمالي الطوسي: ٢٧٤. فضائل الصحابة: ١٣.

(٣) بحار الأنوار٢٨: ١٩٩، باب٤، ح٦. شواهد التنزيل١: ١٠٤.

(٤) دلائل الإمامة: ٢٣٥. كنز العمال١٣: ١١٤، ح٣٦٣٧٢. وفي تفسير الرازي في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ آل عمران:٣٣ : «قال: علي عليه السلام : علمني رسول

إن هذه الحقيقة إذا لاحظناها من الناحية التأريخية والمادية، نرى أنها كانت قائمة من خلال قرب عليّ عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله، حيث تربى في حضن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو ابن عمه، وتزوج من ابنته، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يدخل إلى بيت عليّ عليه السلام كما يدخل إلى بيته، وعليّ عليه السلام يدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله كما يدخل إلى بيته.

الأمر الذي أثار ـ أحياناً ـ غيرة بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله أو حساسيتها، أو أي تعبير آخر يمكن أن نقوله أو نعبر عنه في هذا المقام بصورة مناسبة(١) بسبب هذه العلاقة التي كانت موجودة بدرجة عالية بينهما.

إذن، فمن الناحية الواقعية والخارجية نشاهد بأن التأريخ يؤكد على هذه الفكرة والنظرية، وأن لها واقعا خارجيا في الرسالة الإسلامية، من خلال إعداد عليّ عليه السلام، وقد تحدّث هو عليه السلام شخصياً فيما روي عنه ذلك، كما تحدث أئمة أهل البيت عليهم السلام أيضاً عن ذلك، وهو ما سنشير إليه في بعض الأبحاث الآتية.

الإعداد والاصطفاء الإلهي

ولكن يمكن افتراض أن الأئمة عليهم السلام بالامكان أن تتحقق لهم الإمامة دون هذا الإعداد؛ لقدرة الله تعالى على كل شيء، ولا يمنعه شيء من إلهام الأشخاص والأفراد ـ لحكمة ـ بكل المعلومات دون حاجة إلى الإعداد السابق، وهذا

الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم واستنبطت من كل باب ألف باب» ثم قال الرازي معلقاً على الرواية: «فإذا كان حال الولي هكذا فكيف حال النبي صلى الله عليه وآله» تفسير الرازي٨: ٢٣.

(١) لهذه البيوت الطاهرة خصوصيات، قد يعجز الإنسان عن اختيار الألفاظ المناسبة والمؤدبة تجاهها، عندما يريد الحديث عن بعض علاقاتها، ولكن على أي حال التأريخ يشهد في كثير من النصوص، بأن هذا الاقتراب من عليّ عليه السلام، وعناية رسول الله صلى الله عليه وآله بعليّ عليه السلام في جانب الإعداد والتعليم والتأهيل لتحمل هذه المسؤولية كان يثير في كثير من الأحيان الحسد أو الغيرة أو غير ذلك من الانفعالات لدى الأشخاص حتى الدائرة القريبة لرسول الله صلى الله عليه وآله. منه قدس سره.

الافتراض فيه الكثير من الواقعية، وقد وقع للكثير من الأفراد الذين عرفهم التأريخ[١]، ويمكن أن نفترض في الوقت نفسه أن النظام العام في الحركة الاجتماعية للإنسان يراد لها أن تسير في الكثير من الموارد حسب النظام العام، إلاّ بقدر الحاجة إلى الاستثناء، كما هو الحال في موارد المعجزة مثلاً، وهذا يعني أنه ما دام الإعداد ممكناً حسب النظام العام، فسوف يتم كذلك، ويكون الاستثناء عند الحاجة والضرورة، فيتم الإعداد من خلال النظام الغيبي.

إذن، فالطريق الطبيعي للإعداد الأفضل والتأهيل الأكمل إنما يكون في دائرة البيت القريب، ويمكن أن نرى هذا الشيء في معالم ومفردات وصور عديدة أخرى من التأريخ.

وهذه الظاهرة قد تجسدت ـ أيضا ـ في الأسر العلمية الشريفة في تأريخ جماعة أهل البيت عليهم السلام، فعند النظر إلى تأريخ ما بعد الغيبة الصغرى، بل حتى في تأريخ زمن أئمة أهل البيت عليهم السلام، نلاحظ أن ثمة ظاهرة كانت موجودة وقائمة في جماعة أهل البيت عليهم السلام، وهي ظاهرة وجود الأسر العلمية ـ مثلاً: أسرة زرارة بن أعين، التي كانت تعّرف بأن جميع رجالها ثقات، أو أسرة بني فضّال، أو أسرة الاشعريين الذين أقاموا أسس العلم في مدينة قم المقدسة، أمثال سعد الاشعري وأسرته، وهكذا أسرة بني بابويه الذين كان لهم دور عظيم جداً ـ وأن أبناء هذه الأُسر يمثلون عدداً كبيراً جداً من العلماء والفضلاء الذين كانوا يتحملون المسؤوليات، بحيث كانت تتوارث العلم جيلاً بعد آخر، حتى أوصلته إلى هذا العصر، فهذا التوارث إنما كان باعتبار خصوصية: هي أن عملية الإعداد، والتربية، والتأهيل في إطار البيت الواحد، تكون أسهل مما لو كانت في خارج البيت الواحد[٢].

---

(١) مثل: يحيى، وعيسى عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء، ومثل: الإمام الجواد، والإمام الهادي عليهما السلام وغيرهما من الأئمة.

(٢) في العصور المتأخرة كانت هناك أسر علمية أخرى، من قبيل: أسرة آل بحر العلوم،

رابعاً: البعد الاجتماعي

وهو ما يترتب على الاختصاص بأهل البيت عليهم السلام من مصالح اجتماعية في التأثير على حركة الأمة، وهدايتها، وارتباطها بالرسالة الإسلامية وصاحبها، حيث إن الإمامة التي تريد القيام بهذه المسؤوليات الكبيرة أو الضخمة في المجتمع الإنساني تحتاج إلى مؤهلات اجتماعية، كما تحتاج إلى المؤهلات الروحية والفكرية.

كما أن الناس في حركتهم الاجتماعية، والروحية، والنفسية يتأثرون بمثل هذا العامل الإنساني، وينظرون إلى الشرف والأصالة في الانتماء وتكامل الأسرة والعائلة والعشيرة والقبيلة نظرة معنوية وإنسانية واجتماعية خاصة.

أما بالنسبة إلى حاجة الإمامة إلى المؤهلات الاجتماعية، فهو من الأمور التي يشار لها في أبحاث علم الكلام، من قبيل أن لا يكون في النبي أو الإمام نقص في الأعضاء، مخلًا بوضعه الاجتماعي، أو أن لا يكون النبي أو الإمام وضيعاً في المجتمع الإنساني، أو من عائلة وضيعة وغير شريفة، أو ممتهنا لحرفة وضيعة، إلى غير ذلك من القضايا التي تذكر في علم الكلام عند الحديث عن مواصفات الأنبياء والأئمة.

وأما بالنسبة إلى تفاعل الناس وتأثرهم بهذا العامل الاجتماعي، فهو أمر مشهود في تأريخ الأمم والمجتمعات الإنسانية السابقة واللاحقة، يتفاضلون فيه، ويفتخرون ويتأثرون به؛ لأنه عامل إنساني واقعي في الحركة التأريخية، وله تأثير إيجابي في حركة الأمم وبناء المجتمع، وإن لم يكن من العوامل المؤثرة في تكامل

وأسرة آل كاشف الغطاء، وأسرة آل شيخ راضي، وآل الجواهري، وآل الصدر، وآل شبر، وهكذا أسرة الشيخ الأنصاري ـ من بناته ـ وقبلهم الشيخ المجلسي، والوحيد البهبهاني، وغيرهم الكثير. ولا ينبغي أن يذهب الظن إلى أن هذا الإعداد لا يمكن أن يتم إلاّ من خلال ذلك، بل قد نجد في التأريخ أشخاصاً متميزين في التقوى والعلم والشجاعة لم يعرفوا بأنهم من أبناء هذه الأسر، ولكن المقصود أن الأسرة تمثل عاملاً طبيعياً للإعداد. منه قدس سره.

الإنسان كفرد عند الله تعالى، أو مما يدخل في حسابه يوم القيامة، كما تشير إلى ذلك النصوص الدينية، ومنها قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[(١)]، ولكنه على أي حال من العوامل المؤثرة في حركة التأريخ الإنساني والعلاقات الإنسانية[(٢)].

خلفيات البعد الاجتماعي

ولعل مرجع هذا البُعد إلى عدة قضايا: نفسية، واجتماعية، وفطرية.

أما القضية النفسية، فهي تأثر الإنسان روحياً بمعالم العزّ، والشرف، والكرامة، والمنجزات العلمية، والاجتماعية.

وأما القضية الاجتماعية، فهي ما تقدم من أن التأهيل والإعداد في بيوت الشرف، والكرامة، والعز، والطهارة، يكون بصورة طبيعية لتحمل المسؤوليات، وأنها تبنت الشرف، والكرامة، والعز، والطهارة بموجب السنة والقاعدة القرآنية: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾[(٣)]، وهو أمر يدركه الناس من خلال رؤيتهم للتأريخ، وحركة النظام العام للمجتمع الإنساني، وإن كان قد يشذّ بعضهم عن هذه القاعدة؛ ولذا أكد الإسلام في عدة موارد على هذا الاتجاه: في الزواج، والمشورة، والمصاحبة، والصداقة، والمعاشرة[(٤)].

وأما القضية الفطرية، فهي ترتبط بنظرة الإنسان الفطرية التي أكدتها الشريعة الإسلامية، في أن تكامل المجتمع الإنساني بصورة عامة يقوم على تكامل الأسرة والقبيلة.

---

(١) المؤمنون:١٠١.

(٢) تذكر بعض النصوص استثناءً في التأثير لنسب رسول الله ﷺ في يوم القيامة، وهو أمر يحتاج إلى بحث علمي واجتماعي لهذه النصوص، لا مجال له هنا. منه ﷺ.

(٣) الأعراف:٥٨.

(٤) الكافي ٢: ٦٣٩.

وهذا بحث اجتماعي مهم له مجال آخر، ولكن بنظرة إجمالية يمكن القول: إن الإسلام يرى أهمية تكامل الأسرة وارتباطها وامتدادها التأريخي في القبيلة والعشيرة، وإن ذلك هو الطريق الأفضل لتكامل المجتمع الإنساني بصورة عامة إذا أردنا تنظيمه بصورة صحيحة، ومحكمة، وقوية.

ويعتمد هذا التنظيم القوي على عنصرين رئيسين:

الأول: إحكام علاقات الأسرة، كما حثَّ الإسلام على ذلك من خلال الزواج، والعلاقات الزوجية القائمة على أساس الحقوق المتبادلة، وتهيئة ظروف الاستقرار، والسكن، والمودة، والرحمة، ومن خلال الارتباط بين العشائر والقبائل والأسر المختلفة؛ ولذا كان الزواج من خارج دائرة الأقربين من الاتجاهات في تكوين الأسرة؛ لإيجاد حالة التكامل الاجتماعي العام بين المفردات الرئيسية في المجتمع، وهي القبائل والأسر[1]، لأن إيجاد الروابط بين القبائل والأُسر يكسر الحواجز النفسية والاجتماعية الموجودة بينها، والتي قد تكون عائقاً لتكامل المجتمع وحركته عندما تصبح كبيرة وعالية، وتمنع من وحدة المجتمع، وتخلق العصبية العشائرية أو الاجتماعية، وبذلك تظهر أهمية الأسرة والعشيرة كأحد الأعمدة الأساسية والرئيسية في البناء القوي للمجتمع في نظرية الإسلام.

الثاني: بناء العشيرة والقبيلة نفسها، حيث يمكن أن يقال: بأن هناك اتجاهاً في الإسلام نحو تثبيت دعائم العلاقات الأسرية والقبلية والعشائرية لا إلى تفكيكها وإضعافها، من خلال ما ورد من التأكيد على صلة الأرحام[2]، بدرجة تصل ـ أحياناً ـ

---

(١) وقد يكون في ذلك أيضاً تكامل جسمي (فسيولوجي)، كما يذكره الأطباء، ولا يخلو كذلك من تكامل اجتماعي من الناحية الاجتماعية. منه ﷺ.

(٢) فقد ورد في ذلك نصوص شرعية كثيرة، منها قرآني، كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد:٢٢ـ ٢٣]، ومنها روائي، كما روي عن أبي جعفر ﷺ انه قال: «قال رسول الله ﷺ: أوصي الشاهد من أمتي والغائب منهم ومن في أصلاب الرجال

إلى مرحلة الإلزام في الوجوب والحرمة، حسب اختلاف هذه الصلة ودرجتها، فان قطيعة الرحم حرام، وإيجاد أصل الصلة واجب من الواجبات الشرعية.

وكذلك ـ من خلال ما يشير إليه القرآن الكريم ـ في قضية التوارث، حيث وضع التوارث في المال ضمن إطار علاقات الأرحام، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾[1]، حتى وصل بها الإسلام إلى العلاقات البعيدة نسبياً، من قبيل علاقة الولاء، وذلك عندما يدخل الإنسان في ولاء أسرة من الأسر، وتنقطع سلسلة الأقرباء من المواريث ويتحول الميراث إلى الأولياء، أي: إلى أولئك الذين دخلوا العشيرة عن طريق علاقة الولاء، وهذا يعبّر عن اتجاه في تحكيم هذه الأواصر وربط بعضها ببعض.

ونلاحظ أيضاًأنّ من التشريعات الموجودة في النظرية الإسلامية التي تؤكد هذا الاتجاه، قضية وقف الذرية، حيث إن الوقف على أقسام، أحدها: الوقف الذي يوضع لخصوص الذرية، أي: يتسلسل في الورثة، ويتحول في طبقات الإرث، حسب شرط الواقف، أو يشركهم فيه بكل طبقاتهم ومراتبهم، فان هذا الحكم يؤشر على أن الإسلام يتجه إلى تحكيم أواصر العشيرة، والأسرة الواحدة.

الإسلام والعلاقات العشائرية

لقد طرح القرآن الكريم مفاهيم واسعة في تفسير المفردات الاجتماعية وطبيعة علاقاتها من تقسيم الإنسان إلى شعوب وقبائل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ

وأرحام النساء إلى يوم القيامة أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة، فإن ذلك من الدين» ، وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «صلة الأرحام تحسن الخلق وتسمح الكف وتطيب النفس وتزيد في الرزق وتنسئ في الأجل» الكافي٢: ١٥١، ح٥ و٦.

(١) الأنفال:٧٥.

خَبِيرٌ ﴾[1]، فانّ الناس وإن خلقوا من ذكر وأنثى، ولكنهم قد قسموا إلى شعوب وقبائل؛ لتقوم علاقات التعارف والتعاون بينهم، فهو تقسيم معترف به إسلامياً.

وهكذا عندما يتحدث القرآن الكريم عن موضوع الولاء، حيث يشير أيضاًإلى أن الولاء في داخل العشيرة أمر طبيعي، مثل: ولاء الآباء والأبناء والإخوان، فهو ولاء مقبول، ولكنه يجب أن يكون في إطار ولاء الله تعالى، ولا يصح أن يخرج عنه، أو يكون في قباله، وأعطى القرآن الكريم عناوين عديدة لذلك في آيات عديدة؛ للتأكيد على هذا النوع من الولاء، كقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾[2]، وكذلك التأكيد عليه في مجال الإنفاق على ذوي القربى كمورد من موارد الإنفاق[3].

وفي الجملة، نلاحظ في الكثير من معالم الشريعة الإسلامية وجود هذا الاتجاه في تحكيم أواصر العشيرة والأسرة والقبيلة، لا على تفكيكها وإضعافها.

وهذا التحكيم ـ كما تقدم ـ إنما يكون صحيحاً في إطار الشيء الأعظم والاهم من العلاقة، وهو حب الله سبحانه وتعالى، والولاء له والارتباط به، كما أكد عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[4].

وبهذا نرى أن الإسلام عندما أراد بناء المجتمع، وضع أحد الأسس التي تحكم هذا البناء الاجتماعي، وتجعله أكثر ترابطاً، هو إحكام هذه العلاقات الأسرية

---

(١) الحجرات:١٣.
(٢) الأنفال:٧٥.
(٣) قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ الإسراء:٢٦.
(٤) التوبة:٢٤.

بين الناس، وحاول في الوقت نفسه أن يعالج خطر تحوّل العشيرة إلى صنم يعبد من دون الله بأسلوبين:

أحدهما: التأكيد على أن يكون هذا الولاء ضمن إطار الولاء لله تعالى.

والآخر: كسر الحواجز الاجتماعية والنفسية، التي قد تنمو بين الشعوب والقبائل، من خلال الحث على التعارف بينها، والزواج، والاتصال، والمساواة في القيمة الإنسانية.

وهذا الأمر في الواقع يمكن أن يذكر كأحد العناصر المهمة في تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية، ولذلك نرى المجتمع ينظر إلى ابن الأسرة الذي يكون قريباً من صاحب البيت نظرة تختلف عن نظرته إلى الأجنبي عن ذلك البيت، وهذه الحقيقة من الحقائق القائمة اجتماعياً.

ولذا نعتبر انتساب الزهراء عليها السلام الأسري من رسول الله صلى الله عليه وآله[(١)] وقربها منه أحد العوامل التي تكمل نظرتنا وتشكل بمجموعها الصورة الصحيحة لشخصية الزهراء عليها السلام.

إذن، فهذا الانتماء يعطي الوصي والخليفة والإمام موقعاً اجتماعياً متميزاً في الحركة الاجتماعية، ولعل ذلك أحد العوامل والأسباب في هذا الامتداد.

---

(١) إن الزهراء عليها السلام عندما أرادت أن تستثير المسلمين تجاه مظلوميتها، تحدثت في البداية عن حقوقها المغتصبة، في الخطبة المعروفة التي يتحدث عنها خطباء المنبر، ولكن في حركة أخرى دخلت الزهراء عليها السلام إلى المسلمين من مدخل أنها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويجب أن تحمى باعتبار هذه القرابة وهذه الصلة، وعندما تحدثت مع الأنصار الذين كانوا قد دخلوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في ميثاق وعهد بأن يحموه صلى الله عليه وآله وأهله، وقد تخلفوا عن هذه الحماية بعد وفاته، تحدثت معهم من هذا المدخل وخاطبتهم بصورة خاصة (إيهاً بني قيله) ، وهذا المنطلق يعبّر عن حقيقة كانت قائمة في الحالة الاجتماعية حينذاك. منه قدس سره.

الفصل الثالث

اختصاص الإمامة

بالأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام

يعتقد أتباع أهل البيت عليهم السلام بضرورة استمرار النبوة في الإمامة، كما يتبنون ضرورة استمرار هذه الإمامة في خصوص أهل البيت عليهم السلام، وهذا ما تقدم الحديث والبحث عنه بشكل مفصل في الفصلين المتقدمين. كما يتبنون في الوقت نفسه أن تكون الإمامة في اثني عشر إماماً فقط، دون أن يكون باب الإمامة مفتوحاً في أهل البيت بصورة عامة، كما يذهب إلى ذلك بعض فرق الشيعة، كالإسماعيلية والزيدية، ومن هنا تكون الحاجة ماسة إلى بيان تفسير هذه الظاهرة التي يتبناها خصوص الإمامة الاثني عشرية.

وفي هذا الموضوع يوجد جانبان من البحث:

الجانب الأول: أدلّة العدد المحدود

يرتبط هذا الجانب بعلم الكلام، وهو جانب مهم جداً، حيث يذكر في هذا المجال مجموعة من الأدلة والقرائن[1] تؤكد حقيقة العدد المحدود، أشير إلى بعض عناوينها:

أولاً: هناك نصوص عديدة يُجمع عليها المسلمون وردت عن النبي صلى الله عليه وآله، تؤكد أن الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هم أثنا عشر خليفة[2]، وهذه النصوص يمكن

(١) سيتناولها شهيد المحراب قدس سره في القسم الثاني من البحث.

(٢) الخصال: ٤٧٢. الغيبة للطوسي: ١٢٨ـ ١٣٠. صحيح مسلم٦: ٣ـ٤. سنن الترمذي٣: ٣٤٠، ح٢٣٢٣. صحيح البخاري٨: ١٢٧ مع اختلاف في لفظ (الخليفة) حيث بعض النصوص عبّر بـ(الأمير).

أن يستدل بها على ثبوت هذه الحقيقة.

ثانياً: هناك نصوص أخرى وردت عن أهل البيت عليهم السلام تؤكد أيضاًحقيقة العدد المحدود[(١)].

وعليٌ، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام لا يشك أحد من المسلمين في صدقهم، وعلمهم، ومعرفتهم، فعندما ترد النصوص عنهم عليهم السلام نجدها موضع احترام وتصديق مطلق من قبل المسلمين، فيكون هذا الاحترام المطلق والتصديق قرينة ودليلاً وبرهاناً على صحتها.

ثالثاً: إن شخصية أئمة أهل البيت عليهم السلام تتميز بمواصفات وخصائص لا نعرف لها نظيراً في التأريخ الإسلامي، ولا يشبههم فيها أحد، والحديث في هذا الموضوع له مجاله الخاص، فهذه الشخصيات بهذه الخصائص والمواصفات تؤكد الحقيقة التي نحن بصددها.

رابعاً: إن دراسة الجماعة الصالحة ـ التي إلتزمت بهذه العقيدة وآمنت بها ـ في خصائصها، ومواصفاتها، وطبيعة حركتها، ونموها، وتطورها المستمر في خطها البياني يؤكد أيضاًهذه الحقيقة. وهذا بحث يحتاج إلى شرح وتوضيح يأتي في محله إن شاء الله تعالى.

الجانب الثاني: تفسير العدد المحدود

إن قضية العدد المحدود ظاهرة كبقية الظواهر الكونية والاجتماعية بحاجة إلى تفسير مع قطع النظر عن الأدلة المتقدمة؛ لمعرفة السرّ في أن توضع الإمامة محصورة بعدد معيّن، ويكون هذا العدد اثني عشر، مع أن الرسالة الإسلامية رسالة خاتمة، والأمة الإسلامية أمة باقية حتى تقوم الساعة.

في تفسير هذه الظاهرة يمكن الإشارة إلى أمرين رئيسيين:

---

(١) الكافي ١: ٥٣٠ ـ ٥٣٤، ح٦ ـ ١٨.

الأمر الأول: التفسير الغيبي للظاهرة

إن الرسالة الإسلامية وكل الرسالات الإلهية هي ظواهر غيبية مرتبطة بعالم الغيب، وحياة الإنسان ـ الذي أرسلت إليه هذه الرسالات ـ أيضاً فيها جانب غيبي؛ لأن الله تعالى وإن كان قد خلق الإنسان من طين لازب(١)، ومن ثَمَّ احتوى على العنصر المادي: من لحم، وعظم، ودم، وغير ذلك مما يتمثل فيه الجانب المادي، ولكنه تعالى خصَّه بخصوصية دون غيره من المخلوقات المنظورة، وهو أن نفخ فيه من روحه، وهذه الخصوصية لا نراها في أي موجود آخر يتحدث عنه القرآن الكريم، وقد تكون موجودة في مخلوقات عالم الغيب التي لا نعرفها، وهي خارج النظام الكوني المشهود.

كما أن حياة الإنسان ليست مختصة بالحياة المادية ـ وهي الحياة الدنيا ـ وإنما حياته الحقيقية الدائمة الأبدية هي الحياة الآخرة، وهي حياة غيبية.

ثم إنَّ الحياة الدنيوية فيها جانب غيبي من حيث مستقبل زمانها وتأريخها، وهو ما تشير إليه بعض الآيات والروايات العديدة عن أهل البيت ﷺ، كالرجعة التي قد تمثل دورة ومرحلة جديدة للحياة الإنسانية، تعبّر عن الكمال فيها(٢).

إذن، فالرسالة رسالة غيبية، والإنسان فيه جانب غيبي، وحياته أيضاً فيها جانب أعظم وأهم، وهو الجانب الغيبي، فعنصر الغيب لابد أن ننظر إليه دائماً عند تفسير الظواهر ذات العلاقة بالإنسان وحركته، ولا يمكن الاقتصار على التفسيرات المادية المحضة، أو المدركة والمشهودة وحدها؛ لاحتمال أن يكون وراء

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ الصافات: ١١.

(٢) الرجعة: فكرة، ورد تأكيدها في روايات أهل البيت ﷺ إلى حد التواتر أو التظافر، وأشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، ويوجد فيها تفاصيل لا تبلغ حد القطع واليقين، ولا مجال لبحثها في هذا العرض، ولعلنا نوفق لذلك في وقت آخر، نتناول فيه عدد من قضاياها والأفكار عنها. منه ﷺ.

الكثير من الظواهر القائمة في حياة الإنسان أسباب وعناصر غيبية، لا يمكنه معرفة كل أبعادها وخصوصياتها.

وفي هذه الظاهرة ـ محل البحث ـ يمكن افتراض وجود العنصر الغيبي أيضاً لأن الله سبحانه وتعالى يصطفي من عباده من يشاء، وله في أوليائه أحكام خاصة، ذات علاقة بهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدة آيات[1].

كما أنَّ هذا الأمر ليس غريباً في تأريخ الرسالات الإلهية، فمثلاً أنبياء أُولي العزم كانوا خمسة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[2]، فقد يقال: لماذا لم يكونوا ستة أو سبعة أو عشرة، أي: لماذا اختصت هذه الدرجة العالية من النبوة بهذا العدد المعيّن من الأنبياء؟ فقد لا نعرف لها تفسيراً محدداً، إلا التفسير الغيبي في رؤية حركة التأريخ الرسالي.

وهكذا نلاحظ ذلك في الكثير من الظواهر التي نراها في الإسلام، من قبيل اختصاص العبادة بهذه العبادات الخاصة، واختصاص الصلوات اليومية الواجبة بالصلوات الخمسة، واختصاص هذه الصلوات الخمسة بالركعات السبعة عشر، إلى غير ذلك مما نراه من اختصاصات في الأعداد الذي يمكن أن يكون له تأثير في حياة الإنسان الدنيوية والأخروية، ولكنه تأثير في الغيب غير المنظور والمعروف لنا بصورة كاملة، مضافاً إلى أن ظاهرة وجود الأعداد المعّينة الخاصة في الاصطفاء ليست مختصة بالرسالة الإسلامية، وفي خصوص هذه الأمة، حتى يقال: إنها ظاهرة غريبة، وإنما توجد ظواهر أخرى مماثلة لها في الأمم السابقة، منها ظاهرة النقباء الاثني عشر في بني إسرائيل، الذين يشير لهم القرآن الكريم في عدة مواضع:

---

(١) كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران:١٧٩.

(٢) الأحزاب:٧.

منها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[١].

وهذه الظاهرة قد تصلح أن تكون مثالاً لما يجري في الأمة الإسلامية الخاتمة، حيث ورد عن رسول الله ﷺ، أن الأحداث في الأمة الإسلامية تطابق ما جرى في الأمم السابقة: «حذو النعل بالنعل»[٢] أو تعبير: «القذة بالقذة»[٣]، كما جاء في بعض آخر منها، وهي نصوص متواترة، يرويها بهذا المضمون جميع المسلمين.

وقد تكون ظاهرة الاثني عشر إماما متطابقة مع تلك الظاهرة، التي شهدتها أمة بني إسرائيل، التي هي أيضاًمن الأمم المصطفاة والمنتخبة والتي فضّلها الله سبحانه وتعالى في بعض أدوار التأريخ، وجعل منهم أنبياءً وملوكاً، وخصهم أيضاًبظاهرة الاثني عشرية ـ إذا صح التعبير ـ وهي نكتة أخرى، يمكن أن تؤكد الجانب الغيبي، أو تضيف إليه بعداً آخر.

ويؤكد هذه الظاهرة في بعدها الغيبي ـ أيضاً ـ ما ورد في شأن انتخاب رسول الله ﷺ للنقباء الاثني عشر من الأنصار، في بيعة العقبة، من قوله ﷺ على ما رواه ابن إسحاق وابن سعد: «أخرجوا إليّ اثني عشر منكم، يكونوا كُفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون بعيسى بن مريم، ولا يجدن أحدكم في نفسه أن يؤخذ غيره فإنما يختار لي جبريل»[٤].

---

(١) المائدة:١٢.

(٢) علل الشرائع ١: ٢٠٩، ح١٢. كنز العمال ١١: ١١٥، ح٣٠٨٣٧.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١: ٢٠٣، ح٦٠٩. المعجم الكبير ١٠: ٣٩، ح٩٨٨٢.

(٤) كنز العمال ١: ١٠٣، ح٤٦٥. الطبقات الكبرى ١: ٢٢٢ـ ٢٢٣.

وبذلك يشير هذا الحديث إلى خصوصيتين:

أولاهما: ذات علاقة بالعدد المذكور من تأريخ الأنبياء، وهو عدد الحواريين الاثني عشر، الذي يؤكد هذه الظاهرة، وقد ورد تأكيد هذا العدد فيهم في روايات أخرى.

ثانيهما: إن هذا الاختيار هو اختيار غيبي، يرتبط بقرار إلهي، يبلغه جبرائيل عليه السلام.

إذن، فالجانب الغيبي يمكن أن يكون تفسيراً لهذه الظاهرة.

الأمر الثاني: التفسير التأريخي للظاهرة

ما نريد ذكره بصدد تفسير هذه الظاهرة، هو أمر له بُعد مادي في فهم حركة التأريخ وتفسيرها، وذلك بافتراض أنّ المدة الاعتيادية للأئمة الاثني عشر، الذين تحدث عنهم رسول الله ﷺ هي بين (٣٥٠ ـ ٤٠٠) سنة، إذا كانت أعمارهم عليهم السلام اعتيادية بالنسبة إلى المدة والظروف التي كان يعيشها الناس آنذاك.

وبذلك يمكن القول: إن هذه المدة تمثل الدورة الزمنية، التي يمكن أن يتم فيها إعداد الأمة الخاتمة إعداداً كاملاً في جميع أبعادها، بحيث تصبح مؤهلة لاستلام الخلافة الإلهية كأمة وجماعة، وذلك عندما تصبح أمة متكاملة بدرجة يكون التكامل فيها صفة ثابتة، وحينئذٍ تنتقل إدارة الحياة الاجتماعية من الأشخاص المتجبين الأصفياء الذين كانوا ينتخبون كأنبياء وأئمة للقيام بدور الخلافة والحكم إلى الأمة أو الجماعة، أي: عندما تبلغ الأمة مرحلة دور الوحدة الإنسانية الكاملة في تطبيق الرسالة الإلهية، ودور تجسيد إرادة المستخلِف ـ الله ـ بعد ما كانت البشرية قد مرّت بأدوار الوحدة الفطرية، والعبادة، والاختلاف في الرسالة، عندئذ يبقى دور الإمامة فيها دور المحافظة على هذا التكامل، والشهادة، والرقابة على مسيرة الأمة، وإقامة الحجة على الناس، وكذلك المحافظة على العلاقة والرابطة بين السماء والأرض، في حفظ النظام والحياة، إلى غير ذلك من

الخصوصيات الأخرى[١]، التي أشارت إليها النصوص الشريفة[٢].

منهج البحث التأريخي للإعداد

إن موضوع الدورة الزمنية لإعداد الأمة، وإن كان يحتاج إلى بحث تأريخي واجتماعي واسع له مجال آخر، ولكن أشير هنا إلى بعض أبعاده وخطوطه النظرية والمنهجية، كمحاولة لتفسير هذه الظاهرة الرسالية:

البُعد الأول: نظرية الأدوار

يتناول هذا البُعد بحث نظرية الأدوار التي مرت بها البشرية في الوحدة والاختلاف من جهة العوامل المؤثرة فيها، ويبحث منهج الرسالات الإلهية في معالجة هذه الأدوار، وتوضيح الهدف الرئيس لها، وهو إقامة الوحدة البشرية على أساس الرسالة الإلهية ودعائم الحق والعدل المطلق.

وهذا الهدف هو ما أكدته الرسالات الإلهية، والقرآن الكريم، ويشر به جميع

---

(١) هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من البحث والتوضيح لخصوصياته وتفاصيله، قد نوفق لتناوله عند تناول موضوع (الرجعة)، حيث يتبين من خلال ذلك البحث تفسير عدة قضايا مهمة:

١ـ حقيقة الرجعة.

٢ ـ دور الإمام المهدي المنتظر ﷺ بعد إقامة الحق والعدل واستمرار حياته إلى آخر الزمان أو انقطاعها.

٣ ـ وجود خلفاء للإمام المهدي ﷺ على فرض انقطاع حياته.

٤ ـ دور الأنبياء والمرسلين والأئمة الذين يرجعون إلى الحياة، بناء على رجعتهم. منه ﷺ.

(٢) روي عن أبي جعفر ﷺ قال: «والله ما ترك الله أرضا منذ قبض آدم ﷺ إلا وفيها إمام يهتدي به إلى الله وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده».

وروي عن أبي الحسين الحسن ﷺ قال: «إن الأرض لا تخلو من حجة وأنا والله ذلك الحجة» الكافي ١: ١٧٩، ح ٨ و٩.

الأنبياء، ومنهم النبي محمد صلى الله عليه وآله، وذلك في الأخبار عن قيام المهدي عليه السلام من أهل البيت عليهم السلام، الذي يحقق هذا الهدف، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وهذا ما تفرضه أيضاًطبيعة الرسالة الإسلامية الخاتمة، التي لابد أن تحقق في إطارها الخاص ومرحلتها هذا الهدف الإنساني الإلهي الكبير، مع ملاحظة أن هذا الهدف لم يتحقق في زمن صاحب الرسالة، وهو النبي الأعظم صلى الله عليه وآله(١).

البُعد الثاني: الأهداف الرسالية الثلاثة

إن تحقيق الهدف الإلهي الكبير في حركة الرسالة الإسلامية، يحتاج إلى تحقيق ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إبلاغ الرسالة للناس لهدايتهم بصورة طبيعية، بحيث تقام الحجة عليهم، وتتحرك عملية الإبلاغ لتصل إلى البشرية كلها، ولو بصورة تدريجية، ولعل هذا هو ما يعبر عنه الإسلام، بقضية الظهور على الدين كله في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾(٢).

الأمر الثاني: فرض القدرة والسلطة والهيمنة الإسلامية على البشرية كلها تدريجياً، من خلال حركة القوة والقدرة؛ لإقامة الحق والعدل التي تواكب حركة الهداية والإرشاد وإقامة الحجة على الناس؛ لأن فرض القدرة لابد أن يكون بعد إقامة الحجة على الناس وإبلاغ الرسالة لهم، وهو أمر آخر مطلوب في الحركة الرسالية، كما حدث ذلك بالنسبة إلى الرسالة الإسلامية في زمن النبي صلى الله عليه وآله، حيث أقام صلى الله عليه وآله الحجة على الناس أولاً، ثم قام بالتحرك السياسي والعسكري، من أجل فرض هيمنة الحكم الإسلامي، وإقامة الحق والعدل بين الناس، وعندها تحققت

---

(١) تناول شهيد المحراب هذا الأمر في كتابه المجتمع الإنساني في القرآن الكريم في الباب السادس.

(٢) التوبة:٣٣.

الهيمنة للإسلام على الجزيرة العربية بصورة عامة في زمانه، وإن لم تكن هيمنة كاملة، ولكنها كانت هيمنة عامة للإسلام على الجزيرة العربية في تلك المدة المحدودة، ولعل هذه الهيمنة السياسية العامة، هي المقصودة بـ(وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله) في قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1].

الأمر الثالث: تطبيق الحق والعدل على الناس تطبيقاً كاملاً على مستوى الفرد والجماعة معاً، حيث يمكن افتراض أن الحجة تقام على الناس، وبعد ذلك تفرض الهيمنة العامة للمؤسسة السياسية، التي نعبر عنها: بالدولة أو الحكومة، ولكن مع ذلك لم يتحقق التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية على جميع الناس، كما حدث ذلك في زمن رسول الله ﷺ في حدود الجزيرة العربية، فان رسول الله ﷺ تمكن من فرض الهيمنة الإسلامية، كدولة وقوة يخضع لها الناس في حدود الجزيرة العربية بعد أن أقام الحجة عليهم، ولكن الكثير من هؤلاء الناس كان يرتكب الآثام ويحرِّف قوانين الحق والعدل، التي شرّعها الإسلام، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك عند إشارته إلى حركة المنافقين[2]، وإلى مجتمع الأعراب[3]، ومخالفات بعض المسلمين من المؤلفة قلوبهم، أو ضعفاء الإيمان، أو ضعفاء الإرادة والالتزام، حيث كانت ترتكب مثل هذه المخالفات حتى في زمن رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يعلن ـ أحياناً ـ إنكاره وبراءته مما كان يرتكب في زمانه من تلك المخالفات، إذ لم يطبّق الحق تطبيقاً كاملاً على جميع الناس حتى في حدود الجزيرة العربية.

---

(١) الأنفال: ٣٩.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ التوبة: ١٠٧.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ التوبة: ٩٧ ـ ٩٨.

وهذا التطبيق الكامل هو الذي نعبر عنه في ثقافتنا وثقافة المسلمين بصورة عامة بقيام دولة الحق في زمان يخرج فيه الإمام المهدي ﷺ فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

ويؤكد ذلك فكرة الرجعة، حيث يفهم من بعض النصوص أنه عندما تكتمل الدورة الإنسانية لإعداد الجماعة البشرية، ويتحقق الهدف العظيم الذي جاءت به الرسالات الإلهية، تبدأ البشرية بدورة جديدة، يتجسد فيها حضور الأنبياء والأوصياء والأولياء والأئمة كلهم؛ ليمارسوا دورهم الطبيعي في الحياة الإنسانية بصورة كاملة، وفي مجتمع إنساني متكامل، ويشهد فيه الكافرون والمنافقون النصر الإلهي، الذي حققه الله تعالى لأنبيائه وأوليائه، كما وعد سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾[1].

البُعد الثالث: دراسة حركة الرسالة

القيام بدراسة تأريخية لحركة الرسالة الإسلامية، منذ زمن النبي ﷺ والخلفاء والخلافة الأموية والعباسية، وحتى نهاية هذه المدة المفترضة (٣٥٠ ـ ٤٠٠) عاماً ومتابعة المؤشرات الايجابية والسلبية في هذه المدة التأريخية ذات العلاقة بالهدف الرباني، وهو تطبيق الحق والعدل بصورة كاملة، بحيث تصبح الأمة عبر هذا التطبيق رشيدة ومؤهلة للخلافة الإلهية، فيتبين من هذه الدراسة أن هذه المدة المفترضة كانت كافية للوصول بالأمة إلى الدرجة العالية من الرشد والإعداد والتهيؤ لتحمل هذه المسؤولية العظمى، لو كانت الأمور جرت على ما أمر الله به، من استلام الأئمة الاثني عشر للإمامة خارجياً بكل أبعادها، ومنها الحكم، والمرجعية الفكرية والدينية الكاملة للمسلمين، واستثمار فرص الهداية والبلاغ الإلهي.

---

(١) غافر: ٥١.

ونشير ـ هنا ـ إلى نماذج من هذه المؤشرات التي يمكن متابعتها في هذه الدراسة التأريخية:

المؤشر الأول: الموازنة بين الهداية والسلطة

لو وقفنا عند مدة الثلاث وعشرين عاماً التي قضاها رسول الله ﷺ في إبلاغ الرسالة الإسلامية، والانجازات التي حققها ﷺ في هذه المدة الزمنية على مستوى إقامة الحجة، وفرض السلطة، وإقامة الحق والعدل مقايسة بالعالم آنذاك، فسنلاحظ في هذا المؤشر مجموعة خصوصيات:

الأولى: إن قيادة الحكم كانت قيادة معصومة بكل أبعادها، وفي الوقت نفسه كانت قيادة مؤسسة تحملت آلام محنة وإبلاغ الرسالة في بدايتها، وقدسية الرسول والرسالة عند انتصارها.

الثانية: السرعة الفائقة التي حقق فيها رسول الله ﷺ الانجازات الفريدة، على المستويات الثلاثة السابقة، ومنها:

أ) تأسيس مشروع الأمة الواحدة المتعددة الأطراف والخصوصيات من جماعات متفرقة ومتناحرة ومختلفة دينياً وثقافياً إلى أمة واحدة تتمتع بمعنويات عالية، تمكنت من إدامة الزخم الرسالي، وتحمل الكثير من أعباء حمل الرسالة، والجهاد من أجل فرض سيطرتها.

ب) تأسيس الدولة الإسلامية، المشروع التطبيقي الفريد في تأريخ الرسالات الإلهية.

ج) فرض الهيمنة على الجزيرة العربية كلها، والشروع في فتح أبواب الهيمنة على المناطق المجاورة لإخضاعها.

د) إقامة الحجة على الأمم المجاورة من خلال مخاطبته ﷺ لها بالإسلام، بصورة أولية عبر الرسائل والمبعوثين.

هـ) إبلاغ الرسالة وإكمال بيانها للناس من خلال تلاوة القرآن الكريم، وحفظه وبيانات السنّة النبوية العامة والخاصة، وإلى غير ذلك من الانجازات.

الثالثة: المقارنة الدقيقة في البحث والاستنتاج، وموازنة تحقيق الأهداف بين حركة الهداية وإقامة الحجة على الناس، وفرض الهيمنة السياسية على الجماعة، حيث نلاحظ:

أ) إن رسول الله ﷺ بذل في البداية كل الجهود من أجل الهداية دون استخدام القوة، وقدّم التضحيات الغالية من أجل ذلك، ثم بدأ باستخدام القوة، كعامل لإزالة الحواجز أمام حركة الهداية.

ب) إن الهداية وإن كانت تواجه صعوبات، وتحتاج إلى تضحيات، وفترة زمنية طويلة نسبياً، لكنها في الوقت نفسه كانت تمثل أحد العوامل المهمة في إيجاد تسهيلات أمام حركة فرض السيطرة السياسية، وتسليم الناس للإسلام وقبول الرسالة الإسلامية.

ولذلك كانت الفترة المكية لحركة الرسول أطول زماناً من الفترة المدنية، والنتائج لفرض السيطرة السياسية للفترة المكية كانت محدودة جداً، ولكن كان لها تأثير مهم في النتائج التي حققها رسول الله ﷺ بعد ذلك في الفترة المدنية، من تسهيل فرض السيطرة فيها على الجزيرة العربية، ومنها مكة المكرمة نفسها.

وكذلك نلاحظ في هذا المجال أن الجهود الكبيرة التي بذلها الرسول في معالجة قضية أهل الكتاب وتحمله المعاناة من أجل مخاطبتهم، وإقامة الحجة عليهم، كان لها دور كبير في تحقيق نتائج الهيمنة السياسية على مناطقهم المنيعة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟

﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[1].

المؤشر الثاني: القيادة غير المعصومة

إنَّ حركة الدولة الإسلامية في مدة الخلفاء الثلاثة الذين تولوا السلطة بعد الرسول ﷺ، والتي تم فيها إبعاد الإمام عليّ عليه السلام من قيادة التجربة الإسلامية بصورة عامة، والدولة الإسلامية بصورة خاصة، اتصفت مع كل ذلك بدرجة معينة من الالتزام الديني العام؛ للقرب الزمني من عهد رسول الله ﷺ، بحيث كان يعبر عنها الإمام عليّ عليه السلام ـ أحياناً ـ بما روي عنه من قوله: «ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلاَّ عليَّ خاصة»[2]، وكان يقدم فيها المشورة إلى الخلفاء، ويشترك في إدارة بعض الأمور، وكان يشرك فيها أخيار الصحابة وصلحائهم وخاصتهم، أمثال: سلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم كثير.

حيث تمكنت هذه الدولة في فترة ربع قرن من الزمن، أن تفرض هيمنتها على جزء كبير من العالم المتحضر آنذاك كالدولة الفارسية بكامل أجزائها، والقسط الأعظم من الدولة الرومانية، وقسم كبير من إفريقيا.

وحركة الهداية وإقامة الحجة في هذه الفترة الزمنية، وإن لم تكن في مستواها المطلوب، لكنها واكبت حركة الهيمنة والسلطة، وحظت باهتمام مناسب من الدولة، لاسيما أن النبي قد شَرَعَ فيها قبل وفاته.

ولكن هذه الحركة الرسالية ـ حركة إقامة الحجة ـ لو كانت بالمستوى المطلوب، لأمكن تحقيق إنجاز أعظم على مستوى تثبيت القواعد والدعائم في هذه المنطقة، ولأمكن فرض السيطرة الكاملة أيضاً على جميع أجزاء الدولة الرومانية.

---

(١) الحشر:٢.

(٢) نهج البلاغة ١: ١٢٤، خطبة: ٧٤.

ولكن بسبب التلكؤ في حركة الهداية من ناحية، وإقصاء الإمام عليّ عليه السلام عن قيادة الحكم من ناحية أخرى، بقيت الجيوش الإسلامية تواجه مقاومة داخلية وخارجية، أي: في داخل الجزيرة العربية من خلال حركة الارتداد والتمرد والاختلاف في تفسير النصوص الإسلامية، أو من خارج الجزيرة في مناطق إيران وتركيا وإفريقيا، وغيرها من المناطق التي وقعت تحت سيطرة الجيوش الإسلامية، مضافاً للمقاومة الخارجية من الدولة الرومانية في آسيا وعمقها الجغرافي في أُروبا وبعض مناطق إفريقيا، ومن ناحية ثالثة كانت الاختلافات الداخلية التي بدأت ونمت وتجذّرت في زمن الخليفة عثمان، بسبب الانحرافات في السلطة، ثم تفجرت في زمن الإمام عليّ عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام من بعده؛ عندما تمرد معاوية على السلطة الشرعية، كل هذه العوامل كانت وراء التلكؤ في حركة الهداية.

وهذا هو ما تنبأت به الزهراء عليها السلام، في خطبتها المعروفة[1]، حول الخلافة والبيعة، والمطالبة بحقوقها، وما تنبأ به سلمان الفارسي أيضاً في تلك المناسبة عندما كان يردد قول: «أما والذي نفس سلمان بيده لو وليتموها عليّاً لأكلتم من فوقكم ومن تحت أقدامكم»[2].

---

(١) فقد ورد في خطبتها عليها السلام: «والله لو تكافّوا عن زمام نبذه رسول الله صلى الله عليه وآله إليه لاعتلقه، ولسار بهم سيراً سجحا، لا يكلم خشاشه، ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً فضفاضاً تطفح ضفّتاه ولاصدرهم بطاناً، قد تحيّر بهم الريُّ غير متحلٍ منه بطائل إلاّ بغمر الماء وردعة شررة الساغب، ولفتحت عليهم بركات من السماء والأرض، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون.

... أما لعمر إلهك لقد لقحت فنظرة ريثَ ما تنتج ثمّ احتلبوا طلاع القعب دماً عبيطاً، وذعافاً ممقراً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون، غبَّ ما سنَّ الأوّلون، ثمّ طيبوا عن أنفسكم أنفساً، وطأمنوا للفتنة جأشا، وابشروا بسيف صارم، وهرج شامل، واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً، وزرعكم حصيداً فيا حسرتي لكم، وأنى بكم، وقد عميت (قلوبكم) عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون.» . بحار الأنوار٤٣: ١٥٨، ح٨.

(٢) الاحتجاج ١: ١٥١.

وقد كان النموذج الذي قدمه الإمام عليّ عليه السلام في السنوات الأربع من حكمه ـ بالرغم من انشغاله بالحروب الداخلية ـ أفضل دليل على ما كان يمكن تحقيقه على مستوى الخط الثالث من حركة الرسالة، وهو التطبيق الكامل للأحكام الشرعية.

المؤشر الثالث: مشاكل الدولة وتراجعها

إنّ حركة الدولة الإسلامية في عهد الأمويين والعباسيين ـ رغم الفوارق الرئيسية بينهما ورغم القوة والمنعة اللتان كانتا تتمتعان بهما، ولاسيما في العهد العباسي الذي شهد تطوراً كبيراً في القدرة المادية، والتنظيم الإداري والمدني ـ كانت تتصف ـ بصورة عامة ـ بصفتين سلبيتين رئيسيتين:

إحداهما: كان الهم الأعظم للدولة في هذين العهدين، هو فرض السلطة السياسية، وبسط الهيمنة المادية، والحصول على الإمكانات والثروات، سواء في داخل الدولة الإسلامية، أم في خارجها، وهو ما نعبّر عنه نظرياً: بالاتجاه إلى تحويل الدولة إلى دولة كسروية أو قيصرية، وبذلك تخلّت الدولة ـ لا الأمة ـ عن مشروعها الرسالي الأساس.

ثانيهما: الصراعات الداخلية، وأولوية القضاء على الخصوم السياسيين الداخليين ـ سواء التقليديين منهم أم الأقربين ـ وممارسة عمليات القمع السياسي، حتى لو لم يكن عمل الخصوم السياسيين ذا طابع عسكري مسلح، الأمر الذي أدى إلى إضعاف القدرة الإسلامية، وتبديد طاقات وإمكانيات الأمة.

ومن الظواهر والنتائج التي تؤشر على هذه الحقيقة:

١ ـ ظاهرة القمع الوحشي لحركة الإصلاح ـ الخروج على الدولة ـ المبررة شرعاً في الواقع أو الظاهر والتي بدأت بنهضة الإمام الحسين عليه السلام واستمرت بصور متعددة، مثل: حركة المدينة المنورة المعروفة بواقعة

الحرة[١]، وحركة ابن الزبير[٢]، وحركة التوابين[٣]، والمختار الثقفي[٤]، وحركة زيد بن علي وأولاده[٥]، وحركة الحسين بن علي صاحب فخ[٦]، وقبله محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن المثنى[٧].

٢ ـ ظاهرة توقف ثم تراجع الدولة الإسلامية في حركة الفتح الإسلامي على أبواب أوربا الغربية، وأفريقيا الجنوبية، وآسيا الوسطى والجنوبية.

---

(١) وكانت بقيادة عبد بن حنظلة (غسيل الملائكة) إذ بايعه الناس في المدينة بعدما عاد هو ووفد من أشرافها من عند يزيد، واظهروا للناس فسق يزيد وشربه الخمور ولعبه بالكتاب ومسامرته الفتيان، ونحوها من المفاسد، واشهدوا الناس على خلعه، وأخرجوا عامله، فأرسل إليهم يزيد جيشه بقياده مسلم بن عقبة المري والحصين بن نمير وروح بن زنباع والتقى الجيشان في الحرة فغلب أهل الشام وأستباحوا المدينة ثلاثة أيام، وكان ذلك في سنة ٦٣ للهجرة.

(٢) وكانت بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام ، حيث أعلن عبد الله بن الزبير خلافته في مكة المكرمة، وبايعه غالب أهلها، فوجه إليه يزيد جيش الشام بعدما استباح المدينة، واقتتل الجيشان في مكة، وفيها ضرب جيش يزيد الكعبة بالمنجنيق واحرقوها بالنار بعدما تمكنوا من ابن الزبير، فقتلوه وصلبوه، وكان ذلك في سنة ٦٤ للهجرة.

(٣) وكان قائد الحركة سليمان بن صرد الخزاعي، وسار معه نحو أربعة آلاف يطلبون بدم الإمام الحسين عليه السلام حتى وصلوا عين الوردة، وصار القتال مع رؤساء الشام على نحو ثمانين ألف، واقتتلوا قتالاً شديدا وقتل سليمان بن صرد والمسيب بن نخيبة في الكوفة ليلاً.

(٤) وكانت ثورته عام ٦٦ هـ وقاد انتفاضة الكوفة واستولى على الحكم وقتل قتلة الإمام الحسين عليه السلام كعبيد الله بن زياد والحصين بن نمير وغيرهم.

(٥) وكان خروجه، ١٢٠ للهجرة في زمن هشام بن عبد الملك من الكوفة، وقتل وصلب بالكناسة ثم انزل بعد أربع سنين واحرق.

(٦) كان خروجه بعد هلاك الخليفة المسمّى بالمهدي وبيعة ابنه الملقّب بالهادي. وكانت بداية حركته من المدينة سنة ١٦٩ وبايعه فيها الكثير من الشيعة ثم خرج إلى مكة فدخلها، فسار إليه سليمان بن أبي جعفر. وكان على الموسم والتقى الطرفان في يوم التروية لتلك السنة، واستشهد الحسين وعدد كثير من الطالبيين.

(٧) كان ذلك في زمن خلافة المنصور العباسي في ١٤٥ ـ ١٤٦ هـ

٣ ـ ظاهرة انتشار الهدى في بعض المناطق، داخل الدولة الإسلامية أو المناطق المجاورة لها على أيدي المشردين والمطاردين السياسيين من أهل البيت عليهم السلام وأبنائهم وشيعتهم، كما في بعض مناطق المغرب العربي، وإفريقيا السوداء، وبلاد الترك والديلم، وغيرها من البلاد.

٤ ـ ظاهرة سيطرة القبائل والشعوب حديثة العهد بالإسلام على مقدرات الدولة؛ لغرض التمترس بها في الصراعات الداخلية.

٥ ـ ظاهرة الحروب والغزوات ذات الطابع العدواني، بهدف نيل بعض المكاسب المادية، كالغنائم والإماء، الأمر الذي أدى إلى بروز ظاهرة الدفاع عن النفس لدى الشعوب المجاورة، وتنامي المشاعر القومية والطائفية.

٦ ـ ظاهرة الانشقاقات العنيفة داخل السلطة الواحدة والبيت الواحد، كالأحداث التي وقعت في زمن الأمويين والعباسيين، كاقتتال المأمون والأمين ولدي هارون الرشيد.

وإلى غير ذلك من الظواهر السيئة البعيدة عن الإسلام، وأهدافه، وقيمه، ومثله.

وبذلك يمكن أن نفهم الكثير من المواقف والإدانات التي كانت تصدر عن أهل البيت عليهم السلام لهذه الظواهر، مثل: رفض وإدانة التعاون مع حكام الجور، وظاهرة رفض المشاركة في الحروب والغزوات وإدانتها مع التأكيد على وجوب المرابطة والدفاع، وظاهرة الطعن بشرعية أموال الغنائم وتملّك الإماء في هذه العمليات العدوانية.

وكذلك يمكن أن نفهم السبب في وقوف الجيوش الإسلامية المنظمة والقوية عاجزة أمام القبائل الأوربية الوحشية وغير المنظمة المستقرة في مجاهل أوربا، والاكتفاء بالاستقرار في الأندلس وحدها، ثم التراجع عنها.

وكذلك السبب في وقوفها عاجزة، أمام قبائل المغول الوحشية وغير المنظمة في مجاهل آسيا، ثم التراجع أمامها، بحيث أدى إلى سقوط أكثر العالم الإسلامي بيدهم.

وكذلك السبب في تحول الدولة الإسلامية إلى يد الدولة المغولية في إيران، أو العثمانية في تركيا... الخ.

الاستنتاج

إن دراسة الأمور الثلاثة المتقدمة مع خصائصها، وظواهرها، ومؤشراتها، تنتهي بنا إلى التصور المتقدم في تفسير ظاهرة الأئمة الاثني عشر ﷺ، وهو أن مدة إمامتهم ﷺ، بحسب تقدير الحكمة والعدل الإلهي في هداية الناس تمثل دورة زمنية مناسبة لإعداد الأمة وتأهيلها؛ للقيام لخلافة الله تعالى في الأرض كأمة وجماعة، وتكون بذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[1]، ولقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[2]، وبذلك يعم العدل والقسط بين الناس، ويحكم الحق فيهم، ويتحقق الوعد الإلهي لهم: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[3].

إن هذه الدراسة، توضح أن زخم الهدى والصلاح الذي تركه رسول الله ﷺ في أصحابه لو استمر بالطريقة التي شرعها الله تعالى، وبلغها الرسول ﷺ لأمته، وبذل كل جهده لإقامة الحجة عليها، بحيث تحفظ فيها الموازنة بين حركة

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) الحج: ٤١.

(٣) النور: ٥٥.

الهداية والسلطة، كان كفيلاً بتحقيق هذا الهدف الكبير في هذه المدة الزمنية. فالزخم الذي رأينا أثره وتأثيره في العالم المحيط بالمسلمين بالرغم من الانحراف الذي تعرّضت له المسيرة في أهم موقع لها تداعت له أركان الدولة الفارسية، فلو كانت القيادة لهذا الزخم الرسالي الإلهي قيادة ربانية، مدعومة بمسيرة الهدى والصلاح وإقامة الحجة على الناس، وتذليل النفوس والقلوب قبل تذليل الأجساد والقوى المادية لسقطت أركان الدولة الرومانية ـ وهما الدولتان المتحضرتان القويتان في ذلك العصر ـ وانفتحت فيه أبواب القبائل الوثنية المشتتة في العالم في مدة لا تزيد على ربع قرن من الزمن.

إن تنسيق حركة الهدى مع حركة الهيمنة، وتقدمها على حركة القدرة والسلطة قد يؤجل بسط الهيمنة المادية بعض الوقت، ولكنه سوف يفرض تصاعداً حتمياً مثمراً في الخط البياني لمسيرة الخطوط الثلاثة، الأمر الذي يؤدي إلى تحقيق هذا الهدف الحتمي الإلهي العظيم: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[١].

كما أن عملية بسط العدل والحق المطلق، وهيمنتها الكاملة، وحل جميع معالم وصور الاختلاف بين الناس التي أشارت إليها آية سورة النور، قد تحتاج إلى وقت أطول من وقت عملية إقامة الحجة وعملية بسط الهيمنة السياسية؛ لأنها أكثر تعقيداً من العمليتين الأخيرتين، ولكن هذا الوقت المفترض، وهذه المدة المحدودة تكفي بإذن الله في تحقيق كل ذلك، كما تشير إليه الملاحظات المتقدمة[٢].

---

(١) الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٢) لقد أشارت الزهراء ﷺ إلى هذه النتائج في خطبتها المعروفة، وسلمان الفارسي في تعليقته ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ وبهذا الصدد تنقل طرفة تعبر عن جانب من هذه الرؤية، وهي أن أحد المستشرقين البريطانيين الذين كانوا يصطحبون القوات البريطانية في فتحها للعراق في الحرب العالمية الأولى، دخل إلى مسجد الكوفة بعد الفتح وشاهد بناءه المتواضع ومواضع الإمام علي ﷺ فيه، وفي الكوفة، فعلق على ذلك بما معناه (أن لمعاوية وابن ملجم ـ قاتل الإمام علي ـ فضلاً كبيراً على الأمة البريطانية، إذ لولاهما لرأيت مسجد الكوفة هذا يعج بالقبعات البريطانية!). منه ﷺ

وعندما يتحقق ذلك الهدف الكبير فقد تنتهي بذلك بعض أدوار الإمامة المعصومة، بعدما بلغت الأمة الرشد في حركة الهداية، وأصبحت معصومة كأمة، وتمت سيطرة الإيمان والدين سياسياً حتى لا تكون فتنة، ويقوم القسط بين الناس، ووضعت أوزار الخلافات والخصومات، وأصبحت العبادة لله تعالى وحده دون غيره، لا يشرك بعبادته أحد من الناس، وتصبح الحجة البالغة لله على الناس، ويبدأ دور جديد للإمامة المعصومة، وهو دور (الرجعة).

ولكن شاء الله تعالى أن تجري الأمور بطريقة أخرى، لمزيد من الامتحان والابتلاء والاختبار؛ من أجل المزيد من التكامل الإنساني، مما جعل المدة أطول، فكانت الغيبة الصغرى والكبرى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[1].

---

(١) الطلاق:٣.

القسم الثاني

الاستدلال

- المدخل
- الفصل الأول: الاستدلال على ضرورة الإمامة
- الفصل الثاني: الاستدلال على اختصاص الإمامة في أهل البيت عليهم السلام
- الفصل الثالث: الاستدلال على اختصاص الإمامة بالأئمة الاثني عشر

المدخل

تقدم البحث في القسم الاول عن موقع أهل البيت عليهم السلام من النظرية الإسلامية، فتم تلخيص النظرية ـ بصورة عامة ـ في فصول ثلاثة:

الفصل الأول: ضرورة الإمامة، وموقعها في الرسالة الإسلامية.

الفصل الثاني: اختصاص أهل البيت عليهم السلام بالإمامة.

الفصل الثالث: اختصاص الإمامة بالأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام.

وهذه النظرية قد تحتاج إلى ما يؤيدها وما يدل عليها من الأدلة الشرعية، كالعقل، والقرآن الكريم، والسنّة النبوية، والإجماع، فهل الأدلة تستطيع إثبات هذه النظرية أو تبقى ـ النظرية بخصوصياتها التي أشرنا إليها ـ مجرد تصور عام لا يمكن الاستدلال عليه؟

إن هذا البُعد من البحث بُعد كلامي لا نريد الدخول في تفاصيله كلها، وسنكتفي هنا بالإشارة إلى استعراض عناوين الأدلة المذكورة في علم الكلام وبيان بعض التفاصيل، وارتباط هذه الأدلة بمصادرها، وتأييدها لهذه النظرية وتوثيقها،

أما الدخول في تفاصيل مناقشة هذه الأدلة والتي قد تكون لدينا ملاحظات حولها ـ سواء حول نفس الدليل أم حول صيغة الاستدلال به ـ فهو موكول إلى الحوزة العلمية[١].

---

(١) البحث مستوفى من قبل الدراسات الحوزوية في علم الكلام، وإن كنت قد ذكرت في بعض المحاضرات السابقة كهامش على هذا الجانب ملاحظة خلاصتها: إنّ مسيرة البحث في علم الكلام لم تتطور في الحوزات العلمية، كما تطورت في علم الفقه والأصول والرجال، مع أنّه من العلوم الأساسية في الوصول إلى الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية.

وكان علم الكلام في بعض المراحل يحظى باهتمام في مجال البحث العلمي الحوزوي أكثر مما يحظى به في هذا العصر، لا سيما مع الأخذ بنظر الاعتبار مستوى التطور الذي تحقق في مجال الفقه والأصول وحتى في مجال بحث علم الرجال.

ولكن مع ذلك كله لا زالت هذه الأبحاث الكلامية قائمة في الحوزة العلمية، ولا زال هناك جماعة من الأفاضل والعلماء في السابق وفي هذا العصر يبذلون اهتمامات في هذا المجال وألفوا كتباً في هذه الموضوعات، ونأمل من الحوزات العلمية الحاضرة أن تعطي اهتماماً أكبر لهذا البحث، ولعل أحد القضايا المهمة في الوصول إلى هذا الهدف هو ما طرحته عدة مرات في موضوع الاتجاه إلى التخصص في الحوزات العلمية، وبدأت ظاهرة التخصص تبدو ـ الآن ـ واضحة في حوزتنا العلمية في قم، حيث توجد بعض المؤسسات تتخصص في مجال البحوث الكلامية وتعطيها الأهمية الخاصة؛ من أجل تطوير هذا البحث الكلامي. منه ﷺ

الفصل الأول

الاستدلال على ضرورة الإمامة

هناك عدة خطوط في الاستدلال على ضرورة الإمامة يمكن الإشارة لها:

الخط الأول: الاستدلال بالعقل، حيث نذكر مجموعة من الأدلة العقلية على هذا الأمر.

الخط الثاني: الاستدلال بالقرآن الكريم والآيات الشريفة التي دلت على ضرورة الإمامة.

الخط الثالث: الاستدلال بالروايات التي وردت عن النبي ﷺ بطرق الجمهور التي تدل على ضرورة الإمامة.

الخط الرابع: الاستدلال بالنصوص التي وردت عن طريق أهل البيت عليهم السلام الدالة على ضرورة الإمامة[١].

الخط الخامس: الاستدلال بالإجماع، سواء إجماع المسلمين أم إجماع العلماء من جماعة أهل البيت عليهم السلام.

الخط الأول: الاستدلال بالعقل

تذكر ـ عادة ـ عدة وجوه للإستدلال على ضرورة الإمامة بالعقل، وهي:

(١) وإنّما نتحدث عن النصوص التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام ولم نكتف بالنصوص التي وردت عن النبي ﷺ عن طريق أهل السنّة؛ باعتبار أننا نريد الوصوَل في هذه النظرية إلى رؤية عقائدية نؤمن بها بيننا وبين ربنا، فقد لا تكفي تلك النصوص لإثبات ذلك، بسبب عدم الوضوح في صحة أسانيدها لدى بعض، بخلاف ما يروى عن طريق أهل البيت عليهم السلام ، فإنّه حجة لدى المسلمين. منه رحمه الله

الوجه الأول: قاعدة اللطف

وهي: «أنَّ نصب الإمام للناس لطف بالناس، واللطف واجب عليه تعالى، فيجب نصب الإمام عليه تعالى»[١].

يذكر المتكلمون والباحثون في علم الكلام أن مرجع القاعدة يعود إلى أنَّ اللطف من صفات الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾[٢] وبناء على ذلك ففي كل مورد يكون في فعل الله تعالى مصلحة من المصالح العامة أو الخاصة للعباد، يكون ذلك الفعل واجباً وموضعاً للطف الله، ويفترض في الإمامة أنَّ فيها هذه المصلحة، فتطبق القاعدة على هذه المفردة، حيث يقال: إنَّ ثبوت الإمامة واستمرارها بعد النبوة يمثل مصلحة من مصالح الإنسان والمجتمع الإنساني وتكامله، وبما أنَّ الله تعالى لطيف بعباده، فلابد له أن ينصب الإمام للناس بعد النبوة.

ويلاحظ ـ هنا ـ أنَّ بعض المتكلمين يرجع القاعدة إلى اللطف، بمعنى الرحمة والكرم والجود، وبعضهم الآخر يرجعها إلى الحكمة، أي أنَّ الله تعالى حكيم، ومقتضى الحكمة الإلهية اتخاذ القرار بموجب المصالح العامة التي تقتضيها هذه الحكمة الإلهية، والإمامة تمثل مصلحة من المصالح العامة، فتطبق القاعدة العامة على هذا المورد.

وقاعدة اللطف ـ مع قطع النظر عن صحتها في نفسها، أو صحة الاستدلال بها ـ يمكن أن تنطبق على النظرية التي أشرنا إليها انطباقاً كاملاً[٣]؛ إذ من الواضح

(١) صراط الحق ٣: ١٩٠.

(٢) الشورى: ١٩.

(٣) لو كان الاستدلال بها صحيحاً مطلقاً، باعتبارها قاعدة عقلية، أو في خصوص الموارد التي ثبت فيها وجود المصلحة بالدليل الشرعي، أو باعتبارها قاعدة شرعية مرجعها النقل، ونصوص القرآن الكريم، والسنة، وبحث ذلك ـ كما قلنا ـ له مجال آخر. منه ﷺ.

أنَّ النبوة والإمامة ـ التي هي امتداداً لها ـ تمثل رحمة للناس، لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[(١)] فمجيء النبي ومن بعده الإمام الذي يقوم بدوره يكون رحمة، وإذا كان كذلك، فيمكن تطبيق القاعدة العقلية على هذا المصداق، فيقال: إنَّ وجود الإمامة يمثل رحمة ولطفاً من الله تعالى[(٢)]، إذن لابد أن يصدر منه تعالى هذا اللطف وينصب الإمام.

وكذلك ما ورد ـ أيضاً ـ في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[(٣)]، فالآية الكريمة تشير إلى حقيقة أنَّ الإمامة رحمة؛ فقد تقدم في تفسير ضرورة الإمامة أنَّ هذه الضرورة تنبع من عوامل ثلاثة:

الأول: إنَّ الإمامة ضرورة لحل الاختلاف في (عبادة الله تعالى)، وتشخيص طريق حركة الإنسان نحو المثل الأعلى الكامل المتمثل بالله تعالى.

الثاني: ضرورة الإمامة في حلّ الاختلاف الذي ينشأ بين الناس في (فهم الدين وتفسيره) الذي يعّبر عنه في لغة القرآن ولسان أهل البيت عليهم السلام بـ(التأويل)، ويبدو من القرآن الكريم إنَّ وجود الاختلاف في الدين على كلا المستويين من الظواهر التي واجهتها مسيرة الرسالات الإلهية بدون استثناء.

الثالث: ضرورة الإمامة (لقيادة الحكم الإسلامي وإدارته)، لتطبيق الحق والعدل بين الناس بنحو يؤدي بهم كجماعة إلى التكامل الإنساني والبشري، من خلال تحقيق وتطبيق الحق والعدل بينهم ليصلوا إلى الكمالات الإلهية التي أرادها الله تعالى.

ونلاحظ أن الآية الكريمة تشير إلى أنَّ حلّ الاختلاف يمثل مصداقاً من

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) وبإضافة: كل ما يكون رحمة ولطفاً بالعباد يجب صدوره من الله تعالى.

(٣) هود: ١١٨ ـ ١١٩.

مصاديق الرحمة الإلهية: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فهذه الحالة المستثناة ـ وهي حالة الخروج من الاختلاف ـ تمثل مصداقاً من مصاديق الرحمة الإلهية، ومفردة من مفردات اللطف الإلهي، فأيّ أمر يكون ضرورياً لحلّ الاختلاف يكون رحمة إلهية، ومن ثمّ يكون لطفاً من الله تعالى، فيكون مصداقاً للقاعدة.

وبعد ذلك تؤكد الآية الكريمة هذا المعنى عندما تجعل الرحمة الإلهية هدفاً لخلق الإنسان ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، بناء على ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام[1] في تفسير هذه الآية الكريمة: أنَّ خلقهم كان للرحمة الإلهية، وإنَّ اسم الإشارة في ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ هو إشارة إلى الرحمة، أي إلى المستثنى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، ولهذه الرحمة خلقهم. على خلاف ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنَّ اسم الإشارة يعود للاختلاف والمستثنى منه، فيكون المعنى: (ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم) وكأنَّ الخلق من أجل أن يبقى هؤلاء الناس على الاختلاف.

وتفسير الإمام الباقر عليه السلام موافق لما جاء في القرآن الكريم في المواضع الأخرى ذات العلاقة بموضوع الاختلاف ودور الرسالات الإلهية في محله[2] ـ بخلاف التفسير الآخر ـ لأن المعنى الكلي العام المفهوم من القرآن الكريم من خلال مجموع الآيات التي وردت في موضوع الاختلاف وبعثة الأنبياء، والهدف

---

(١) عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال في قوله: «﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الدين ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني آل محمد وأتباعهم يقول الله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني: أهل الرحمة لا يختلفون في الدين» تفسير القمي ١: ٣٣٨.

(٢) نلاحظ أنَّ هذا المنهج في التفسير ـ يعني أن نأخذ التفسير بالنسبة إلى آية من الآيات بصورة كاملة لا بصورة تجزيئية، بمعنى أن نعرض هذا التفسير على مجموع ما ورد في القرآن الكريم من آيات، ونصل بذلك إلى فهم الآية بصورة كاملة ـ هو ما انتهجه وطبقه إلى حد كبير العلامة الطباطبائي قدس سره، وكذلك التزم به إلى حدّ كبير وأدخل عليه الكثير من التطوير الشهيد الصدر قدس سره، والتزمنا به في منهجنا التفسيري. منه قدس سره.

منها، هو أنَّ الله تعالى إنّما أرسل الأنبياء من أجل حلّ الاختلاف بين الناس[١]، فالهدف من وجود المجتمع الإنساني وإرسال الأنبياء الوصول إلى هذه المرحلة التكاملية (مرحلة حلّ الاختلاف).

ويؤكد هذا ـ أيضاً ـ ما ورد في جميع الرسالات الإلهية من الاعتقاد بضرورة وجود الإنسان المصلح في آخر الزمان الذي يحلّ هذا الاختلاف، سواء كان ذلك في العقيدة اليهودية التي بقيت تنتظر هذا المصلح، أم في العقيدة المسيحية التي تعتقد بأنَّ هذا المصلح هو المسيح، وسوف يقوم بهذا الدور في آخر الزمان أيضاً، أم كانت عقيدة المسلمين من أنَّ هذا المصلح هو المهدي المنتظر ﷺ، المولود فعلاً ـ كما هو عقيدة الكثير من المسلمين، ومنهم جماعة أهل البيت ـ أو الذي سيولد في المستقبل ـ كما يذهب إليه بعض المسلمين ـ حتى يحقق هذا الهدف العظيم.

المهم في هذا الحديث أنَّ المفهوم من القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية: أنَّ قضية خلق الإنسان وحركته وبعثة الأنبياء ستنتهي إلى هذه الغاية، وهي غاية حلّ الاختلاف الذي يجسد الرحمة الإلهية بعد مرحلة طويلة من الاختلاف يمر بها هذا الإنسان في مختلف أدوار تأريخه.

إذن، فالدليل العقلي الذي أُشير إليه بقاعدة اللطف يؤيد هذه النظرية من خلال رؤية ضرورة الإمامة باعتبارها رحمة إلهية لحلّ الاختلاف بين الناس، سواء الاختلاف في عبادة الله تعالى، أم الاختلاف في فهم الدين وتفسيره.

الوجه الثاني: دليل الحكمة

ويتلخص الدليل في أنَّ وجود الإمام يمثل الأصلح في حركة تكامل

(١) قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ البقرة: ٢١٣.

الإنسان.

لما كان الله سبحانه وتعالى حكيماً كما وصف نفسه(١)، فهو لا يعمل في عباده إلاّ بمقتضى حكمته، ومقتضى الحكمة: أن يكون القرار الإلهي أو (الإرادة) الإلهية ـ كما يعبر القرآن الكريم ـ متعلقة بما هو الأصلح في حركة الإنسان ومتطابقة مع الحكمة، فإذا كان وجود الإمام هو الأصلح في النظام الاجتماعي والإنساني، ومقتضى الحكمة انتخاب الأصلح في حركة الإنسان وتكامله، فلابد من نصب الإمام(٢).

وهذا الدليل يؤيد نظرية الإمامة لما تقدم من أنَّ ضرورتها تنبع من العوامل الثلاثة المتقدمة(٣).

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة:٢٠٩.

(٢) وهذا الدليل في واقعه فرع من قاعدة اللطف، ولكن على أيِّ حال يذكر كدليل مستقل، ولعل الفرق بينهما أنّ الأول يسند إلى صفة اللطف، وهذا يسند إلى صفة الحكمة.

هذا مع قطع النظر عما يمكن أن يثار حوله من مناقشة، من أنّه ليس دليلاً عقلياً، وإنّما هو دليل شرعي، ولكن على كل حال يذكرونه بعنوان الدليل العقلي، أو بعنوان الملازمات العقلية. وتفصيله في علم الكلام. منه ﷺ.

(٣) وهي:

١ ـ حلّ الاختلاف على مستوى العبادة.

٢ ـ حلّ الاختلاف على مستوى فهم الدين وتفسيره، وهو ما نعبّر عنه بالتأويل.

٣ ـ قيادة حركة التكامل الإنساني في تطبيق الحق والعدل، الذي يكون من خلال وجود الكيان الإسلامي السياسي؛ لأنّ الأصلح في حركة الإنسان إنّما يتحقق بصورة كاملة من خلال عملية التطبيق، فلا يكفي مجرد طرح المفاهيم النظرية لتحقيق الصلاح في التكامل الإنساني، وإنّما يحتاج ذلك إلى التطبيق الكامل للحق والعدل بين الناس، وهي مرحلة الرسالة الخاتمة، ولا يمكن الوصول في هذه التجربة إلى مراحلها الأخيرة إلا من خلال الإمامة المعصومة.

نعم، الإمامة غير المعصومة يمكنها التمهيد للوصول إلى تلك المرتبة العالية من الكمال في حركة الإنسان، والتي أشار إليها القرآن الكريم في آيات كثيرة. منه ﷺ.

الوجه الثالث: دليل العصمة

يعتمد هذا الاستدلال على ضرورة العصمة للإمام، حيث يقال: إنَّ الإمام لابد أن يكون معصوماً، ولما كانت العصمة أمراً خفياً لا يمكن للناس أن يعرفوها، فلابد أن تكون الإمامة بقرار إلهي، لأن الله هو القادر على معرفة الإنسان المعصوم.

هذا الوجه[١] وإن كان فيه مواقع للنظر في صحة الاستدلال به، أو مدى ارتباطه بأصوله وجذوره العقلية، ولكنه على كل حال يؤيد نظرية ضرورة أن تكون الإمامة معصومة حتى تتمكن من تحقيق الأهداف التي افترضت في ضرورتها.

الوجه الرابع: دليل النبوة

يقوم هذا الاستدلال على قياس الإمامة بالنبوة في الضرورة، فكل الأدلة التي يمكن الاستدلال بها عقلاً على ضرورة النبوة يمكن الاستدلال بها عقلاً على ضرورة الإمامة، لأن الإمام كالنبي من حيث المسؤوليات والمهام، وما دام الإمر كذلك فالدليل الدال على ضرورة النبوة عقلاً دال على ضرورة الإمامة.

وهذا الدليل يصب في الاتجاه نفسه في تأييد النظرية ـ مع قطع النظر عما يثار حوله من ملاحظات[٢] ـ ولكن لا بصيغته المذكورة، بل بما ذكر في النظرية من أنَّ

(١) يلاحظ أنَّ بعض المتكلمين الذين ضاقت بهم السبل في الأدلة العقلية، أو لم يقبلوا قاعدة اللطف وما بعدها من القواعد، حاولوا أن يدخلوا هذا المدخل في الاستدلال العقلي. منه ﷺ.

(٢) مثل أنَّ الإمامة هي امتداد للنبوة وليست كالنبوة، وحينئذ نجد أمامنا إشكالاً يثار ـ عادة ـ في أذهان بعض الناس ويحتاج إلى أدلة كثيرة من أجل إزالته، والإشكال هو أنَّ النبي مبلغ عن الله تعالى ويحمل رسالة، والإمامة لا تبدو في صورة النبوة، وإنَّها تحمل هذه الرسالة، ولذلك نفيت النبوة بعد النبي الخاتم لقوله ﷺ: «.. إلا أنَّه لا نبي بعدي»، مع أنَّ النبي ﷺ قد نصب الإمام علياً ﷺ من بعده إماماً، إذن، فالنبوة ليست كالإمامة، وإلا لكان هو النبي من بعده.

هذا الإشكال ـ كما أشرت ـ يثار في الأذهان، وجوابه يحتاج إلى بحث واسع محله في علم الكلام، ولكن لو صح هذا الدليل أمكن الاستفادة منه هنا. منه ﷺ.

الإمامة تمثل امتداداً للنبوة في بعض مهماتها الأساسية والرئيسية الواجبة، وهي مهمة حلّ الاختلافات بين الناس على المستوى الأول والثاني، وفي قيادة الحكم الإسلامي، وتطبيق الحق والعدل بين الناس للوصول بهم إلى مرحلة التكامل، فإنّ ذلك من واجبات النبوة ـ أيضاً ـ في بعض مراحلها.

الوجه الخامس: إكمال الرسالة

ذكر هذا الدليل بعض الفضلاء المعاصرين(١)، وعبّر عنه بأنه دليل بين العقل والنقل، حيث يعرضه بمقدمات عديدة، ويحاول جعله دليلاً مقابل الأدلة المتقدمة، فيذكر: إن النبي ﷺ الذي جاء بالرسالة الخاتمة لم يتمكن من إبلاغها إبلاغاً كاملاً للناس، أو أنّه لم يكن قادراً بالأصل على ذلك، إما بسبب الظروف التي أحاطت به في مكة والمدينة، كالمشكلات التي اعترضته في مكة، او الحروب التي انشغل بها في المدينة، أو بسبب أنَّ إبلاغ الرسالة يحتاج إلى وقت أطول من عمر الرسول، ولذلك تحتاج هذه الرسالة إلى إمامة تتحمل مسؤولية الإبلاغ.

ويستدل على هذه الحقيقة بالضرورة التي شاهدها الفقهاء والمجتهدون في الوصول إلى الأحكام الشرعية، فإنّه لو لا وجود الإمامة بعد النبي ﷺ لأُغلق علينا باب معرفة الشريعة، فالشريعة التي جاء بها النبي ﷺ وإن كانت كاملة في نفسها، ولكن معرفتها إنّما كملت من خلال الإمامة.

وهذا الدليل وإن كان قاصراً عن إثبات أبعاد وخصائص الإمامة الضرورية الثلاثة إلاّ أنَّ الاستدلال به مرجعه إلى ضرورة الإمامة(٢)، ولكن من البعد الذي

---

(١) صراط الحق ٣: ١٩١، ويمكن مراجعة عرضه للأدلة السابقة ـ أيضاً ـ في الجزء نفسه: ١٩٠.

(٢) وإن كان يوجد إشكال آخر على هذا الاستدلال بالخصوص، أو توضيح له، حاصله: أنّه قد ورد في القرآن الكريم وفي روايات صحيحة عن أهل البيت ﷺ ما يشير إلى أنّ جميع أحكام الشريعة هي موجودة في القرآن الكريم، ويمكن استنباطه من القرآن الكريم، ولكن ليس أمراً متيسراً لكل شخص، وإنّما هو متيسر لأئمة أهل البيت ﷺ، ولذا فإن رسول الله ﷺ قد بيّن كل الأحكام الشرعية بناءً على هذا الفهم للنص القرآني، وكذلك بناءً على ما ورد عنهم ﷺ في تأكيد هذا النص القرآني، من وجود التفاصيل الجزئية في القرآن. منه ﷺ.

سنعبر عنه في الأحاديث الآتية بالمرجعية الفكرية والشرعية، بمعنى أنّنا نحتاج إلى الإمامة في الرجوع إليها في معرفة الإسلام وتفاصيل الأحكام.

هذا هو خلاصة ما يقال في الدليل العقلي، وبذلك نرى أنَّ جميع الأدلة العقلية المذكورة لضرورة الإمامة يمكن أن تؤكد النظرية التي ذكرناها أو تنسجم معها، وإن كانت لدينا ملاحظات على وصفها بالعقلية، أو على طريقة الاستدلال بها، ولكن فيها كثيراً من جوانب الصحة.

الخط الثاني: الاستدلال بالقرآن الكريم

منهج الاستدلال بالقرآن

لابد في البداية أن نشير إلى عدة نقاط توضح منهج الاستدلال بالقرآن الكريم على ضرورة الإمامة وتفرعاتها السابقة:

النقطة الأولى: إذا كانت الإمامة ضرورة في النبوة الخاتمة ـ كما تقدم في النظرية ـ فلابد من وجود إشارة لهذه الضرورة في القرآن الكريم؛ لأن القرآن الكريم ـ كما وصف نفسه ـ تبيان لكل شيء: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، وما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من أحاديث صحيحة تؤكد هذا الوصف.

فإذا كان القرآن الكريم يشتمل على بيان كل الأمور، فلابد له أن يشتمل على مثل هذا الأمر المهم، وهو ضرورة استمرار النبوة في الإمامة، ولذا لابد من الرجوع إليه لاستنباط النظرية والاستدلال عليها ومعرفة ما يشير فيه إليها.

النقطة الثانية: إنَّ منهج القرآن الكريم في بيان الحقائق هو منهج الإشارة العامة والبيان الإجمالي الكلي لها، ولا يتعرض ـ عادة ـ إلى التفاصيل أو المصاديق والحدود الدقيقة، إلا في مواضع خاصة، ولسبب خاص[2]، ويلاحظ عموم هذا

---

(١) النحل: ٨٩

(٢) راجع علوم القرآن لشهيد المحراب بحث (الهدف من نزول القرآن).

المنهج من خلال متابعة تعرض القرآن الكريم إلى العبادات، كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وكذلك الحلال والحرام، والعقود، وغيرها من الشؤون العقائدية والاجتماعية، حيث لم يعرض القرآن الكريم تفاصيلها.

ولعل السبب في ذلك هو مجموعة مصالح رسالية وموضوعية، وقد ترك للنبي صلى الله عليه وآله ولأهل البيت عليهم السلام بيان الكثير من هذه التفاصيل المستنبطة منه، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدة مواضع، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

النقطة الثالثة: التميز في هذا البحث القرآني بين إثبات ضرورة وجود الإمامة بعد النبوة في النبوة الخاتمة، وبين بحث إثبات الإمامة لأهل البيت عليهم السلام أو للإمام علي عليه السلام، وإن كان البحث الثاني يمكنه أو يثبت الأول بالملازمة العقلية، ولذا قمنا بفصل البحثين أحدهما عن الآخر في أصل النظرية، ونحاول ـ أيضاً ـ هنا فصل الاستدلال عليهما(٤).

---

(١) الحشر: ٧.
(٢) النحل: ٤٤.
(٣) النحل : ٦٤.
(٤) لعل هذا الارتباط هو الذي جعل الكثير من الباحثين في علم الكلام يكتفون بالبحث الثاني في مقام الاستدلال بالقرآن الكريم، حيث لم أجد في حدود المراجعة السريعة لبعض الكتب الجامعة لأبحاث علم الكلام تخصيص الاستدلال بالقرآن الكريم لهذا الجانب من البحث الذي هو موضع بحثنا في هذا الفصل.

وقد حاول العلامة الطباطبائي قدس سره أن يستنبط استمرار الإمامة من آيات القرآن الكريم، عندما تناول قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. راجع الميزان في تفسير القرآن ١: ٢٧١. منه قدس سره

عناصر الاستدلال بالقرآن

وفي مجال الاستدلال بالقرآن الكريم هناك مجموعة من العناصر أحاول الإشارة إليها في إثبات هذا الأمر:

العنصر الأول: يفهم من القرآن الكريم أن الإمامة عندما جعلت من الله تعالى، جعلت كقضية ذات طبيعة مستمرة في وجودها وحركتها، لأنها وإن كانت تمثل ظاهرة تكامل للنبوة نفسها، وحركة الرسالات الإلهية، ولكنَّها ـ في الوقت نفسه ـ ظاهرة تكاملية أساسية في حركة المجتمع الإنساني والبشري أيضاً؛ لأنها تمثل الأداة في تجسيد وتحقيق الهدف للرسالات الإلهية، ولذلك لا يمكن أن تكون ظاهرة منقطعة أو ثابتة في حال دون حال، فالنبوة تمثل ظاهرة تكاملية للحركة الإنسانية، والإمامة تمثل ظاهرة أُخرى تكمل النبوة وتحقق أهدافها التكاملية النهائية.

والمؤشرات على هذا الاستمرار من القرآن الكريم عديدة، منها: ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1]، فإن الآية الكريمة تشير إلى أنَّ إبراهيم عليه السلام عندما خوطب بالإمامة فهم من ذلك أنَّها أمر باقٍ ومستمر، ولذلك كان سؤاله عن دور ذريته فيها: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾، فكان جوابه تعالى: أن أكد هذا الفهم من الخطاب، فقال: إنَّ عهد الإمامة لا ينال الظالمين[2].

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) تحدث العلامة الطباطبائي قدس سره حديثاً طويلاً في تفسير هذه الآية يستحق المراجعة، ويتسم بالدقة وقوة النظر والاستنتاج، واستفاد منها ـ بعد المقارنة مع الآيات القرآنية الأخرى ـ عدة نتائج، لخصها في آخر حديثه، قال قدس سره: «وقد ظهر مما تقدم من البيان أمور:

الأول: إنّ الإمامة مجعولة.

الثاني: إنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً بعصمة إلهية.

العنصر الثاني: إنَّ القرآن الكريم حين يتحدث عن الإمامة يربطها بمصير حركة الإنسان والمهمات الأساسية التي يتحملها في الحياة الدنيا والآخرة، بحيث تصبح ـ الإمامة ـ ملازمة لحركة الأمم، ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ ما يذكره القرآن الكريم عند حديثه عن الأنبياء، وما قاموا به من أعمال في هداية الناس وإرشادهم وإنقاذهم من الضلالة، فإنَّه يصفهم بالإمامة، ويرتب على هذا الوصف الواجبات الأساسية للمجتمع الأنساني الكامل ـ فعل الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والعبادة لله تعالى ـ ثم يختم المقطع الذي يتناول فيه ذكر الأنبياء، بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[1].

٢ ـ ما يذكره القرآن الكريم في وصف مصير الناس يوم القيامة، حيث تدعى كل جماعة منهم بإمامهم، الأمر الذي يشير إلى الارتباط بين مصير الجماعة

الثالث: إنَّ الأرض ـ وفيها الناس ـ لا تخلو عن إمام حق.
الرابع: إنَّ الإمام يجب أن يكون مؤيداً من عند الله تعالى.
الخامس: إنَّ أعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام.
السادس: إنَّه يجب أن يكون عالماً بجميع ما يحتاج إليه الناس في أمور معاشهم ومعادهم.
السابع: إنَّه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه في فضائل النفس.
فهذه سبعة مسائل هي أمهات مسائل الإمامة، تعطيها الآية الشريفة بما ينضم إليها من الآيات والله الهادي». راجع الميزان في تفسير الميزان ١: ٢٧٤.
كما أنه فسر الإمامة، بأنها: «الهداية إلى الحق بأمر الله تعالى». راجع الميزان في تفسير القرآن ١: ٢٧٢.

ومع قطع النظر عن مدى صحة جميع ما أورده في مقام الاستنباط من هذه الآية الكريمة وغيرها، فإن بحث ذلك في التفسير وعلم الكلام، ولكن فهم استمرار الإمامة من الآية الكريمة هو مقصودنا من هذه الإشارة. منه ﷺ.

(١) الأنبياء: ٧٣.

والإمام، وأنَّ الإمامة حالة مستمرة مع الأمم والجماعات، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[1].

٣ ـ ما يذكره القرآن الكريم من الملازمة بين وجود الأمم وواجبات الإمامة بصورة عامة، فقد ذكر القرآن الكريم هذا الأمر في أكثر من مورد:

◆ بيان أنَّ في كل أمة (شهيداً)، قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾[2].

◆ بيان أنَّ لكل قوم (هادياً)، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[3].

◆ بيان أنَّ في كل أمة (نذيراً)، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[4].

◆ بيان أنَّ لكل أمة (رسولاً)، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[5].

◆ بيان أنَّ لكل أمة (كتاباً)، قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[6].

فإذا أضفنا إلى ذلك نكتتين أُخريين، وهما:

١ ـ لم يرد في القرآن الكريم الحديث عن (وجود نبي لكل أمة)[7] ولكن ورد فيه وجود إمام لكل أمة: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾، لذا أمكن

---

(١) الإسراء: ٧١.
(٢) النساء: ٤١.
(٣) الرعد: ٧.
(٤) فاطر: ٢٤.
(٥) يونس: ٤٧.
(٦) الجاثية: ٢٨.
(٧) ولا يتوهم أنَّ النبي والرسول شيء واحد، إذ من الواضح أنَّ الرسول في القرآن الكريم يطلق على ما هو أعم من النبي، قال تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ يس: ١٤. منه ﷺ.

القول بأن هذه الآيات الكريمة يفهم منها الملازمة بين الأمة والإمامة وواجباتها، ولعل هذه المسؤولية هي التي تشير إليها آية: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ﴾، ولا سيما وأنَّ الكتاب يكنى به الإمام ـ أيضا ـ في القرآن الكريم.

وهو تعبير آخر عن قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾[١].

٢ ـ إنَّ الإمامة تعني الهداية، كما تشير إلى ذلك آية: ﴿ ... إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾والهداية حاجة ثابتة في الأمم كلها.

العنصر الثالث: ورد في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[٣].

فإذا قارنا هاتين الآيتين الكريمتين بآيات الشهادة التي تحدثت عن شهادة بعض الأنبياء في الدنيا والآخرة ـ كعيسى عليه السلام[٤] ـ أو شهادتهم في الآخرة في الآيات السابقة يفهم أنَّ المقصود من الشهداء هم نوع خاص من أبناء الأمة ـ يناسب الإمام المعصوم ـ لا جميع أبنائها، وذلك بالجمع بين قرينتين:

الأولى: إنَّ أبناء الأمة الإسلامية لا يصلحون بأجمعهم لهذه الشهادة، لأنَّ

---

(١) الأعراف: ٦.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) الحج: ٧٨.

(٤) انظر قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ المائدة: ١١٧.

فيهم الفساق وضعفاء الإيمان والمنافقين وغيرهم من الأصناف التي لا تصلح ـ أحياناً ـ للشهادة على أمر من أمور الدنيا، فضلاً عن الشهادة على الناس جميعاً، وقد وردت الإشارة إلى هذه القرينة في بعض ما نقل عن أهل البيت عليهم السلام، فعن الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، قال: «ولا يكون شهداء على الناس إلاّ الأئمة والرسل، فأمّا الأمّة فإنّه غير جائز أن يستشهدها الله تعالى على الناس وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل»[1].

وكذلك ورد عن الصادق عليه السلام في تفسيرها قوله عليه السلام: «فإن ظننت أنَّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحّدين، أفترى أنَّ من لا يجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ ! كلا لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الأمة (بل الأمة. خ ل) الّتي وجبت لها دعوة إبراهيم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وهم الأُمّة الوسطى وهم خير أمّة أخرجت للناس»[2].

الثانية: ما ذكره العلامة الطباطبائي قدس سره: «إنَّ هذه الشهادة ليست هي كون الأُمة على دين جامع للكمال الجسماني والروحاني ـ كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ـ... بل هي تحمل حقائق أعمال في الدنيا من سعادة أو شقاء، ورد وقبول، وانقياد وتمرد، وأداء ذلك في الآخرة..

.. ومن الواضح أنَّ هذه الحواس العادية التي فينا، والقوى المتعلقة بها منا لا تتحمل إلا صور الأفعال والأعمال فقط، وذلك التحمل أيضاً إنّما يكون في شيء يكون موجوداً حاضراً عند الحس لا معدوماً ولا غائباً عنه، وأما حقائق الأعمال والمعاني النفسانية من الكفر والإيمان والفوز والخسران، وبالجملة كل خفي عن

---

(١) بحار الأنوار ٢٣: ٣٥١، ح ٦٣.

(٢) بحار الأنوار ٢٣: ٣٥٠، ح ٥٨، ومن الملاحظ أنّ الحديث الثاني يوضح الحديث الأول.

الحس ومستبطن عند الإنسان ـ وهي التي تكسب (ها) القلوب، وعليه يدور حساب رب العالمين.. ـ فهي مما ليس في وسع الإنسان إحصاؤها والإحاطة بها وتشخيصها من الحاضرين فضلاً عن الغائبين إلا رجل يتولى الله أمره ويكشف ذلك له بيده»[(١)].

فإن الجمع بين هاتين القرينتين يستنتج منه أنَّ الشهادة المذكورة لهذه الأُمة هي الإمامة، وهو استنتاج ينسجم مع ما أشير إليه في المثال الثالث من الأمر الثاني، من أنَّ لكل أمة شهيداً، وهو أمر أكده القرآن الكريم في عدة آيات.

ويؤكد هذا الاستنتاج ما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾[(٢)]، فالظاهر من الآية الكريمة أنَّ الشاهد الذي يتلو النبي صلى الله عليه وآله هو استمرار لمسؤولية النبيّ في الشهادة، وأنَّ هذا الشاهد منه، ولذا جاء تفسير هذه الآية: أنَّ المقصود منها هو الإمام علي عليه السلام[(٣)].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١: ٣٢٠، وقد تناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل والشرح، وطبق عليه الروايات الشريفة، وحديثه في الجملة صحيح، ولا سيما فيما يتعلق باستنباط ما تدل عليه الآية من وجود شهادة على مستوى الإمامة، وفي بعض مواضعه وإطلاقه نظر لا مجال له هنا، وإنّما حديثه في التفسير. منه رحمه الله.

(٢) هود: ١٧.

(٣) عن الرضا عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان يوم الجمعة يخطب على المنبر، فقال: «والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، ما من رجل من قريش جرت عليه المواسي إلا وقد نزلت فيه آية من كتاب الله عز وجل، أعرفها كما أعرفه، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما آيتك التي نزلت فيك؟ فقال: إذا سألت فافهم ولا عليك ألا تسأل عنها غيري، أفقرأت سورة هود؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فسمعت الله عز وجل يقول: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾؟ قال: نعم، قال: فالذي على بينة من ربّه محمد رسول صلى الله عليه وآله والذي يتلوه شاهد منه، وهو الشاهد وهو منه، عليّ بن أبي طالب، وأنا الشاهد، وأنا منه صلى الله عليه وآله» أمالي الطوسي: ٣٧١، ح ٨٠٠. كنز العمال ٢: ٤٣٩، ح ٤٤٤١. تفسير الثعلبي ٥: ١٢٦. الدر المنثور ٣: ٣٢٤.

العنصر الرابع: آية الاستخلاف المطلق، وهي قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾[١]، فإنَّ الآية الكريمة تدلّ على ضرورة الإمامة بعد النبي ﷺ لإكمال عملية الاستخلاف (المطلق) الذي يتحقق فيه الأمن الكامل والتوحيد المطلق في العبادة لله تعالى، لأن ذلك لم يتحقق في زمن الرسول ولا من بعده، ولا زال الشرك بالله والخوف من الناس ظاهرة قائمة في التأريخ الإنساني منذ زمن النبي ﷺ وحتى الآن، وإن كانت بعض درجات الاستخلاف أو التمكين للدين أو الأمن قد تحققت في بعض الأزمنة الماضية، ولكن درجة الاستخلاف على مستوى التوحيد المطلق لله تعالى المذكور في الآية الكريمة لم يتحقق على مدى التأريخ.

وقد وردت بعض النصوص عن أهل البيت عليهم السلام تؤكد أنَّ المعني بهذا الوعد هو الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه[٢].

ويؤيد ذلك بعض الآيات الأخرى التي تدل على وراثة الأرض المطلقة لعباد

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾، قال: «القائم وأصحابه» بحار الأنوار ٥١: ٥٨، ح ٥٠.

ولقد أفاض العلامة الطباطبائي وأفاد في تفسير هذه الآية الكريمة، للوصول إلى هذا الاستنتاج.

ونحن وإن كنّا نوافقه في جانب الإيجاب في حديثه، ولكن قد نخالفه في جانب السلب، حيث قد يفهم من الآية الكريمة الإشارة إلى أنَّ هذا الوعد الإلهي يتضمن عدة أمور، وهي تتم على مراحل آخرها التوحيد المطلق، وهو أمر لم يتحقق حتى الآن، وبذلك يمكن الاستدلال بها على الإمامة، فراجع الميزان في تفسير الميزان ١٥: ١٥٠. منه قدس سره.

الله الصالحين: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[١].

العنصر الخامس: الآيات الكريمة التي تشير إلى أنَّ الهدف من الرسالة الخاتمة هو ظهور الدين الإسلامي على جميع الأديان، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[٢]، أو أن يكون الدين كله لله تعالى، فقد ورد ذلك في موضعين: قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾[٤]، فإن هذه الآيات الكريمة تشير إلى هذا الهدف الإلهي للرسالة الإسلاميَّة.

ولاشك أنَّ الرسالة الإسلامية لم تحقق هذا الهدف في زمن الرسول ﷺ، فلابد من فرض وجود إمامة تقود الأُمة لتحقيق هذا الهدف وتقاتل من أجله، بل يمكن أن يقال: إنّ هذا الهدف الإلهي لم يتحقق حتى الآن، إذا أريد منه الظهور المطلق للرسالة الإسلامية على جميع الأديان والمعتقدات الأخرى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾، حيث تكون بهذا المضمون قرينة من مضمون قوله تعالى: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[٥].

العنصر السادس: الآيات الكريمة التي أشارت إلى أنَّ من أهداف إرسال الأنبياء والرسل إيجاد القدوة بين الناس، كقوله تعالى ـ بعد ذكر جماعة من الرسل: إبراهيم وذريته، ومن قبله نوح عليه السلام ـ: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) التوبة: ٣٣.

(٣) البقرة: ١٩٣.

(٤) الأنفال: ٣٩.

(٥) النور: ٥٥.

فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾[١].

وما ورد من قوله تعالى ـ بعد ذكر مجموعة من الأنبياء ـ: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٣]، وما ورد من الأمر بالإقتداء والتأسّي بإبراهيم عليه السلام في سورة الممتحنة[٤]، ومن التأسّي برسول الله صلى الله عليه وآله في سورة الأحزاب[٥].

فإنَّ جميع هذه الآيات الكريمة تدلُّ على أنَّ هؤلاء الأنبياء وضعوا قدوة للبشرية، لا سيَّما وأنَّ موضوع القدوة في آيات سورة الأنعام وردت في سياق ذكر مسؤوليات الأنبياء المهمَّة: ﴿ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ ولما كانت القدوة لا تتجسد بصورتها الكاملة فيما يحصيه التأريخ ـ فإن التأريخ مهما كان مستوعباً للأحداث والوقائع، فلا يمكنه أن يستوعب كل أطراف حياة الإنسان، وإنّما يستوعب منها جانباً محدوداً، مضافاً إلى أنَّ حركة الإنسان متجددة والأمثلة التي تحتاج إلى القدوة فيها متجددة أيضاً ومتحركة ـ كان من الضروري استمرار الإمامة لتجسد القدوة في الأخلاق الإلهية، عندما تتجسد في الإنسان الرباني وهو الإمام[٦].

---

(١) الأنعام: ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) الأنبياء: ٧٣.

(٣) السجدة: ٢٤.

(٤) قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ الممتحنة: ٤ ـ ٦.

(٥) قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب: ٢١.

(٦) قد يثار إشكال حول هذا الدليل من ناحية تطبيقه على الإمام المهدي الغائب عن الأنظار، فيقال: إنّه مع غيبته لا يمكن تحقق هذا الهدف من وجوده.

ويؤكد هذا المفهوم ما ورد في القرآن الكريم من الحديث عن وصف عباد الرحمن ودعائهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[١] حيث أعطيت القدوة عنوان الإمام، وجاء في تفسير ذلك على نحو التأويل تطبيقه على الأئمة عليهم السلام.

فلابد للإمامة أن تكون باقية ومستمرة في هذا المجال إلى أن تتكامل حالة المجتمع الإنساني الصالح، ويتحول إلى مجتمع القدوة، وهذا إنَّما يتحقق إذا تحقق ذلك الهدف الكبير في ملء الأرض قسطاً وعدلاً، بل قد تستمر الحاجة إلى ذلك في دور (الرجعة) أيضاً، والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك.

العنصر السابع: الآيات الكريمة التي تحدثت عن أنَّ الغاية والهدف من إرسال الأنبياء والرسل هو حل الاختلاف بين الناس، وهي آيات عديدة، أشرنا إلى بعضها في عرض النظرية:

منها: قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[٢]، وما دام الاختلاف قائماً فلا شك بضرورة استمرار النبوة في الإمامة، ليتحقق هذا الهدف الإلهي، وهذا هو ما تشير إليه آيات قرن طاعة الرسول بطاعة الله تعالى، وكذلك آيات قرن طاعة أُولي الأمر بطاعة الله والرسول، ولا سيما في مورد

والجواب عن ذلك:

أولاً: إنَّ الغَيبة حالة استثنائية مرتبطة بظروفها، فهي من قبيل أن يتعرض النبي أو الإمام للسجن أو الحصار، بحيث يحجب عن الناس الانتفاع والاقتداء أو التأسي به بصورة عامة.

ثانياً: سوف نشير ـ في محله إنْ شاء الله ـ إلى أنَّ الإمام المهدي يمكن أن نفترض لوجوده آثاراً على مستوى القدوة، كما تشير إلى ذلك بعض النصوص والحوادث. منه رحمه الله.

(١) الفرقان: ٧٤.

(٢) البقرة: ٢١٣.

الاختلاف والنزاع، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[١].

فإن في هذه الآيات الكريمة إرشاداً وإشارة إلى أنَّ حلّ الاختلافات على مستوى التطبيق الاجتماعي إنَّما يمكن أن يتحقق كهدف أعلى وأسمى للإنسانية من خلال استمرار النبوة في ولاية الأمر بعد النبي، وهو دور من أدوار الإمامة.

ويؤكد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من وضع الولاء والولاية للمؤمنين (الخاصين) في صراط الولاء والولاية لله تعالى وللرسول، وكطريق لتحقيق التكامل والنضج في حركة المجتمع الإنساني، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[٢].

وبذلك يمكن أن نتبين معالم هذه النظرية في ضرورة الإمامة في القرآن الكريم وآياته.

الخط الثالث: الاستدلال بروايات جمهور المسلمين

ملاحظات حول روايات الجمهور

قبل الدخول في عرض الروايات والاستدلال بها يحسن الإشارة إلى بعض الملاحظات:

الملاحظة الأولى: لم يرد ـ بصورة واضحة وصريحة ـ في روايات الجمهور تأكيد (وجوب وضرورة الإمامة) مع أنَّ ذلك ورد بصورة مؤكدة وكثيرة في روايات أهل البيت عليهم السلام، ولكن بالرغم من ذلك نجد أنَّ هناك عشرات الروايات ـ إن لم نقل

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

المثات - الواردة بطرق الجمهور يفهم منها هذه الضرورة، ولكن بصورة غير صريحة، الأمر الذي قد يُفَسر بوجود عملية تزوير وتحريف للكثير من هذه النصوص، ولاسيما أنَّ بعض النصوص التي وردت من طرق الخاصة تؤكد على وجود هذه النصوص الواضحة وسط الجمهور في عصر الأئمة عليهم السلام، وكأنَّ هذا التزوير تم في فترة متأخرة، لأغراض سياسية ومذهبية من أجل أن لا يظهر عنوان الإمامة بصورة واضحة في روايات الجمهور، كما سوف أشير إلى بعض معالم هذا التزوير.

الملاحظة الثانية: سنتبع في الاستدلال بروايات الجمهور الطرق العلمية والضوابط الأصولية التي يستخدمها علماء المسلمين وجمهورهم، والمدونة - عادة - في علم الأصول، وهي ضوابط مشتركة في الكثير من مفرداتها، ومن ثمَّ يمكن الوصول إلى النتيجة على طبق هذه الضوابط العلمية من تلك الروايات، حتى لو كنا نختلف معهم - أحياناً - في بعض مصاديق هذه الضوابط.

الملاحظة الثالثة: سنستدل بالروايات المروية في كتب الجمهور عن طريق تأكيد النقاط الثلاثة - التي أشرنا إليها - في ضرورة الإمامة، وهي:

الأولى: لا يمكن حلّ الاختلاف على مستوى العبادة إلا بالإمامة، لبقاء الاختلاف على هذا المستوى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

الثانية: لا يمكن حلّ الاختلاف على مستوى التأويل والتفسير وفهم الشرع والحكم الشرعي إلا عن طريق الإمامة.

الثالثة: انحصار إدارة الحكم الإسلامي لتحقيق الهدف العام للرسالات الإلهية في الحكم الإسلامي بالإمامة، والرسالة الإسلامية رسالة خاتمة، فلابد أن يتحقق فيها الهدف العام، وهو إقامة الحكم الإسلامي وتطبيقه على الناس تطبيقاً كاملاً، والارتقاء بتكامل الأُمة بحيث يصدق على ذلك قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1].

---

(١) النور: ٥٥.

فهذه النقاط الثلاثة هي التي يراد الاستدلال عليها والتي إن ثبتت تثبت ضرورة الإمامة، مع قطع النظر عن بعض التفاصيل الموجودة في كل رواية، التي قد تقع موضع الشك والريب، ولكن أصل المضمون العام المراد استنباطه يمكن القول عنه أنَّه متواتر في روايات الجمهور، أي: أنَّ هذه الأمور الثلاثة متواترة مضموناً في روايات الجمهور.

الملاحظة الرابعة: سنكتفي بذكر بعض الأمثلة والنماذج لهذه الروايات، ونحيل معرفة الباقي منها إلى كتب الحديث المعروفة، ولاسيما جوامع الحديث لدى الجمهور، مثل كنز العمال للمتقي الهندي، ونشير إلى بعض المصادر الأخرى والأبواب الفقهية والحديثية ذات العلاقة.

وجوه الاستدلال

ويمكن الاستدلال بالروايات على ضرورة الإمامة بعدة وجوه:

الوجه الأول: النص على ضرورة الإمامة

الاستدلال بعدد كبير من الروايات الدالة على ضرورة الإمامة ـ وإن لم تكن بهذه الصراحة ـ وهي بالعشرات، بل بالمئات، وبذلك يمكن دعوى تواترها وحصول العلم بصدور بعضها بصورة إجمالية، ويؤكد ذلك ورود العديد منها في الكتب المعروفة لديهم بالصحاح.

ويمكن تقسيم هذه الروايات إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: الروايات التي تفترض أنَّ وجود الإمامة أو الإمارة أو الخلافة[1] بعد رسول الله ﷺ واستمرار الحكم أمراً ضرورياً ومفروغاً عنه، ولذا

---

(١) تعبيرات متعددة تستخدمها هذه الروايات، فأحياناً تستخدم عنوان (إمام)، وأحياناً عنوان (خليفة)، وأحياناً عنوان (أمير)، وأحياناً عنوان (سلطان)، وهذه العناوين الأربعة تقريباً هي العناوين التي تمثل محور هذه الروايات والتي مؤادها ضرورة

تُرتب عليها أحكاماً خاصة، ومن تلك الروايات ما يقسِّم الأئمة إلى نوعين: أئمة عدل، وأئمة جور، أو الامراء إلى أمراء عدل وأمراء جور، أو الروايات التي تتحدث عن صفات الحاكم وما ينبغي أن يتصف به من الصفات، إلى غير ذلك من الروايات التي تفترض أنَّ وجود أصل الإمامة أمر مفروغ عنه، ولكن تحاول أن ترتب على ذلك أموراً أُخرى، وهذه الطائفة رواياتها بالمئات، وموجودة تحت عناوين متعددة في كتاب البيعة، وفي كتاب الإمارة والقضاء من مجامع الحديث.

الطائفة الثانية: روايات البيعة التي تتحدث عن وجوب البيعة وضرورتها[١] مثل ما روي من قوله صلى الله عليه وآله: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[٢] وهذا يدل على ضرورة الإمام بالملازمة، ولذا تجب بيعته، ولكن يتم تأكيدها دون ذكرها صراحة، إذ لا يمكن تحقق البيعة بدون إمامة.

الطائفة الثالثة: الروايات التي تذكر ضرورة وجود (السلطان) و (الأمير) و(الخليفة) بعناوين متعددة، وهي ضرورة ترتبط بحياة الناس ومعاشهم، من قبيل

وجود الحاكم الإسلامي.

وفي هذا المجال يوجد بحث نظري، وهو: هل الإمامة تعني مجرد الحكم والولاية، كما قد يفهم ذلك من بعض آراء علماء الجمهور عندما يعرفونها بأنّها رئاسة في أمور الدنيا، أو يعبرون عنها بالإمارة والقضاء، أو أنّها تعني معنى أوسع من ذلك، كما يفهم ذلك من القرآن الكريم، وبعض روايات الجمهور، وروايات أهل البيت عليهم السلام، ويلتزم به علماء الخاصة، وتكون الولاية والإمارة إحدى مهمات هذه الإمامة؟

وقد يكون من المستحسن عرض هذا الجانب من البحث في مدخل بحث النظرية. منه رحمه الله.

(١) يلاحظ هنا وجود فارق بين روايات أهل البيت عليهم السلام التي تتحدث عن ضرورة وجود الإمام ومعرفته: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» وبين هذه الروايات التي تغيّر العنوان فيها ولم تذكر عنوان الإمام ولا تذكر عنوان المعرفة، وإنّما تذكر عنوان البيعة، وإن كانت الرواية بالنص المذكور في روايات أهل البيت عليهم السلام قد وردت ـ أيضاً ـ في بعض طرق الجمهور. منه رحمه الله.

(٢) صحيح مسلم٦: ٢٢، وهي روايات كثيرة كما يعرف ذلك من مراجعة كنز العمال٦: ٤٩ ـ ٦٦، أحكام الإمارة وآدابها.

ما ورد في عدة نصوص من ارتباط نظام الناس وحياتهم ومعاشهم بالإمامة والخلافة، وهذا ما يذكره بعض فقهائنا عندما يتحدثون عن ولاية الفقيه، فيذكرون أنَّ وجود أصل النظام يمثل ضرورة من ضرورات العقل ولا يمكن تجاهلها، ومن ثم فلابد أن يكون هناك حاكم لحفظ النظام، وإذا كان من الضروري وجود حاكم فلابد أن يكون فقيهاً، وبهذا المضمون توجد عدة روايات:

منها: قوله ﷺ: «السلطان ظلُّ الله في الأرض يأوي إليه الضعيفُ، وبه يُنصرُ المظلوم»[1]، وضرورة وجود مأوى للضعيف ونصرة المظلوم من المسلّمات الإسلامية الدينية والإنسانية، فيربط وجود هذا المنصب بهذه الضرورة الإسلامية أو الضرورة الإنسانية حسب اختلاف الفهم لها[2].

ومنها: قوله ﷺ: «السلطان ظلُّ الله في الأرض، فإذا دخل أحدكم بلداً ليس فيه سلطانٌ فلا يقيمنَّ به»[3]، فهذه الرواية تربط حياة الإنسان واستقراره بوجود السلطان.

ومنها: قوله ﷺ: «الإسلامُ والسلطانُ أخوان توْأمان لا يَصلُح واحدٌ منهما إلا بصاحبه، فالإسلام أُسّ والسلطانُ حارثٌ، وما لا أُس لهُ يُهدَمُ، وما لا حارثَ له ضائع»[4].

ولعل هذه الرواية هي أصرح وأوضح رواية تذكر ضرورة الإمامة بمعنى

(١) كنز العمال ٦: ٥، ح١٤٥٨٢.

(٢) بعض المعتزلة والعدلية وعموم الإمامية وغيرهم الذين يؤمنون بقضية الحسن والقبح العقليين ينتهون إلى قبول هذه المضامين (الإنسانية) عقلاً، لذا نعبّر عن القضية الإنسانية العقلية بحسن نصرة المظلوم ووجوب إيواء الضعيف، أما الأشاعرة فإنهم لا يؤمنون بالحسن والقبح العقليين، ولذا يقال عنها ـ المضامين الإنسانية ـ إسلامية باعتبار وجود نصوص شرعية قرآنية تدل على وجوب نصرة المظلوم ووجوب إيواء الضعيف. منه ﷺ.

(٣) كنز العمال ٦: ٥، ح١٤٥٨٤.

(٤) كنز العمال ٦: ١٠، ح١٤٦١٣.

الحاكم في روايات الجمهور، ولكنَّها جاءت في الدرجة الثانية من رواياتهم، وتحت عنوان (السلطان)[١].

إذن، لدينا طوائف ثلاثة تؤكد بمجموعها ضرورة وجود الإمامة، ولو من ناحية ضرورة وجود الحكم الإسلامي، وهي النقطة الثالثة التي ذكرناها لضرورة الإمامة في النظرية.

الوجه الثاني: التطابق ظاهرة تأريخية

الإستدلال بالروايات التي دلت على أنَّ ما يجري في هذه الأُمة يتطابق مع ما جرى في الأمم السابقة، مضافاً إلى روايات تذكر أنَّ من جملة ما جرى في الأمم السابقة هو وجود خليفة لكل نبّي.

فإذا جمعنا بين هاتين المجموعتين تكون النتيجة: لابد أن يكون هناك خليفة لنبينا صلى الله عليه وآله.

ونذكر مثالاً لكل من المجموعتين ليتحقق التطابق مع ما جرى في الأمم السابقة.

مثال المجموعة الأولى: عن أبي سعيد عن النبّي صلى الله عليه وآله قال: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لا تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ !»[٢] وفي رواية: لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً، فقيل: يا رسول الله كفارس والروم؟ قال: ومن الناس إلاّ أولئك؟ !»[٣]، يعني: من هم الناس إلا هذه

---

(١) سوف نشير قريباً إلى احتمال أن يكون هذا العنوان قد تم تحريفه عن عنوان الإمام. منه رحمه الله.

(٢) صحيح مسلم٨: ٥٧.

(٣) صحيح البخاري٨: ١٥١. في النص الأول طبق السائل عنوان «من قبلكم» على الأمم المختلفة دينياً، وفي النص الثاني طبق على الأمم المختلفة قومياً.

الأقوام.

مثال المجموعة الثانية: وهي روايات عديدة مروية في صحاحهم:

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فتكثر، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فُوا ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم، فإنَّ الله سائلهم عما استرعاهم»[١].

فإن من الواضح من سياق هذه الرواية تطبيق السنّة السابقة على هذه الأُمة.

وفي رواية أُخرى عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إنَّ الله لم يبعث نبياً إلا وله حواريون فيمكث بين أظهرهم ما شاء الله يعمل فيهم بكتاب الله وسنة نبيه، فإذا انقرضوا كان من بعدهم أمراء يركبون رؤوس المنابر يقولون ما تعرفون ويعملون

---

(١) صحيح مسلم٦: ١٧. صحيح البخاري٤: ١٤٤.

نستدل بهذه الروايات مع قطع النظر عن الفقرة الأخيرة فيها «أعطوهم حقهم. ..»، حيث يوجد هنا بحث من الأبحاث الحديثية المهمة جداً المطروحة في كتب الجمهور، إذ توجد طائفة كبيرة من الروايات تحاول أن تقول: سلّموا لهؤلاء الحكام تسليماً مطلقاً، حتى أنَّ بعضها يصل بها الحال إلى القول فيه بوجوب التسليم سواء: «كان براً أو فاجراً حتى لو ظلموكم».. الخ.

وطائفة أخرى كبيرة من الروايات كما في الرواية التالية عن ابن مسعود تقول بما مضمونه: (أنّه لا تسلّموا لهم، ولا تتعاونوا معهم ولا تطيعوهم ولا تقبلوهم بل جاهدوهم. .. إذا كانوا عصاة وظالمين).

وبموازين علم الأصول وضوابطه، لابد من تقديم الطائفة الثانية من الروايات على الطائفة الأولى منها في مدلول هذه الفقرة، وهذا التقديم: إما أن يكون عن طريق الجمع بينها، عندما يكون الجمع ممكناً، وذلك بتفسير الطائفة الأولى بالطائفة الثانية، بحيث نفسر الأمر بالطاعة هنا كما في مثل هذه الرواية، لمن يكون عادلاً، أي لمن يكون مطيعاً لله تعالى، ولمن يكون منصوباً من قبل الله سبحانه وتعالى، كما تشير الطائفة الثانية إلى ذلك، فتفسر هذه الروايات بتلك الروايات.

أو أن تقدم الطائفة الثانية على الطائفة الأولى، فتطرح الطائفة الأولى، لأن الطائفة الثانية موافقة للقرآن الكريم، والطائفة الأولى مخالفه له، حيث تُقدم الموافقة للقرآن الكريم على المخالفة له، وهذا بحث له موضع آخر. منه ﷺ.

ما تنكرون، فإذا رأيتم أولئك فحقّ على كل مؤمن أن يجاهدهم بيده، فإنْ لم يستطع بلسانه فبقلبه ليسَ وراءَ ذلك إسلام»[١].

وهذه الرواية ـ كسابقتها ـ تشير إلى السنّة العامة، ثمَّ تطبقها على هذه الأُمة، وتؤكد على تطابق ما يجري في أمتنا مع ما جرى في الأمم السابقة، فيثبت ضرورة وجود الخلافة للنبوة الخاتمة.

الوجه الثالث: الاختلاف في العبادة

الروايات التي تدل على تحقق الاختلاف بعد رسول الله ﷺ على (العبادة)، وأنَّ هذا الاختلاف أمر حتمي، وهي عديدة:

١ ـ ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[٢].

وزاد في رواية: «ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة»[٣].

وزاد أبو داود في رواية: «وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله»[٤].

٢ ـ ما رواه حذيفة بن اليمان ـ وهذه الرواية أوضح رواية مروية في صحاحهم ـ قلت: «يا رسول الله إنا كنا بشر (أي في الجاهلية) فجاء الله بخير (وهو الإسلام) فنحن فيه فهل من وراء ذلك الخير شر؟ (أي هل وراء هذا الخير الذي جاء به الإسلام شر كذاك الشر الذي كنا فيه) قال:

---

(١) كنز العمال ٦: ٧٣، ح١٤٨٩٦. تأريخ مدينة دمشق٩: ٣٠. رياض الصالحين: ١٤٩ مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٢) سنن أبي داود٢: ٣٩٠، ح٤٥٩٦. سنن الترمذي٤: ١٣٤ باختلاف يسير في الالفاظ.

(٣) سنن أبي داود٢: ٣٩٠.

(٤) سنن أبي داود٢: ٣٩٠.

نعم. قلت هل وراء ذلك الشر خير؟ قال: نعم، قلت: فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال: نعم. قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنّون بسنّتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس.. »[١]. وهذه الرواية من الروايات الصحيحة التي تفسر الكثير من الروايات السابقة التي أشرنا إليها[٢].

ومع قطع النظر عن التفاصيل، فإن المقصود هنا هو التأكيد أنّ هذا الشر ـ كما

(١) صحيح مسلم٦: ٢١.

(٢) يلاحظ في هذه الرواية استخدام كلمة (أئمة) ، ولكن تختفي هذه الكلمة بعد ذلك من الروايات الأخرى، وتستخدم كلمة (خليفة) ، ثم تمسح هذه الكلمة من بعض الروايات الأخرى وتستخدم كلمة (أمير) ، ثم تمسح من بعض الروايات الأخرى، فتستخدم كلمة (سلطان) ، وهذا يدل على حالة تطور في وضع التحريف والتزوير، حيث يمكن أن نفترض في البداية أنّ الشيء الذي كان مطروحاً من قبل النبي ﷺ وفي رواياته ـ كما هو مطروح في القرآن الكريم ـ هو عنوان (الإمامة) ، حيث ورد هذا العنوان في عدة آيات كريمة، لإفادة المسؤولية العظمى التي تتجسد بمرحلة التكامل، بحيث يصبح الإنسان قدوة يهتدى به، ومنها الآية التي تحدثت عن إبراهيم عليه السلام وجعله إماماً: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تتحدث عن عنوان الإمامة.

وبعد ذلك طرح عنوان الخليفة، ثم نسخ عنوان الخليفة، حيث كان يلقب أبو بكر في البداية بخليفة رسول الله ، ولا يوجد عنوان آخر له، لا عنوان إمام ولا عنوان أمير ولا عنوان سلطان، وإنّما يقال: (خليفة رسول الله) ، ثم نسخ هذا العنوان فبدل بعنوان (أمير المؤمنين) ، ثم أصبح هذا العنوان هو العنوان الذي يطلق على الخلفاء، ثم بعد ذلك وفي العهود المتأخرة عندما تمزقت الخلافة وتوزعت، وأصبحت ظاهرة السلاطين هي الظاهرة العامة، أصبح عنوان السلطان هو العنوان الذي طغى على هذه الروايات.

فمن المحتمل أنّ الروايات التي أشرنا إليها في البداية «السلطان ظل الله»، حُرفت متأخرة، وقد تكون في البداية عنوانها هو «الإمام ظل الله»، أو «الخليفة ظل الله»، وبعد ذلك بدّل عنوان الإمام بالسلطان وهكذا، فهذه طريقة تبديل وتحريف تعرضت لها بعض الروايات، حيث يؤخذ نفس المضمون الموجود في النصوص الشرعية مع تغييرات تتناسب مع الحالة التي يعيشها الحكم والمجتمع الإسلامي في ذلك الوقت. منه ﷺ.

يعبّر عنه حذيفة ـ هو أمر يأتي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في مراحل عديدة وليس في مرحلة واحدة.

الوصف الرابع: الاختلاف في التأويل

الروايات التي تؤكد وقوع الاختلاف بعد رسول الله صلى الله عليه وآله على مستوى التأويل والتفسير، من قبيل ما ورد عن أبي هريرة: أنَّ رسول صلى الله عليه وآله أتى مقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، إنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ (أي نحن معك أحياء ترانا ونحن مؤمنون، والمؤمنون إخوة، فلماذا يقول: وددت أنا قد رأينا إخواننا) قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد. فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟! فقال: أرأيت لو أنَّ رجلاً له خيل غرٌّ محجَّلة بين ظهري خيل دهم بهم ألا يعرف خيله؟! (أي إذا كان لديه خيل فيها علامة وهي أنَّها محجَّلة، ثم داهمته خيل أُخرى، فلو اختلطت هذه الخيل مع غيرها فسوف يعرفها، لأنها خيله قد عرفها بعلامتها)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون غرّاً محجَّلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض. ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم: ألا هَلُمَّ (أي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله التفت إلى أصحابه ـ بعد توضيح معرفته بإخوانه ـ فحذرهم من الانقلاب على الأعقاب والتبديل بعده، حيث يدعوهم إلى الشرب على الحوض، لأنهم أصحابه قد عرفهم في دار الدنيا) فيقال: إنَّهم قد بدَّلوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً»[1].

وهذه الرواية تشير إلى وجود الاختلاف بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في التأويل حتى على مستوى أصحابه، فضلاً عن الأجيال الأخرى من المسلمين، فتؤكد الرواية أنَّ الرسول يدعو أصحابه إلى الحوض، ولكن الملائكة يذودونهم عنه، ويخبرونه بأنَّهم قد بدلوا بعدك، لأنهم قد فسروا الإسلام وأولوه بآرائهم، أو تركوا الالتزام بسنة

---

(١) صحيح مسلم ١: ١٥٠. مسند أحمد ٢: ٣٠٠.

رسول الله ﷺ، فيتبرأ منهم رسول الله ﷺ حينذاك ويقول: «سحقاً سحقاً».

ورواية أُخرى عن عرفجة، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنَّه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأُمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان»[١]، ومحل الشاهد فيها قوله ﷺ: «إنَّه ستكون هنات وهنات» بحيث تفرّق أمر الأُمة.

وعن ابن عمر ـ أيضاً ـ عن النبي ﷺ قال: «القدرية مجوس هذه الأُمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[٢].

وروايات أُخرى ـ أيضاً ـ بهذا المضمون عديدة تدل على وجود هذا الاختلاف.

ويدل على ذلك ـ أيضاً ـ روايات افتراق الأُمة إلى ثنتين أو ثلاث وسبعين فرقة التي مضت الإشارة إليها.

إذن، عندما نلاحظ هذه الروايات بجميع طوائفها يمكن أن نصل إلى:

أولاً: إنَّ هناك ما يدل على ضرورة الإمامة، بمعنى الحكم بصورة خاصة.

ثانياً: إنَّ هناك اختلافاً سيكون بعد النبي ﷺ على مستوى العبادة والتأويل، فلابد من وجود الإمامة لحل هذا الاختلاف.

إذن، فالروايات المروية من طرق الجمهور تؤيد نظرية ضرورة الإمامة، لوجود أسباب هذه الضرورة.

الخط الرابع: الاستدلال بروايات أهل البيت عليهم السلام

إنَّ روايات أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال أكثر وضوحاً، كما هي أكثر عدداً. وهذا الفرق من الأمور المهمة التي تعبّر عن دور أهل البيت عليهم السلام في حفظ القرآن والسنة، فمن خلال المقارنة في مثل هذه الأمور يتبين الدور الخاص المتميز لأهل البيت عليهم السلام، فهم عليهم السلام بالرغم من قمعهم ومنعهم من نشر علومهم بصورة

(١) صحيح مسلم٦: ٢٢. السنن الكبرى٨: ١٦٨.
(٢) سنن أبي داود٢: ٤١٠. السنن الكبرى١٠: ٢٠٣.

طبيعية، نجد الفارق الكبير بين ما ورد عنهم عليهم السلام في مثل هذه الموضوعات الحساسة، قياساً بما ورد عن غيرهم، من حيث الكم والكيف.

وجوه الاستدلال

يمكن تقسيم روايات أهل البيت عليهم السلام بهذا الصدد إلى طوائف خمسة تدل كل منها على ضرورة الإمامة، وتكون كل واحدة منها وجهاً من وجوه الاستدلال(١):

الطائفة الأولى: الروايات الصريحة

الروايات التي دلت على وجوب الإمامة وضرورتها بصورة صريحة وواضحة، وهذا ما لم نجد منه ولا رواية واحدة من روايات أهل السّنة والجمهور، وإنّما استنبطنا هذه الضرورة منها.

نعم، كانت هناك رواية هي أفضل تلك الروايات دلالة على ذلك، ولكن العنوان فيها هو (السلطان) وليس (الإمامة).

أما في روايات أهل البيت عليهم السلام، فنجد أمامنا روايات عديدة قد تصل في تعدادها إلى حد التواتر أو التظافر تدل على ذلك، منها:

الرواية الأولى: رواية يونس بن عبد الرحمن، عن يونس بن يعقوب ـ وهي طويلة ـ حيث ورد أنّه قال: «كان عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام جماعة من أصحابه فيهم حمران بن أعين، ومؤمن الطاق، وهشام بن سالم، والطيار وجماعة من أصحابه فيهم هشام بن الحكم وهو شاب، فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا هشام، قال: لبيك، يا

---

(١) وقد نجد طوائف أُخرى بالبحث والتأمل، ولكن اختصاراً للوقت والحديث نقتصر على هذه الطوائف الخمسة، كما سأكتفي في كل طائفة بذكر أمثلة منها، وإلاّ فإن بعض هذه الطوائف وردت فيها روايات بعدد يمكن أن نقول: إنّها متواترة، ويمكن متابعة التفاصيل بعد ذلك في الكتب الموسعة. منه قدس سره.

بن رسول الله، قال: ألا تحدثني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته، قال هشام: جعلت فداك يا بن رسول الله، إني أجلّك وأستحييك(١)، ولا يعمل لساني بين يديك. فقال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أمرتكم بشيء فافعلوه.

قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة، وعظم ذلك عليَّ، فخرجت إليه ودخلت البصرة في يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة، فإذا أنا بحَلقة كبيرة وإذا أنا بعمرو بن عبيد عليه شَمْلة سوداء متّزر بها من صوف، وشَمْلة مُرْتَدٍ بها، والناس يسألونه، فأستَفْرَجت الناس فأفرجوا لي، ثم قعدتُ في آخر القوم على رُكبتي، ثمّ قلت: أيّها العالم، أنا رجلٌ غريبٌ، تأذن لي فأسألك عن مسألة؟ قال: فقال نعم. قال: قلتُ له: ألك عين؟ قال: يا بني أي شيء هذا من السؤال؟ فقلت: هكذا مسألتي، فقال: يا بُنيّ سَل وإن كانت مسألتك حمقاء، فقلتُ: أجبني فيها، قال لي: سل، فقلت: ألك عين؟ قال: نعم. قال: قلت: فما ترى بها؟ قال: الألوان والأشخاص.

قال: قلت: ألك أنف؟ قال: نعم قال: قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الرائحة.

قال: قلت: ألك فم؟ قال: نعم. قلت: ما تصنع به؟ قال: أعرف به طعم الأشياء.

قال: قلت: ألك لسان؟ قال: نعم قلت: وما تصنع به؟ قال: أتكلم به.

قال: قلت: ألك أُذن؟ قال: نعم. قلت: وما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الأصوات.

قال: قلت: ألك يد؟ قال: نعم. قلت: وما تصنع بها؟ قال: أبطش بها.

---

(١) يعني كان يخجل أن يتحدث عما صنعه في هذا الشخص المعروف بالقدس والعبادة بين الناس وكان ـ أيضاً ـ من العلماء في أواخر الأمويين وأوائل أيام العباسيين. منه رحمه الله.

قال: قلت: ألك قلب؟ قال: نعم قلت: وما تصنع به. قال: أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح[١].

قال: قلت: أفليس في هذه الجوارح غِنىً عن القلب؟ قال: لا، قلت: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة؟ قال: يا بني، إنَّ الجوارح إذا شَكَّت في شيء شَمَّته أو رأته أو ذاقته أو سمعته أو لمسته ردته إلى القلب فيُيقّن اليقين ويُبطل الشكّ.

قال: فقلت: إنَّما أقام الله القلب لشكّ الجوارح؟ قال: نعم. قال: قلتُ: فلابد من القلب، وإلا لم تستقم الجوارح؟ قال: نعم. قال: فقلت: يا أبا مروان، إنَّ الله تعالى ذكره لم يَتْرُكْ جوارحك حتى جعل لها اماماً، يصحح لها الصحيح ويقن ما تشك فيه ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكّهم واختلافهم لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكّك؟ ! قال: فسكت ولم يقل شيئاً.

قال: ثمّ التفت إليّ فقال: أنت هشام؟ فقلت: لا. فقال: لي: أجالسته؟ فقلتُ: لا.

قال: فمن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة. قال: فأنت إذن هو. قال: ثمَّ ضَمّني إليه وأقعدني في مجلسه، وما نَطَق حتّى قُمت، فضحِك أبو عبد الله عليه السلام ثم قال: يا هشام من علّمك هذا؟ قال فقلت: يا ابن رسول الله جرى على لساني، قال: يا هشام، هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى»[٢].

الرواية الثانية: عن الحسين بن أبي العلا، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: تترك الأرض بغير إمام؟ قال: لا، فقلنا له: تكون الأرض وفيها إمامان؟ قال: لا، إلاّ

(١) يبدو أنَّ هشام بن الحكم استخدم بالإضافة إلى الدليل العقلي الأسلوب النفسي في التأثير على هذا الإنسان. منه ﷺ.

(٢) أمالي الصدوق: ٦٨٥، ح٩٤٢. الكافي ١: ١٦٩، ح ٣.

ومن الملاحظ في هذا الاستدلال أنّه عقلي، حاول هشام أن يوضح فيه الحقيقة لعمرو بن عبيد، والرواية تدل عل صحة الاستدلال العقلي، عندما نسبه إلى صحف إبراهيم وموسى. منه ﷺ.

إمام صامت لا يتكلم، ويتكلم الّذي قبله»[١].

الرواية الثالثة: عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمعته يقول: إنَّ الأرض لا تخلو إلا وفيها إمام، كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردّهم، وإن نقصوا شيئاً أتمّه لهم»[٢].

الرواية الرابعة: عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ الله لا يدع الأرض إلاّ وفيها عالم يعلم الزيادة والنقصان، فإذا زاد المؤمنون شيئاً ردَّهم، وإذا نقصوا أكمله لهم فقال: خذوه كاملاً، ولو لا ذلك لالتبس على المؤمنين أمرهم، ولم يفرق بين الحق والباطل»[٣].

الرواية الخامسة: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما زالت الأرض إلاّ ولله فيها حجة يعرف الحلال والحرام، ويدعو الناس إلى سبيل الله»[٤].

ورواية أُخرى بهذا المضمون، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قلت له: تبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لا»[٥].

وفي هذا الموضوع روايات ونصوص كثيرة جداً[٦].

الطائفة الثانية: وجوب معرفة إمام الزمان

الروايات التي وردت في وجوب معرفة الإنسان إمام زمانه، ويترتب على ذلك استنتاج ضرورة أن يكون الإمام موجوداً حتى يمكن للإنسان أن يعرفه.

---

(١) بصائر الدرجات: ٦٠٥، ح١١.

(٢) الكافي ١: ١٧٨، ح٢.

(٣) علل الشرائع ١: ١٩٥، ح ٤، وبنفس المضمون وباختلاف يسير في الكافي ١: ١٧٨، ح٥.

(٤) الكافي ١: ١٧٨، ح٣. بحار الأنوار ٢٣: ٥٦، ح١١٨.

(٥) الكافي ١: ١٧٨، ح٤. بحار الأنوار ٢٣: ٥٥، ح١١٧.

(٦) من رام التوسع فليراجع بحار الأنوار ٢٣: ١ ـ ٥٦، باب الاضطرار إلى الحجة، وعلل الشرائع ١: ١٩٥ ـ ٢٠١، وإثبات الهداة ١: ٧٢ ـ ١٤٤، الباب السادس، في النصوص على وجوب النبوة والإمامة وغيرها من الكتب الموسعة في هذا المجال.

ومن جملة هذه الروايات قوله صلى الله عليه وآله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» فقد وردت هذه الرواية في طرق أهل البيت عليهم السلام كثيراً وبصور مختلفة ومكررة(١).

ونذكر بعض الأمثلة لهذه النصوص ـ وإن كانت كثيرة ـ للإستئناس بحديثهم عليهم السلام:

الرواية الأولى: عن فضيل بن يسار قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: من مات وليس له إمام فميتته ميتة جاهليّة، ومن مات وهو عارف لإمامه لم يضرّه تقدّم هذا الأمر أو تأخّر، ومن مات وهو عارف لإمامه كان كمن هو مع القائم في فسطاطه»(٢).

الرواية الثانية: عن الفضيل بن يسار ـ أيضاً ـ قال: «ابتدأنا أبو عبد الله عليه السلام

---

(١) بحار الأنوار٢٣: ٧٦ ـ ٩٥، باب وجوب معرفة الإمام، وقال في صفحة ٩٤ ما لفظه: «روى كثير منهم ـ أي علماء الجمهور ـ أنّه صلى الله عليه وآله قال: من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

ولكن لم ترد هذه الرواية عن طرق الجمهور إلا في مسند أحمد بن حنبل، وذكرها بعضهم، ثم حذفت بعد ذلك منه في بعض الطبعات الأخرى، وهذا من الأساليب التي تستخدم في تزوير الحقائق في العصر الحديث، وقد ذكرها أيضاً صاحب مجمع الزوائد الذي هو من كتب الأحاديث الجامعة المتأخرة لأهل السنة، وكذلك ذكرت في كنز العمال. وجاء في صحيح مسلم٦: ٢٢ أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»، وأكثر الروايات بهذا الصدد ـ كما ذكرنا في حديثنا السابق ـ جاءت بعنوان: «من مات وليس في عنقه بيعة ـ إما لإمام أو بصورة عامة ـ مات ميتة جاهلية».

أما رواية «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»، فهي لم ترد إلا بصورة محدودة جداً في كتب الجمهور.

ومن المحتمل جداً أنّ عملية التزوير قد جرت لتلك الروايات الواردة في موضوع (البيعة)، حيث كانت في الأصل قد وردت في معرفة الإمام، ولكن من أجل إبعاد أذهان الناس عن هذا العنوان حولت هذه الروايات وزورت، بحيث أصبحت لها مداليل أخرى، وسوف تتبين بعض الشواهد على ذلك من الروايات الآتية. منه قدس سره.

(٢) الكافي ١: ٣٧١ ـ ٣٧٢، ح٥.

يوماً وقال: قال رسول الله ﷺ: من مات وليس عليه إمام فميتته ميتة جاهلية، فقلت: قال ذلك رسول الله ﷺ؟ فقال: إي والله قد قال، قلت: فكلٌّ من مات وليس له إمامٌ فميتته ميتة جاهلية؟! قال: نعم»[١].

الرواية الثالثة: عن ابن أبي يعفور قال: «سألت أبا عبد الله ؈ عن قول رسول الله ﷺ: من مات وليس له إمام فميتته ميتة جاهلية، قال: قلت: ميتة كفر؟ (باعتبار أنَّ الجاهلية كانوا على الكفر) قال: ميتة ضلال (يعني انحراف وضلال). قلت: فمن مات اليوم (في هذا العصر) وليس له إمام، فميتته ميتة جاهلية؟ فقال: نعم»[٢].

وذلك لأن هذا الأمر ليس مختصاً بزمن خاص من الأزمنة.

الرواية الرابعة: عن الفضيل، عن الحارث بن المغيرة قال: «قلت لأبي عبد الله ؈: قال رسول الله ﷺ: من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية؟ قال: نعم. قلت: جاهلية جهلاء أو جاهلية لا يعرف إمامه؟ قال: جاهلية كفر ونفاق وضلال»[٣].

---

(١) الكافي ١: ٣٧٦، ح١.

يلاحظ أنّ النص هنا الذي يرويه الإمام الصادق ؈ عن جده ﷺ جاء بهذه الصيغة «من مات وليس عليه إمام»، لا من مات وليس في عنقه بيعة لإمام، فالنص يتصدى لإثبات ضرورة وجود الإمام على هؤلاء الناس. منه ؒ.

(٢) الكافي ١: ٣٧٦، ح٢.

يلاحظ هنا أنّ ابن أبي يعفور يسأل عن قول رسول الله ﷺ، وهذا يعني أنّ هذا القول كان معروفاً في ذلك العصر بين الناس ويسأل عنه الإمام الصادق ؈، وهو أمر مفروغ عنه. منه ؒ.

(٣) الكافي ١: ٣٧٧، ح٣.

هنا نجد ـ أيضاً ـ هذا الصاحب يسأل الإمام عن قول رسول الله، وهذا يعني أنّ قول رسول الله ﷺ كان معروفاً بهذه الصيغة: «من مات وليس له إمام مات ميتة

الرواية الخامسة: عن يونس بن عبد الرحمن قال: «حدثنا حماد عن عبد الأعلى، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول العامة إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية[1]. فقال: الحق والله، قلت: فإن إماماً هلك ورجل بخراسان لا يعرف من وصيه، لم يسعه ذلك؟ قال: لا يسعه، إنَّ الإمام إذا هلك وقعت حجة وصيّه على من هو معه في البلد، وحقَّ النَّفر على من ليس في حضرته إذا بلغهم[2] ان الله عزّوجل يقول: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ قلت: فنفر قوم فهلك بعضهم قبل أن يصل فيعلم؟ قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾»[3].

فالإنسان ما دام قد خرج للفحص وهو بهذا القصد، فعندئذٍ يكون معذوراً عند الله تعالى.

الطائفة الثالثة: وجود وصي لكل نبي

جاهلية»، وهو قريب من حيث المضمون مع: «من مات وليس في عنقه بيعة»، ولكن مع حذف كلمة (إمام). منه رحمه الله.

(١) وهنا نلاحظ تطوراً في السؤال، حيث ينسب إلى العامة روايتهم عن رسول الله ذلك، إذن، فهذا الأمر كان معروفاً في ذلك العصر، وهذا هو أحد مؤشرات التحريف والتزوير التي تمت بعد ذلك على الروايات. منه رحمه الله.

(٢) هذا بحث من الأبحاث في موضوع الإمامة، وهو وجوب الفحص عن الإمام، من أجل أن لا يموت الإنسان بدون أن لا يكون على معرفة من إمامه، ويستدل الإمام على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ويتفرع على هذا البحث وجوب الفحص عن المرجع السياسي الذي يدبّر الأمور الاجتماعية، كما يجب الفحص والرجوع إلى المرجع في الأحكام الشرعية الأخرى. منه رحمه الله.

(٣) الكافي ١: ٣٧٨، ح ٢.

الروايات التي دلت على أنَّ لكل نبي وصياً، وهذا النوع من الروايات ورد ما يشبهه في روايات الجمهور ـ كما سبق ـ ولكن بصورة مخففة وضعيفة جداً، أما في روايات أهل البيت عليهم السلام فقد وردت نصوص كثيرة وعديدة تدل على ذلك:

الرواية الأولى: عن عبد الرحمن بن كثير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ أول وصيّ كان على وجه الأرض هبة بن آدم، وما من نبي مضى إلاّ وله وصيٌّ، وكان جميع الأنبياء مائة ألف نبيّ وعشرين ألف نبيّ، منهم خمسة أُولوا العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وإنَّ عليَّ بن أبي طالب كان هبة الله لمحمد، وورث علم الأوصياء وعلم من كان قبله، أما إنَّ محمداً ورث علم من كان قبله من الأنبياء والمرسلين»[1].

الرواية الثانية: ورد عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ الإمامة عهد من الله عزوجل معهود لرجال مسمّين، ليس للإمام أن يزويها عن الّذي يكون بعده، إنَّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى داود عليه السلام أن اتّخذ وصيّاً من أهلك فإنَّه قد سبق في علمي أن لا أبعث نبياً إلاّ وله وصيٌّ من أهله...»[2].

الرواية الثالثة: روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام ـ في حديث طويل ـ «..هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لمحمد نبيّه ونوره.. ـ إلى قوله ـ إني لم أبعث نبيّاً فأكملت أيامه وانقضت مدّته إلاّ جعلت له وصيّاً... »[3].

الطائفة الرابعة: لا تخلو الأرض من حجة

الروايات التي تدل على أنَّ الأرض لو خلت من إمام لساخت بأهلها، أو أنَّ الأرض لا يمكن أن تخلو من حجة، أو تخلو من إمام.

---

(١) الكافي ١: ٢٢٤، ح٢.

(٢) الكافي ١: ٢٧٨، ح٣.

(٣) الكافي ١: ٥٢٧، ح٣.

وفي هذا الموضوع توجد عدة جوانب من البحث[١]، ولكن ما يعيننا هنا هو ما تؤكده هذه الروايات بصورة إجمالية من أنّ وجود الإمام ضرورة من ضرورات استقرار الحياة في الأرض، وبدون وجوده سوف تسيخ الأرض بأهلها.

إذن، فالإمامة ضرورة في كل زمان.

والروايات الواردة بهذا المضمون عن أهل البيت ﷺ عديدة، ولكنّ لا نجد أثراً لمثل هذه الروايات في كتب الجمهور. ومن جملتها:

الرواية الاولى: عن محمد بن فضيل، عن أبي الحسن الرّضا ؈ قال: «قلت له: تكون الأرض ولا إمام فيها؟ قال: لا، إذن لساخت بأهلها»[٢].

الرواية الثانية: عن الوشّاء، قال: «قلت لأبي الحسن الرّضا ؈: هل تبقى

(١) ما المراد من أنّ الأرض إذا خلت من الإمام أو الحجة ساخت بأهلها؟ هل يراد من هذه الروايات بيان أنّ خلو الأرض من هؤلاء الحجج سيؤدي إلى هلاكها، لأنّ لهم ولاية تكوينية فيها، وعندما تفقد هذه الواسطة، والسبب الذي جعله الله لإدارة شؤون الأرض، فإنها تسيخ ابأهلها وينتهي دورها؟

أو أنّ المراد بيان بُعد آخر أشار له القرآن الكريم في حديثه عن رسول الله ﷺ، عندما قال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ وحينئذ عندما تخلو الأرض من حجة يستحق هؤلاء الناس العذاب، فينزل بهم العذابُ وتسيخ بهم الأرض؟

أو أن المراد من ذلك بُعد ثالث يرتبط بقضية التقوى والعمل الصالح، حيث يشير القرآن الكريم إلى أنّ التقوى والإيمان بالله تعالى عامل أساس لنزول البركات والخيرات واستقرار الحياة في الأرض، وفي مقابل ذلك ظهور الفساد في البر والبحر، حين يرتكب الناس الذنوب والإمام بين أيديهم، فيظهر الفساد في البر والبحر، كما يشير قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيكون خلو الأرض من الإمام معناه عدم تطبيق الشريعة بحدها الأدنى، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور الفساد في البر والبحر، لانقطاع البركات والخيرات بحدها المعقول الذي يحفظ للأرض بقاءها ووجودها؟ وتشخيص ذلك وتوضيحه لا يمكن بحثه هنا، وله مجال آخر. منه ﷺ.

(٢) علل الشرائع ١: ١٩٨، ح١٧.

الأرض بغير إمام؟ فقال: لا. فقلت: فإنّا نروي أنّها لا تبقى إلاّ أن يسخط الله على العباد، فقال عليه السلام: لا تبقى إذن لساخت»(١).

الرواية الثالثة: عن سليمان بن جعفر الحميري قال: «سألت الرضا عليه السلام فقلت: تخلو الأرض من حجة؟ فقال: لو خلت الأرض طرفة عين من حجّة لساخت بأهلها»(٢).

الرواية الرابعة: عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث له في الحسين بن علي عليه السلام يقول في آخره: «ولولا مَنْ على الأرض من حجج الله لنفضت الأرض ما فيها وألقت ما عليها، إنّ الأرض لا تخلو ساعة من الحجة»(٣).

الرواية الخامسة: عن الحسن بن زياد، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ الأرض لا تخلو من أن يكون فيها حجّة عالم، إنّ الأرض لا يصلحها إلا ذلك، ولا يصلح النّاس إلا ذلك»(٤).

وهذه الروايات بمجموعها قد نستفيد منها ـ أيضاً ـ بعض الأبعاد السابقة(٥)، ولكنّها تشير ـ في الوقت نفسه ـ إلى هذه الحقيقة.

الطائفة الخامسة: ضرورة وجود الإمامة

النصوص التي وردت وتصدت لبيان الأمور الثلاثة المتقدة في تفسير النظرية من ضرورة الإمامة.

ومن أجل تفادي الإطالة في الحديث، أذكر العناوين التي تشير إلى هذه الأمور، وأكتفي بذكر بعض الأمثلة لها، حيث يمكن مراجعة التفاصيل في الكتب

(١) بحار الأنوار ٢٣: ٢٩، ح٤٢. الكافي ١: ١٧٩، ح١٣.

(٢) عيون أخبار الرضا٢: ٢٤٦، ح٤. بصائر الدرجات: ٥٠٩، ح٨.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٠٢، ح٤. بحار الأنوار ٢٣: ٣٤، ح٥٧.

(٤) بحار الأنوار ٢٣: ٣٥ ـ ٣٦، ح٦٠.

(٥) ويقصد من ذلك ﷺ ما هو مثبت في الهامش من حديثه حول المراد من ساخت الأرض.

الحديثية الجامعة ذات العلاقة بالموضوع:

١ـ فقد وردت روايات تدل على أنَّ الإمامة ضرورة لمعرفة الحق من الباطل وتمييزه، وأنها ضرورة ـ أيضاً ـ لبيان الحلال والحرام، وضرورة لإقامة الحجة على الناس[(١)]:

الرواية الأولى: عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ الله لا يدع الأرض إلا وفيها عالم يعلم الزيادة والنقصان، فإذا زاد المؤمنون شيئاً ردَّهم، وإذا نقصوا أكمله لهم فقال: خذوه كاملاً، ولولا ذلك لالتبس على المؤمنين أمرهم، لم يفرق بين الحق والباطل»[(٢)]. وقد مرت سابقاً

الرواية الثانية: عن أبي حمزة، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: لن تبقى الأرض إلاّ وفيها من يعرف الحق.. ـ إلى أن قال ـ ولو لم يكن كذلك لم يعرف الحقّ من الباطل»[(٣)].

الرواية الثالثة: عن أبي بصير قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إنَّ الله عزّوجل لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك لما عرف الحقّ من الباطل»[(٤)].

الرواية الرابعة: عن الحرث بن المغيرة، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنَّ الأرض لا تترك إلا بعالم يحتاج الناس إليه ولا يحتاج إلى الناس ويعلم الحلال والحرام»[(٥)].

الرواية الخامسة: عن الحارث بن المغيرة ـ أيضاً ـ قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنَّ الأرض لا تترك إلا وعالم يعلم الحلال والحرام وما يحتاج الناس إليه، ولا يحتاج إلى الناس». قلت: جعلت فداك علم ماذا؟ فقال: وراثة من رسول

(١) وهذه العناوين تشير الى الأمر الأول من تفسير نظرية الإمامة.
(٢) علل الشرائع ١: ١٩٥، ح ٤، وبنفس المضمون وباختلاف يسير في الكافي ١: ١٧٨، ح ٥.
(٣) بحار الأنوار ٢٣: ٢٥، ح ٣٣.
(٤) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٠٣، ح ١٢.
(٥) بصائر الدرجات: ٥٠٥، ح ٨ المحاسن ١: ٢٣٤، ح ١٩٤.

الله ﷺ وعليّ عليه السلام»[١].

الرواية السادسة: عن الحسن بن زياد، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هل تكون الأرض إلا وفيها إمام؟ قال: لا تكون إلاّ وفيها إمام عالم بحلالهم وحرامهم وما يحتاجون إليه»[٢].

الرواية السابعة: عن العامري، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما زالت الأرض إلاّ ولله فيها الحجّة يعرف الحلال والحرام...»[٣].

الرواية الثامنة: عن أبي حمزة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «منا الإمام المفترض الطاعة، من جحده كان يهودياً أو نصرانياً، والله ما ترك الأرض منذ قبض الله آدم إلاّ وفيها إمام يهتدى به إلى الله حجة على العبادة، من تركه هلك ومن لزمه نجا، حقاً على الله عزوجل»[٤].

الرواية التاسعة: عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «المنذر رسول الله ﷺ، والهادي أمير المؤمنين عليه السلام بعده والأئمة عليهم السلام، وهو قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، في كلّ زمان إمام هاد مبين، وهو رد على من ينكر أنّ في كلّ عصر وزمان إماماً، وإنه لا تخلو الأرض من حجة، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله، إما ظاهر مشهور، وإما خائف مغمور، لئلا تبطل حجج الله وبيّناته»[٥].

الرواية العاشرة: عن أبي حمزة الثمالي، قال: «قال: ما خلت الدنيا منذ خلق الله السماوات والأرض من إمام عدل إلى أن تقوم الساعة حجة لله فيها على خلقه»[٦].

---

(١) بحار الأنوار٢٣: ٤٠، ح٧٢ و ٧٤ مع اختلاف يسير.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٢٣.

(٣) الكافي ١: ١٧٨، ح٣.

(٤) إثبات الهداة ١: ١١٩، ح١٧٢.

(٥) بحار الأنوار٢٣: ٢٠، ح١٦.

(٦) علل الشرائع ١: ١٩٧، ح١٤، وفي الحديث لم يذكر اسم الإمام عليه السلام الذي يروي عنه، ويحتمل أن يكون الإمام الباقر عليه السلام.

الرواية الحادية عشر: عن كرام قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: لو كان الناس رجلين لكان أحدهما الإمام»، وقال: «إنَّ آخر من يموت الإمام لئلا يحتج أحدهم على الله عز وجل أنه تركه بغير حجة لله عليه»(١).

٢ـ كما وردت روايات تتحدث عن الاختلاف على مستوى التأويل ورفع الاختلاف فيه(٢):

أ) رفع الاختلاف على مستوى التأويل ورفع الالتباس، فقد ورد عن عبد الأعلى مولى آل سام، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سمعته يقول: ما ترك الله الأرض بغير عالم ينقص ما زاد الناس، ويزيد ما نقصوا، ولولا ذلك لاختلط على الناس أُمورهم»(٣)، ومحل الشاهد «لاختلط على الناس أُمورهم».

ب) رفع الاختلاف على مستوى الزيادة والنقصان في الدين، فقد روى أبو حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال: يا أبا حمزة إنَّ الأرض لن تخلو إلا وفيها منا عالم، فإذا زاد الناس قال: زادوا، وإن نقصوا قال: نقصوا، ولن يخرج الله ذلك العالم حتى يرى في ولده من علم مثل علمه أو ما شاء الله»(٤).

ج) رفع الاختلاف على مستوى إحياء السنة والحق، فقد روى عمار الساباطي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمعته وهو يقول: لم تخلُ الأرض منذ كانت من حجة عالم يحيي فيها ما يميتون من الحق، ثم تلا هذه الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ

---

(١) الكافي ١: ١٨٠، ح٣.
(٢) وهو الأمر الثاني من تفسير نظرية ضرورة الإمامة.
(٣) بصائر الدرجات: ٣٥٢.
(٤) دلائل الإمامة: ٤٣٤.

وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾»[1].

٣ـ كما وردت الروايات في ضرورة الإمامة، لأنها هي الولاية والحكم[2]، وهي عديدة:

الرواية الأولى: رواية زرارة المعروفة ـ وهي صحيحة السند، وأطول الروايات وأكثرها شرحاً ووضوحاً ودلالة على هذا الأمر ـ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية، قال زرارة: فأيّ ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضلهن، لأنّها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن.. ـ إلى أن قال ـ أما لو أنَّ رجلاً قام ليله، وصام نهاره، وتصدق بجميع ماله، وحجّ جميع دهره، ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه، ويكون جميع أعماله بدلالته له عليه، ما كان له على الله حقّ في ثواب، ولا كان من أهل الإيمان..»[3].

الرواية الثانية: عن الفضيل، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بني الإسلام على خمس: على الصّلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية، فأخذ النّاس بأربع وتركوا هذه» يعني الولاية[4].

الرواية الثالثة: عن ابن العرزمي عن أبيه، عن الصادق عليه السلام قال: «قال: أثافي الإسلام ثلاثة: الصلاة والزكاة والولاية، لا تصح واحدةٌ منهنَّ إلاّ بصاحبتيها»[5].

الرواية الرابعة: عن أبي اليسع قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني بدعائم الإسلام الّتي لا يسع أحداً التقصير عن معرفة شيء منها، الّذي من قصّر عن معرفة شيء منها فسد دينه ولم يقبل (الله) منه عمل فقال: شهادة أن لا إله إلاّ الله،

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٢١، ح٤.
(٢) إشارة الى الامر الثالث من تفسير نظرية ضرورة الإمامة.
(٣) المحاسن ١: ٢٨٦، ح ٤٣٠. الكافي ٢: ١٨، ح٥.
(٤) الكافي ٢: ١٨، ح٣.
(٥) الكافي ٢: ١٨، ح٤، الاثافي: هي الاحجار التي توضع عليها القدر وأقلها ثلاثة.

والإيمان بأنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحقٌّ في الأموال الزكاة؛ والولاية الّتي أمر الله عز وجل بها: ولاية آل محمد صلى الله عليه وآله

قال: فقلت له: هل في الولاية شيء دون شيء فضل يعرف لمن أخذ به؟ قال: نعم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾... »[١].

الرواية الخامسة: عن فضيل، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بني الإسلام على خمس: الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم يناد بشيء ما نودي بالولاية يوم الغدير»[٢].

الرواية السادسة: عن عبد الله بن عجلان، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بني الإسلام على خمس: الولاية والصّلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج»[٣].

الرواية السابعة: عن علي بن حمزة، عن أبي بصير قال: «سمعته يسأل أبا عبد الله عليه السلام، فقال له جعلت فداك أخبرني عن الدين الذي افترض الله عز وجل على العباد ما لا يسعهم جهله ولا يقبل منهم غيره ما هو؟ فقال أعد عليّ فأعاد عليه، فقال: شهادة أن لا إله إلاّ الله؛ وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله... والولاية، مرتين، ثم قال: هذا الذي فرض الله على العباد»[٤].

إذن، فالولاية تعتبر ركناً من أركان الإسلام، كما تشير إليها الروايات المتقدمة، وهناك روايات عديدة بهذا المضمون، يمكن أن يقال: إنّها متواترة أو متظافرة على الأقل[٥].

---

(١) الكافي ٢: ١٩ ـ ٢٠، ح٦.
(٢) الكافي ٢: ٢١، ح٨
(٣) الكافي ٢: ٢١ ، ح٧.
(٤) الكافي ٢: ٢٢، ح١١.
(٥) والملاحظ هنا أنّ روايات «بني الإسلام» قد وردت في طرق الجمهور، ولكنّها حذفت الولاية، ووضعت مكانها «شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله»، مع

هذا خلاصة الحديث في الروايات التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام في ضرورة الإمامة.

الخط الخامس: الإجماع

ادعى جماعة من العلماء إجماع علماء المسلمين على ضرورة الإمامة، سواء علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام أم مدرسة الصحابة والجمهور.

وتقدم في الاستدلال على ضرورة الإمامة بروايات أهل البيت عليهم السلام: أنَّ هذه القضية واضحة جداً لدى أوساط هذا المذهب الشريف، بل هي من ضرورياته. ولذا لا نحتاج إلى ذكر كلمات علمائه بهذا الصدد، ولكن مع ذلك أشير إلى نصٍ يؤكد الإجماع على مستوى علماء المسلمين جميعاً.

فقد نُقل عن السيد البروجردي[1]: «اتفق الخاصة والعامة على أنه يلزم في محيط الإسلام وجود سائس وزعيم يدبّر أمور المسلمين، بل هو من ضروريات الإسلام وإن اختلفوا في شرائطه وخصوصياته، وأنَّ تعيينه من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله أو بالانتخاب العمومي»[2].

أنَّ الشهادتين وإن كانتا أساس الإسلام، إلا إنَّهما ليسا بمستوى العبادات الأخرى التي من تركها لا يخرج من الإسلام، بل كان فاسقاً مستحقاً للعقاب، بخلاف الشهادتين، فمن تركهما خرج عن الإسلام. وهذا هو أحد معالم التحريف والتزوير.

نعم، إذا أريد من الشهادتين الطاعة والامتثال فهما يعنيان الولاية عندئذ، ويكون ذلك بياناً للجانب العقائدي لها، ولأهميتها وتقدمها على بقية العبادات، وأنَّ هذه الولاية هي ولاية الله ورسوله صلى الله عليه وآله منه رحمه الله.

(١) السيد البروجردي أحد مراجع الشيعة الكبار في فترة ما بين ١٣٦٦ ـ ١٣٨٠ هـ درس في النجف الأشرف، واستقر في بروجرد، ثم انتقل إلى قم في أواخر حياته، ليصبح مرجعاً عاماً في إيران وبعض البلاد الإسلامية الأخرى بعد وفاة آية الله العظمى السيد أبو الحسن الأصفهاني، والسيد حسين الطباطبائي القمي.

(٢) ولاية الفقيه ١: ٨٦، وتوجد نصوص أُخرى في نفس الكتاب، وفي كتب أُخرى من علم الفقه والكلام.

وكذلك ادعي الإجماع على ذلك في مدرسة الصحابة والجمهور، وتوجد مجموعة من النصوص تؤكد ذلك عن الماوردي في الأحكام السلطانية، وابن حزم في الفصل الذي ألفه في الملل والأهواء والنحل، وابن خلدون في مقدمته، وابن أبي الحديد في شرحه للنهج، وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة، وهذه بعض نصوصهم:

١ ـ قال ابن حزم: «اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع المعتزلة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأنَّ الأُمة فرض واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ... »، واستثنى ابن حزم من هذا الإجماع النجدات من الخوارج[١]... إلى أن قال: «مع أحاديث كثيرة صحاح في طاعة الأُمة وإيجاب الإمامة»[٢].

٢ ـ قال ابن خلدون: «ثم إنَّ نصب الإمام واجب، قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر اليه في امورهم. وكذا في كل عصر من بعد ذلك. ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام»[٣].

٣ ـ قال الماوردي: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأُمة واجب بالإجماع وإن شذّ عنهم الأصم»[٤].

---

(١) ينقسم الخوارج إلى عدة أقسام، ومنهم شرذمة اجتمعت حول شخص اسمه (نجدة بن عمير الحنفي) ولذلك يسمون بالنجدات نسبة إلى (نجدة).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٣ : ٣.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١: ١٩١، الفصل السادس والعشرون.

(٤) الأحكام السلطانية: ٥.

٤ ـ **قال ابن أبي الحديد المعتزلي:** «قال المتكلمون كافة: الإمامة واجبة إلا ما يحكي عن أبي بكر الأصمّ من قدماء أصحابنا أنّها غير واجبة إذا تناصفت الأُمة ولم تتظالم... فأما طريق وجوب الإمامة ما هي؟ فإن مشايخنا البصريين رحمهم الله يقولون: طريق وجوبها الشرع وليس في العقل ما يدل على وجوبها.

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين وشيخنا أبو الحسين رحمه الله: إنَّ العقل يدلّ على وجوب الرياسة، وهو قول الإمامية»[١].

٥ ـ **وقال في الفقه على المذاهب الأربعة:** «اتفق الأئمة على أنَّ الإمامة فرض وأنّه لابد للمسلمين من إمام يقيم شعائر الدين وينصف المظلومين من الظالمين، وعلى أنّه لا يجوز أن يكون على المسلمين في وقت واحد في جميع الدنيا إمامان لا متفقان ولا مفترقان»[٢].

إذن، فالإجماع في نصوص مدرسة أهل البيت وعلماء الجمهور مسلّمة على وجوب الإمامة.

ملاحظات في إطار الإجماع

هناك عدة ملاحظات لابد من الإشارة لها:

الملاحظة الأولى: توجد في الإمامة نظريتان:

الأولى: النظرية التي تبناها أهل البيت عليهم السلام وعلماء مدرستهم، وهي إنَّ الإمامة لها مدلول واسع، يشمل حلّ الاختلاف على مستوى العبادة والاختلاف على مستوى التأويل والتفسير والشرح، وكذلك المحافظة على الدين وإدارة أمور المسلمين والمؤمنين وسياستهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٣٠٨.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ٥: ٤١٦، مبحث شروط الإمامة.

فالإمامة عمل يرتبط بالرسالة نفسها وبيانها وإبلاغها والمحافظة عليها، ولكن في حدود دون النبوة في هذا المجال، حيث لا وحي فيها، كما أنَّها عمل يرتبط بإدارة شؤون الناس وسياستهم والحكم بينهم، وقيادة عملية التغيير.

الثانية: النظرية التي يذهب إليها علماء الجمهور، حيث يرون أنَّها: عبارة عن إدارة شؤون الناس وسياستهم، ويضيف بعضهم إلى ذلك الحفاظ على الدين والعقيدة والدفاع عنها، أما إبلاغ الرسالة وفهم الدين وتفسيره وشرحه، فهذا لا يدخلونه كعنصر أساسي في فهمها وبيان مضمونها.

ونلاحظ هنا أنَّ بعضهم يذكر الإجماع على النظرية الثانية، أو ما يسمى بسياسة أمور الناس وتطبيق الحكم الشرعي عليهم، أما الجوانب الأخرى في الإمامة ـ التي يتبناها أبناء مدرسة أهل البيت عليهم السلام ـ فلا تشير لها كلمات الإجماع لديهم.

الملاحظة الثانية: يذكر علماء الأصول ـ في بحث الإجماع ـ أنَّ الإجماع إنَّما يكون حجة ودليلاً مستقلاً فيما لو كشف عن رأي المعصوم عليه السلام؛ ولذا فهو إنَّما يتم إذا لم تكن فتاوى العلماء المجمعين قد استندت إلى أدلة خاصة، وإلا فإن هذه الفتوى المجمع عليها لا تكشف عن رأي المعصوم، بل تتبع في قيمتها دليلها ومستندها الخاص، وعندئذ فقد يناقش في الاستدلال بالإجماع هنا، بأنّ هؤلاء المجمعين قد استندوا إلى أدلة خاصة في أكثر الموارد، كما يلاحظ ذلك عند الرجوع إلى كلماتهم، ككلمة ابن خلدون المتقدمة[1].

---

(١) فمثلاً ابن خلدون يستند في دعوى ضرورة الإمامة إلى أنّ الصحابة بادروا إلى انتخاب أبي بكر، ونحن نعرف:

أولاً: إنّ هذه البيعة كانت ذات طابع شخصي واجتهاد خاص، كما هو واضح من أحداث سقيفة بني ساعدة، وعبّر عنها الخليفة الثاني بأنّها كانت فلتة، فليس لهذا العمل علاقة بالشريعة الإسلامية.

ثانياً: إنّ الصحابة لم يبادروا جميعاً لذلك ، بل اختلفوا في هذا الأمر، وكان في

فلا يكون هذا الإجماع دليلاً مستقلاً، بل يكون مرجعه إما إلى العقل، أو الكتاب، أو السنّة، حسب الدليل الذي استند إليه كل واحد منهم.

الملاحظة الثالثة: مع قطع النظر عن كل المناقشات التفصيلية ـ وهي مناقشات صحيحة في بعض مواردها ـ في كلمات العلماء المجمعين على ضرورة الإمامة، والأدلة التي استندوا إليها ـ كما أنّهم قد استندوا إلى بعض الأدلة الصحيحة، ففتواهم ذات مسند ـ يمكن القول: إنّه من خلال مراجعة كلمات العلماء المجمعين بكل طبقاتهم ومراتبهم، يصبح هناك وضوح لدى الباحث من أنّ ضرورة الإمامة ـ بصورة إجمالية ـ لديهم واضحة بدرجة عالية وأكبر من وضوح الأدلة نفسها التي يستندون إليها، الأمر الذي يكشف عن أنّ ذكرهم لتلك الأدلة إنّما كان بصدد تفسير أو تأكيد الوضوح الموجود لديهم في ضرورة الإمامة.

وبذلك يمكن أن تكون هذه الفتاوى كاشفة عن الحكم الشرعي بصورة إجمالية، بل هي قضية مسلّمة لديهم.

غاية الأمر أنّ بعض هؤلاء العلماء قد تبنى في مرحلة سابقة مذاهب في فهم الإمامة ومعرفتها، أو تبنى في مرحلة سابقة طريقة في الاستدلال على مذهبه ومتبنياته لا يمكنه من خلالها تفسير هذه الظاهرة والضرورة الواضحة، فهي أوضح من المتبنيات نفسها التي يحاول أن يفسّر بها هذه الظاهرة.

وهذا ما وقع فيه أمثال ابن حزم عندما يذكر في البداية هذه الضرورة، ولكن يتحيّر في تفسيرها طبق متبنياته المذهبية، وكذلك ما وقع فيه ابن خلدون، باعتباره باحثاً من كبار علماء التأريخ، فهو يرى أنّ هذه القضية من الوضوح بدرجة كبيرة، فيحاول أن يطبق هذا الوضوح على متبنياته المذهبية في عدالة الصحابة وتصحيح

مقدمة الرافضين لذلك أفضل الصحابة، أمثال: الإمام علي عليه السلام، والزهراء البتول سيدة نساء العالمين عليها السلام، والعباس بن عبد المطلب، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود الكندي، وغيرهم. منه قدس سره.

عملهم ويتحير في ذلك، فيقدم تفسيراً ضعيفاً لا ينسجم مع علمه ولا مع هذا القدر من الوضوح الذي يدّعيه في البداية.

إذن، فمن الممكن القول: إنّ هذا الإجماع هو إجماع قائم بين المسلمين، وواضح بدرجة عالية جداً، وهو أكثر وضوحاً من الأدلة التي يستدل بها هؤلاء العلماء، وإنَّما صنع بعضهم ذلك واستدلوا بمثل هذه الأدلة عندما تحيّروا في تفسير هذا الوضوح، فأخذوا يذهبون يميناً وشمالاً من أجل تفسير هذه الظاهرة وهذا الوضوح.

الفصل الثاني

الاستدلال على اختصاص الإمامة في أهل البيت عليهم السلام

البعد الثاني في نظرية الإمامة هو اختصاصها بأهل البيت عليهم السلام دون غيرهم من الناس، ويمكن الاستدلال على هذا الموضوع بعدة أدلة، وهي:

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ الروايات.

٣ـ العقل.

الدليل الأول: القرآن الكريم

ويمكن الاستدلال به على هذه الحقيقة بصورة واضحة.

ملاحظات عامة

قبل الاستدلال بالقرآن الكريم لابد من الإشارة إلى عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: تحدث القرآن الكريم عن أهل البيت عليهم السلام في موارد عديدة وبصور مختلفة، يمكن أن تبلغ مئات الآيات الكريمة، حتى أن بعض العلماء[١] ألّف كتاباً مستقلاً تناول هذا الموضوع، وهو كتاب (تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة).

---

(١) السيد شرف الدين علي الحسيني الإسترآبادي الذي كان من طلاب المحقق الثاني المعروف بالمحقق الكركي ـ وهو من كبار محققي علماء أهل البيت عليهم السلام ، ومؤلف الكتاب الفقهي المعروف بجامع المقاصد ـ والكتاب المذكور أعلاه يتناول مجموع الآيات الكريمة التي تحدثت عن أهل البيت، إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ويذكر الروايات التي وردت عن طريق أهل البيت عليهم السلام بشأن تفسير هذه الآيات الكريمة.

الملاحظة الثانية: إذا قارنا حديث القرآن الكريم عن أهل البيت ﷺ بحديثه عن أي طائفة خاصة أُخرى، لا نجد نظيراً لهذا الحديث الواسع إلاّ حديثه عن الأنبياء.

نعم، تحدث القرآن الكريم كثيراً عن الجماعات العامة، كجماعة المؤمنين، والمشركين، والمنافقين، وأهل الكتاب، وغيرها من الجماعات في المجتمع الإنساني، ولكنَّها أحاديث عن جماعات عامة، وأما تخصيص حديثه في طائفة خاصة، فهذا غير موجود إلاّ في أهل البيت ﷺ والأنبياء، وأما حديثه عن بني إسرائيل الذي جاء بصورة مفصلّة نسبياً، فهو باعتبار أنّهم كانوا يمثلون ظاهرة من ظواهر امتداد النبوة.

ولذلك يمكن أن نستنتج:

أولاً: الموقع الخاص لأهل البيت ﷺ في النظرية الإسلامية.

ثانياً: الارتباط بين ظاهرة أهل البيت ﷺ وظاهرة النبوة التي أولاها القرآن الكريم ـ أيضاً ـ الاهتمام الخاص، لوجود التشابه والاقتران بينهما في الحديث.

الملاحظة الثالثة: تحدث القرآن الكريم في موارد عديدة من أن الأنبياء لا يبغون أجراً أو منفعة على تصديهم للرسالة وحملها سوى الأجر من الله تعالى على أتعابهم، ومن أُولئك النبي الخاتم ﷺ، قال تعالى على لسان نبيه: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1]، وهذه كانت قاعدة عامة عند الأنبياء أكدها القرآن الكريم في غير موضع[2]، ولكن مع ذلك كله نجد

(١) سبأ: ٤٧.

(٢) قال تعالى على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩]. وعلى لسان هود ﷺ: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٧]. وعلى لسان صالح ﷺ: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٥]. وعلى لسان لوط ﷺ: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٤]. وعلى لسان شعيب ﷺ: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٠]. وعلى لسان هود ﷺ في موضع آخر: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١].

ورود استثناء اختص بالرسالة الإسلامية وهو آية المودة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[١].

الأمر الذي يعبّر عن امتياز اختصت به الرسالة الإسلامية دون الرسالات الأخرى، وظاهرة الاستثناء هذه تحتاج إلى تفسير، ولاشك أن تفسيرها هو في موقع أهل البيت عليهم السلام في الرسالة الخاتمة التي تميزت بخصائص أُخرى عن الرسالات السابقة.

ويمكن لهذه الملاحظات الثلاث أن تلقي الضوء على فهم الآيات الكريمة التي سوف نشير إليها في الاستدلال على اختصاص الإمامة بأهل البيت عليهم السلام.

الملاحظة الرابعة: يبدو من القرآن الكريم أنَّ أهل البيت عليهم السلام وإمامتهم في النظرية الإسلامية تمثل نظرية متكاملة لها أبعادها الخاصة ـ كما سيتضح ذلك ـ وإنَّ الآيات الكريمة التي تدل على ذلك يمكن تقسيمها إلى ثلاث طوائف[٢]:

الطائفة الأولى: تدل على أبعاد النظرية بدلالة واضحة، من حيث استخدام العنوان الذي ينطبق على أهل البيت عليهم السلام، ولكن تدل على مضمون هذه الأبعاد بصورة إجمالية عامة.

الطائفة الثانية: تدل على أبعاد النظرية بدلالة العامل المشير لنزول الآية الكريمة ـ سبب النزول ـ الذي يمثل ـ عادة ـ القدر المتيقن لمصداق العنوان بسبب دلالة الحال والمسبب، ولكنَّها من حيث المضمون تدل على تفاصيل هذه النظرية بعناوينها الخاصة.

الطائفة الثالثة: تدل على أبعاد النظرية بدلالة التطبيق والتأويل، باعتبار أنَّ

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) بل يمكن تقسيمها إلى خمس طوائف إذا فصلنا الآيات التي وردت في خصوص الإمام علي عليه السلام، وتحدثنا عنها بصورة مستقلة، وأما إذا دمجنا بينها وبين ما ورد في عموم أهل البيت عليهم السلام، فيكون التقسيم إلى طوائف ثلاث، كما سوف نشير إلى ذلك عند عرض هذه الطوائف. منه قدس سره.

أهل البيت ﷺ يمثلون المصداق الأول للمفاهيم المطروحة في الآيات الكريمة، كما تدل على تفاصيل مضمونها كالطائفة الثانية.

وهذا التقسيم يعتمد على بعدين:

الأول: يرتبط بنوع دلالة الآيات وظواهرها على النظرية.

والآخر: يرتبط بمضمون دلالة الآيات على النظرية وأبعادها من حيث الإجمال والتفصيل.

الملاحظة الخامسة: إنَّ خلاصة نظرية الإمامة ـ التي تقدم ذكرناها ـ يمكن أن نراها متمثلة في أهل البيت ﷺ، نستنبطها ونستنتجها من الآيات الكريمة التي تتحدث عن مجموعة من الأبعاد تلقي بضوئها على تشخيص المفهوم الصحيح للإمامة، والأبعاد هي:

١ ـ الاصطفاء والاجتباء والاختيار من الله تعالى للمهمات الخاصة التي اصطفى من أجلها الله الأنبياء والأولياء، كالشهادة، والهداية، وإبلاغ الرسالات، والبشارة، والإنذار...

٢ ـ الاستمرار والامتداد لمهمات النبوة والرسالة الإلهية المتمثلة بالرسالة الخاتمة في تحقيق التكامل الإنساني في الحياة الدنيوية والأخروية.

٣ ـ الامتياز بالعلم والأخلاق والمواصفات الروحية والشخصية.

٤ ـ الحب والولاء والعلاقة الخاصة والتقديس والتعظيم.

٥ ـ الولاية والحكم بين الناس وإدارة شؤونهم.

٦ ـ المثال الكامل الذي يهدف من خلق الإنسان ووجوده على الأرض.

الطائفة الأولى: القرآن وأبعاد النظرية

وهي الآيات الكريمة التي ذكرت أهل البيت ﷺ بأحد العناوين الذي ينطبق عليهم بصورة واضحة، كعنوان (أهل البيت)، أو (ذوي القربى)، أو

(الأبناء، والنساء، والأنفس)، نظير آية التطهير، وآية المباهلة، وآية المودة، وآيتي الأنفال والفيء.

أو الآيات التي ترمز إلى أهل البيت عليهم السلام بالضمير والكناية، مثل: آيات سورة هل أتى (الإنسان) التي يفسر الضمير فيها بأهل البيت، وآيتي الكلمات والأسماء التي ورد ذكرهما في قصة خلق الإنسان (آدم) في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٢]، حيث كنّى القرآن الكريم عن أهل البيت عليهم السلام بالأسماء والكلمات، كما تنص على ذلك بعض الروايات، ويذهب إليه بعض العلماء والمفسرين.

والجميل في هذه الآيات الكريمة هو أنَّ كل واحدة منها يتحدث عن بعد يرتبط بالنظرية يختلف عن البعد الآخر، بحيث يعبر مجموع هذه الآيات عن مجموع أبعاد النظرية التي تحدثنا عنها في اختصاص الإمامة بأهل البيت عليهم السلام[٣]:

الآية الأولى: آية الاصطفاء التي نجد فيها الإشارة إلى أصل النظرية، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٤]، فالآية الكريمة تمثّل وتعبّر عن مبدأ الاصطفاء للآل والأهل، ومن ثم ينطبق هذا الاصطفاء على أهل البيت عليهم السلام، ونجد تأكيد ذلك في بعض الروايات التي تشير إلى هذا الموضوع في بعدين:

الأول: تفسير آل إبراهيم بآل محمد صلى الله عليه وآله باعتبار أنَّ آل رسول الله وأهل

---

(١) البقرة: ٣١.

(٢) البقرة: ٣٧.

(٣) لم أكن عند الحديث عن النظرية ملتفتاً إلى هذه الخصوصية في الآيات الكريمة، ولكن في هذا اليوم عندما راجعت الآيات وتأملت فيها وجدت هذا التطابق، وأشكره سبحانه وتعالى على هذا التوفيق، وأسأله دوام ذلك وبركته ومنفعته. منه قدس سره.

(٤) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

بيته عليهم السلام يتمون إلى إسماعيل، ومن ثم فهم ينتمون إلى إبراهيم عليه السلام، كما ينتمي بنو إسرائيل - أيضاً - إلى إبراهيم، ولكن القرآن الكريم عندما يتحدث عن بني إسرائيل ذكرهم بعنوانهم في مواضع عديدة، ولم يذكرهم بعنوان آل إبراهيم، وأما هذه الآية الكريمة فقد ورد الحديث فيها عن اصطفاء آل إبراهيم، وهو إما أن يكون كناية عن آل محمد بالخصوص، بقرينة هذه الصيغة الجديدة، أو حديثاً عن الاصطفاء الأعم والأشمل الذي يشمل آل إسماعيل وآل إسحاق.

وإلا فإن القرآن الكريم ذكر بني إسرائيل وأثنى عليهم وفضّلهم على العالمين، بأن جعل منهم أنبياء وملوكاً، فلو أرادهم بالخصوص لكان الحديث عنهم باستخدام عنوانهم الخاص، فاستبدال عنوان بني إسرائيل بعنوان (آل إبراهيم) إما باعتبار الاختصاص بأهل البيت عليهم السلام، أو إدخال أهل البيت عليهم السلام في هذا العنوان.

ويؤكد القرآن الكريم ذلك في موضع آخر في آية بناء البيت: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

إذن، فهذا النبي وأهل بيته هم ذرية إبراهيم وإسماعيل معاً بالخصوص، وهم دعوة إبراهيم عليه السلام، كما ذكرناه في عرض النظرية.

الثاني: ما أشارت إليه بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير الآية الكريمة على إضافة آل محمد صلى الله عليه وآله بعنوانهم الخاص[2]، وهذه الرواية لا نقبل بها على ظاهرها؛ لأنها توهم النقصان في القرآن الكريم، ولذلك لابد من تأويلها

(١) البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) راجع تفسير القمي ١: ١٠٠. التفسير الصافي ١: ٣٢٩. مجمع البيان ٢: ٢٧٨.

وتفسيرها على أساس التطبيق والتأويل[1].

ولذلك يمكن القول ـ بصورة إجمالية ـ: إنَّ هذه الروايات تشير إلى تطبيق هذه الآية على الاصطفاء في أهل البيت عليهم السلام، إما عن طريق تفسير آل إبراهيم بآل محمد، أو شمول آل إبراهيم لآل محمد صلى الله عليه وآله.

الآية الثانية: آية التطهير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2]، حيث تشير الآية إلى بُعد الامتياز بالصفات الروحية والشخصية في أهل البيت عليهم السلام، كالطهارة، والعصمة، وتقدم الحديث عن ضرورة الإمامة وانطباقها عليهم عليهم السلام: إنَّ ذلك إنَّما هو في ضرورة الإمامة (المعصومة)، لذا فنحن بحاجة إلى إثبات هذه الخصوصية عند الحديث عن الإمامة في أهل البيت عليهم السلام، وآية التطهير تثبت لنا هذه الخصوصية.

والبحث في استفادة العصمة من آية التطهير بحث واسع تناوله بعض العلماء بصورة مفصّلة في كتب التفسير وغيرها، ويمكن الرجوع إلى هذه الأبحاث لاستفادة ذلك منها[3].

الآية الثالثة: آية المباهلة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[4]. فجاء الحديث فيها عن أهل البيت عليهم السلام تحت عنوان ﴿أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله أهل البيت عليهم السلام هذه العناوين (الابن، والنساء، والأنفس) منسوبة له، وهذه العناوين هي أخص العناوين وألصقها

(١) علوم القرآن: ١١٨ ـ ١٢٤.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) ذكرنا في بداية البحث: إنّ البحث عن الإمامة هنا هو بحث إجمالي، نكتفي فيه ـ أحياناً ـ بالإشارة إلى مبادئه ومصادره عندما يكون مستوفىً في مواضع أخرى. منه قدس سره.

(٤) آل عمران: ٦١.

وأقربها لأيِّ بيت ولأيِّ إنسان.

ويمكن انتزاع بُعداً آخر من الآية الكريمة، وهو بُعد الامتداد والاستمرار لرسول الله صلى الله عليه وآله ولدوره في أهل البيت عليهم السلام.

فأهل البيت عليهم السلام هنا ليسوا مجرد أفراد معصومين اصطفاهم الله تعالى من بين عباده، وإنَّما لهم دور مهم خاص، يمثلون فيه الامتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنهم أبناءه ونساؤه ونفسه، عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله بهم دون غيرهم من أصحابه، ويشير إلى ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وآله عن أهل بيته عند الخروج إلى المباهلة، في مقام إثبات الرسالة والاحتجاج على النصارى وأهل الكتاب، كما يدل على ذلك نص الآية: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

كما أنَّ سياق الآيات يؤكد ذلك، مضافاً إلى ذلك تفاصيل القصة، ومنها تسليم النصارى لهذه المباهلة وانسحابهم منها.

ولعل السرَّ في تقديم الأبناء على النساء والانفس، ولم يقل: أنفسنا وأنفسكم، ونساءنا ونساءكم، وأبناءنا وأبناءكم، باعتبار الإشارة إلى هذه الخصوصية، فإن فيها الترقي من الأبناء، لأنهم الامتداد الطبيعي للإنسان، ثم إلى النساء باعتبارهن يمثلن عامل هذا الامتداد، والزهراء عليها السلام هي أم الأئمة الأطهار، ثم الترقي بعد ذلك إلى الأنفس تأكيداً لهذا الارتباط، لأن المحور الرئيس في الحديث هو رسول الله صلى الله عليه وآله، كما أنَّه محور النبوة والإمامة.

الآية الرابعة: آية المودة، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]، وهي تشير إلى بُعد تشخيص طبيعة العلاقة التي يجب أن تقوم بين أبناء الأُمة الإسلامية وأهل البيت عليهم السلام، وهي تعبر عن طبيعة العلاقة مع الإمامة، التي

---

(١) الشورى: ٢٣.

هي امتداد للعلاقة مع الله تعالى ورسوله.

وهذه العلاقة تشتمل على عناصر عديدة، محورها المودة والحب والولاء لله ولرسوله ولأُولي الأمر وللمؤمنين، حيث يلاحظ بأنَّ المودة في القرآن الكريم ذُكرت في مواضع عديدة وبعناوين مختلفة، مثل: الحب، والولاء، وقد وضعت في النظرية الإسلامية خصوصية من الخصوصيات التي تشخّص جوهر العلاقة التي يجب أن تقوم بين المؤمنين وبين المحور الأول الذي يراد منه تحقيق الارتباط به وهو الله تعالى، ولذلك جعلت هذه المودة محوراً في علاقة المؤمن بالله تعالى، فكان المؤمن أشدّ حباً لله من الكافر، عندما يحب ربّه أو يحب من يعبده، كما كان من الواجب على المؤمن أن يقدم حبه لله تعالى على حبه لأقرب الأشياء إليه، كالآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والمساكن التي ترضونها والتجارة المربحة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١).

كما أصبح الحب لله تعالى سبباً ودليلاً على الإتباع للرسول والشريعة ليتحول ذلك سبباً لحب الله للإنسان نفسه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢)، فجوهر علاقة المؤمن بالله تعالى هي المودة.

ولذلك ورد في الحديث الشريف عن بريد بن معاوية العجلي قال: «كنت عند أبي جعفر عليه السلام إذ دخل عليه قادم من خراسان ماشياً فأخرج رجليه وقد تغلّفتا وقال: أما والله ما جاء بي من حيث جئت إلاّ حبكم أهل البيت، فقال أبو جعفر عليه السلام: والله لو أحبنا حجر حشره الله معنا، وهل الدين إلاّ الحبّ؟ إنَّ الله

---

(١) التوبة: ٢٤.

(٢) آل عمران: ٣١.

يقول: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وقال: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾(١) هل الدين إلاّ الحب؟ !»(٢).

فحب أهل البيت عليهم السلام دينٌ وليس لمجرد ما يتصفون به من صفات تجعلهم موضع الحب للناس، كالعلم، والفضل، والجهاد، والتقوى إلى غير ذلك، كما أنّه ليس عبارة عن مشاعر يستشعرها الإنسان في حبّه لكل فضل ولكل قيمة من العلم والجهاد والتقوى والطهارة والصلاح وما الى غير ذلك مما يتمتع به أهل البيت عليهم السلام، بل إنَّ حبهم دين يتدين به الإنسان؛ ولذا أكد الإمام عليه السلام في تعليقه على حب هذا المؤمن بقوله: «وهل الدين إلاّ الحب؟ »، يعني أنَّ الأصل هو الحب والمودة.

فآية المودة تتحدث عن تشخيص طبيعة العلاقة الدينية التي يجب أن تقوم بين المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام، فهي علاقة حبٍ، ولكنَّه حب له بُعده الديني والعقائدي، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بالولاء.

الآيتان الخامسة والسادسة: هما آيتا الخُمس والفيء، قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(٤).

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٦٧، ح٢٧. بحار الأنوار ٢٧: ٩٥ ، ح٥٧.

(٣) الأنفال: ٤١.

(٤) الحشر: ٧.

وهنا يوجد حديث واسع يذكره الفقهاء حول المقصود من (ذي القربى) الوارد في الآية الكريمة، هل المقصود خصوص أهل البيت عليهم السلام، أو المقصود منهم الأقربون للإنسان، بمعنى رحمه وأقربائه؟

والحق إن المقصود من ذي القربى من خلال الشواهد والقرائن القرآنية ـ وليس من خلال الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، أو الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وطرق العامة فحسب ـ هم أهل البيت عليهم السلام، فعنوان ذي القربى في الآيتين الكريمتين هم أهل البيت عليهم السلام[1].

وهنا قد يطرح تساؤل، وهو: كيف أصبح هذا القدر الكبير من المال ـ وهو الخمس ـ وهذا القدر الكبير من الفيء الذي أفاء الله سبحانه وتعالى به على رسوله من أهل القرى مختصاً بمجموعة محدودة من الناس، وهم أهل البيت عليهم السلام، فحتى المساكين وابن السبيل هم من أهل البيت؟

فهل يعبّر ذلك عن امتيازات طبقية، بحيث تصبح هذه الثروة الكبيرة بيد جماعة محدودة من الناس، مع أنَّ القرآن الكريم في ذات الآية الكريمة يقول: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾، أي: يريد تقسيم هذه الثروة على الناس لا أن يجمعها بيد جماعة معينة منهم، فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة الشرعية الاقتصادية؟!

إنَّ المقصود من وضع هذه الأموال بيد ذي القربى باعتبار خصوصية (الإمامة)، أي: أنَّ ذي القربى هنا هو الإمام والحاكم الإسلامي، فهو ليس منحة مالية تعطى لأرحام رسول الله بعنوان كونهم أرحاماً وأقرباء، أو أبناء رسول الله، بل باعتبارهم الأئمة والولاة والحكام للمسلمين، فهو مال يكون بيد الإمام والولي.

ولذلك يكون هذا المال مختصاً بالإمام من ذي القربى بعنوانه إماماً، ولا

---

(١) يمكن مراجعة الميزان في تفسير القرآن ٩: ١٠٣.

يشمل غيره من أرحام رسول الله أو أبنائه.

إذن، فهو مال مختص بمقام الولاية والإمامة، أي: بالجانب الحقوقي لذي القربى، لا بالجانب الحقيقي[1]، وأنَّ الخمس يتولى صرفه ولي أمر المسلمين، ومن يكون بيده ولاية أمورهم وشؤونهم[2]، لا أنَّ الخمس هو منحة لأرحام رسول الله ﷺ بما هم أرحامه، كما أنَّ السهم الذي يعطى للسادات من الخمس يعطى لهم كتعويض لهم عن الزكاة بمقدار ما يكفيهم، ويكون أمره بيد الإمام ـ أيضاً ـ لا أن يكون ملكاً لهم دون غيرهم من الناس.

وبهذا الشرح والاستدلال يمكن القول: إنَّ هاتين الآيتين تبيّن بُعد الولاية والحكم في أهل البيت عليهم السلام.

الآيتان السابعة والثامنة: هما آيتا الأسماء والكلمات، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4] حيث فسرتا في عدد من الروايات بأهل البيت عليهم السلام[5]، وبذلك يمكن

---

(١) وهنا يوجد بحث فقهي له مجال آخر، وهو: هل إنّ هذه الخصوصية تقييدية أو تعليلية؟ ولكنْ على كل حال اعتبرت خصوصية في الاستحقاق منه ﷺ.

(٢) وهذه هي فتوى كثير من مراجعنا العظام.

(٣) البقرة: ٣١.

(٤) البقرة: ٣٧.

(٥) مجمع البيان ١: ١٧٥. الكافي٨: ٣٠٥. معاني الأخبار: ١٢٥.

وفي كنز العمال ٢: ٣٥٨، ح٤٢٣٧: عن علي قال: «سألت النبي ﷺ عن قوله الله: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ فقال: إنّ الله أهبط آدم بالهند وحواء بجدة.. فعليك بهذه الكلمات فإن الله قابل توبتك وغافر ذنبك، قل: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد، سبحانك لا إله إلاّ أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم.. ».

وفي الدر المنثور ١: ٦٠: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ قال: «وأخرج ابن النجار عن ابن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب

إضافة بُعداً آخر في أهل البيت عليهم السلام يرتبط بأصل خلق الإنسان ووجوده على الأرض، وامتيازه على بقية المخلوقات وتسخيرها له وخضوعها لوجوده، فإن الأسماء هي التي أعطت آدم ـ باعتباره يمثل النوع الإنساني ـ هذا الامتياز، والكلمات هي التي أنقذته من الغضب الإلهي، وبها تحققت التوبة الإلهية عنه، ومكنته من الاستمرار في الحياة على الأرض.

وقد يكون لذلك ارتباط بما سوف نشير إليه في أدوار الأئمة، وما تحدثت عنه بعض أحاديث أهل البيت عليهم السلام المتقدمة آنفاً، من أنَّ الإمامة أمان لأهل الأرض، وبدونها تسيخ الأرض بأهلها، وبذلك يكون لأهل البيت عليهم السلام دور خاص في حياة الإنسان وحركته الكونية، وليس في الحالة الاجتماعية فحسب.

ويكمّل ويوضّح الصورة في هذا المجال الآيات الكريمة التي وردت في سورة الإنسان، وما ورد من نزولها في أهل البيت عليهم السلام، حيث يفهم من ذلك بُعد آخر في أهل البيت عليهم السلام، وهو ما يسمى بـ(العلة الغائية) وتحقيق الهدف التكاملي لحركة الإنسان ووجوده، وهو: وجود الإنسان العابد الذي يمثل القمة في التكامل العبودي لله تعالى، والذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]، ويصبح أهل البيت المثال والمصداق الكامل في تحقيق هذا الهدف الإلهي من خلق الجن والإنس.

سورة الإنسان وهدف الخلق

وسورة الإنسان تتحدث بصورة واضحة عن بداية خلق الإنسان، وأنّه جاء من العدم أو النسيان، حيث مضى حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وأن خلقه كان من نطفة أمشاجٍ، وضع الله سبحانه وتعالى له قانوناً يحكم مسيرته في هذه

عليه، قال: سأل بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تبت عليّ، فتاب عليه».

(١) الذاريات: ٥٦.

الأرض، وهو قانون الابتلاء في حركته وتكامله، وميزّه بالمواهب، كموهبة السمع والبصر اللتين تعبران عن موهبة العقل والعلم لديه، ومنحه صفة الاختيار والإرادة، فهو يختار الشكر أو الكفر، وزاد عليه من فضله نعمة الهداية له.

وبعد أن يذكر القرآن الكريم هذا السياق في خلقه الإنسان، وطبيعة السنّة التي تحكم مسيرته، والمواهب التي منحها الله تعالى إياه، ومنها: صفة الاختيار، ونعمة الهداية الإلهية.. يشير إلى قسمين من الناس:

أحدهما: الإنسان الشاكر.

والآخر: الإنسان الكافر.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[1].

ثم يتحدث القرآن الكريم عن مصير كل من القسمين، فيبدأ بالحديث عن مصير الكافرين ويثنّي بالحديث عن مصير الشاكرين.

وتتجسد حركة الشكر هذه ومصيرها في عباد الله الأبرار الذين يذكرهم القرآن الكريم، ومصيرهم في مثال إنساني كامل وهم أهل البيت عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ

(١) الإنسان: ٣.

نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾[1].

ويبدو من (السياق)، و (طريقة العرض)، و (تأكيد الحديث) في وصف الشاكرين، وتفصيل مصيرهم دون الكافرين... أنَّ المقصود من هذه السور هو بيان الهدف من خلقة الإنسان في صورة مثال خارجي يجسد وجود الجماعة الشاكرة التي يطلق عليها القرآن الكريم في هذه الآيات ـ أيضاً ـ عنوان (الأبرار) و(عباد الله).

أما (السياق) فإن الحديث عندما يكون عن الإنسان وأصل خلقه مما يشبه العدم، وسنة وجوده، وتعدد طريقه، يشكل كل ذلك قرينة يفهم منها أنَّ الغرض من الحديث هو بيان الغرض من الخلقة، ويؤيده ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2] وما ورد في نهاية قصة خلق آدم، من قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3].

وأما (طريقة العرض) فيلاحظ فيها ـ في البداية ـ تقديم عنوان الشاكر على الكافر، ولعل ذلك لشرفه على الكافر، ولكن في الحديث عنهما قدم الحديث عن الكافر على الحديث عن الشاكر، في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾[4]، ولكن جاء الحديث عنه بصورة مختصرة، أما الحديث عن

---

(١) الإنسان: ٥ ـ ٢٢، يراجع في نزول الآيات تفسير القمي٢: ٣٩٨. مجمع البيان١٠: ٢٠٦. وفي الدر المنثور٦: ٢٩٩قال: «وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: (ويطعمون الطعام على حبه) الآية، قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ».

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) البقرة: ٣٨ ـ ٣٩.

(٤) الإنسان:٤.

الشاكرين، فقد جاء فيه تفصيل، مما يشعر بأنّ الهدف الأساس من السورة هو الحديث عن الشاكرين.

وتتضح هذه القرينة عندما نقارن هذا المقطع مع مقاطع قرآنية أُخرى تحدثت عن هذين القسمين بشيء من التفصيل فيهما، عندما يكون المقصود بيان المشاهد الأخروية لهما معاً، كما يلاحظ ذلك في سورة الأعراف، والزمر، والغاشية، وغيرها، ففيهنّ قد اختلف العرض بصورة واضحة في التفصيل عن الكافرين دون المؤمنين، مع تقديم الحديث عن الكافرين فيها.

وأما (تأكيد الحديث) في وصف الشاكرين، فيلاحظ فيه أنَّ القرآن الكريم:

أولاً: إستخدم عنواني (العباد) و(الأبرار)، وليس مجرد عنوان (الإيمان) وهما من العناوين الخاصة التي تدل على الدرجة العالية من الكمالات الإلهية في العبودية لله تعالى[1].

ثانياً: قرن الوصف المفهومي العام بتجسيده في مصداق خارجي ـ كما هو ظاهر العرض ـ يتصف بدرجة عالية من الأخلاق والحب والوفاء والتضحية والبذل والرحمة والخوف من الله تعالى والرجاء له، ثم الدرجة العالية من الأجر والثواب والجزاء له.

ويجمع المفسرون من جماعة أهل البيت عليهم السلام، كما يذكر جمع من المفسرين وأهل الحديث من الجمهور[2]، أنَّ هذا المصداق هو أهل البيت عليهم السلام الذين نذروا الصوم لله تعالى ثلاثة أيام، وتعرضوا للسائلين الثلاثة (المسكين، واليتيم، والأسير)، وبذلهم لطعامهم المعد من الشعير للإفطار، الذي كانوا قد حصلوا عليه

---

(١) يراجع في توضيح ذلك، الميزان في تفسير القرآن ١: ٤٢٨، في تفسير الآية ١٧٧، من سورة البقرة.

(٢) ومنهم: ابن الأثير في أسد الغابة ٥: ٥٣٠، والزمخشري في الكشاف٤: ١٩٧، والواحدي في اسباب نزول الآيات: ٢٩٦، والفخر الرازي في تفسيره الكبير ٣٠: ٢٤٤، والسيوطي في الدر المنثور ٦: ٢٩٩. راجع فضائل الخمسة ١: ٣٠١.

بالقرض أو الأجر، وهم لا يجدون غيره، ويفطرون أيامهم الثلاثة على الماء وحده.

إذن، فالهدف الذي تذكره هذه السورة لخلق الإنسان ووجوده وحركته في هذه الحياة، هو إيجاد الإنسان الشاكر الكامل في شكره، والعابد الكامل في عبوديته وعبادته، والبار الكامل في بره.

وإنَّ التجسيد لذلك خارجاً إنَّما هو في هذا المصداق المثال الإنساني المتمثل بأهل البيت ﷺ.

وهذا الفهم لهذا البُعد ـ البُعد الذي يرتبط بأصل الخلقة والوجود الإنساني ـ في أهل البيت ﷺ هو ما تؤكده ـ أيضاً ـ مجموعة كبيرة من النصوص الواردة عن النبي ﷺ وأهل البيت ﷺ، كما سوف نشير إلى ذلك في ما يأتي إن شاء الله.

وبذلك تتكامل النظرية في أهل البيت قرآنياً وتتكامل الصورة لأهل البيت ﷺ وموقعهم وحقيقتهم في أبعادها المتعددة التي شرحتها الروايات، ويستدل عليها من القرآن الكريم بالآيات الكريمة التي ذكرناها.

هذا كله في الطائفة الأولى من الآيات الكريمة.

الطائفة الثانية: القرآن وتطبيقات النظرية

الآيات الكريمة التي كان أهل البيت ﷺ سبباً في نزولها، حيث تقع حادثة من الحوادث في مسيرة المسلمين تكون سبباً لنزول بعض آيات القرآن الكريم فيها بالخصوص، أو بصورة عامة، وعندما تكون الحادثة ذات علاقة بأهل البيت ﷺ أو بأحدهم، تصبح الآية من هذه الطائفة من الآيات[1].

وأشير هنا إلى مجموعة من هذه الآيات الكريمة، كمثال على هذه الطائفة من

(١) ويلاحظ في هذه الطائفة أنَّ بعض الآيات نزلت في أهل البيت ﷺ بصورة عامة، وبعضها نزلت في خصوص الإمام علي ﷺ كرمز لأهل البيت ﷺ في ذلك الوقت، ولعل أكثر آيات هذه الطائفة من النوع الثاني، ولذا يمكن تقسيمها إلى قسمين. أو جعلها طائفة واحدة عند الجمع بين هاتين الحالتين. منه ﷺ.

الآيات:

المثال الأول: الآيات في سورة الإنسان، هذا إذا لم نجعلها ـ كما فعلنا ـ من الطائفة الأولى[١]، وهي بذلك تمثل بُعد الهدف في النظرية.

المثال الثاني: ما ورد في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٢]، فالآية تدل ـ كما تشير مجموعة من أحاديث أهل البيت عليهم السلام على أنّ الشهداء على الناس يراد منهم أهل البيت عليهم السلام، وهي بذلك تصبح من الطائفة الأولى ـ أيضاً ـ ولكن إذا قلنا أنّ السبب في نزولها هو أهل البيت عليهم السلام فتكون من الطائفة الثانية.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾[٣]، حيث نزلت الآية الكريمة في عليّ عليه السلام؛ باعتباره الشاهد الذي يتلو رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ـ أيضاً ـ من رسول الله صلى الله عليه وآله لأنّه نفس رسول الله صلى الله عليه وآله بدلالة آية المباهلة.

وقد أخرج السيوطي في الدر المنثور نزول هذه الآية في عليّ عليه السلام من عدة طرق[٤]، كما ذكر ذلك ـ أيضاً ـ المتقي الهندي في كنز العمال[٥]، وكذلك أشار إليه الفخر الرازي في الوجه الثالث من تفسير الشاهد[٦].

وأكد ذلك الطبرسي في مجمع البيان، وذكر رواية عن أبي جعفر الباقر وأبي الحسن علي بن موسى الرضا عليهما السلام، ونقله عن الطبري، ونقل في تأويل الآيات

---

(١) وذلك لأن الضمائر إذا فسرت فيها بأهل البيت فهي من الطائفة الأولى، وإذا فسرت بصورة عامة فهي من الطائفة الثانية. منه قدس سره.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) هود: ١٧.

(٤) راجع الدر المنثور ٣: ٣٢٤.

(٥) كنز العمال ٢: ٤٣٤ـ ٤٣٩، ٤٤٢٩ـ ٤٤٤١.

(٦) تفسير الرازي١٧: ٢٠١.

الظاهرة عن ابن طاووس في سعد السعود عن محمد بن العباس، أنّه روى في كتابه من ستة وستين طريقاً بأسانيدها نزولها في علي عليه السلام[١].

المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[٢]، حيث إنّ المراد من قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو الإمام علي عليه السلام، فقد روى الكليني بسند معتبر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قال: «إيّانا عنى، وعليّ أوّلنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله»[٣].

المثال الخامس: الآيات التي وردت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٤]، فإن هذه الآيات التي تدل على ولاية الإمام علي عليه السلام وضرورة ولائه مقارناً بولاية الله ورسوله وولاء الله ورسوله، نزلت بسبب تصدقه في الركوع، عندما جاءه سائل في الصلاة، فتصدق عليه بخاتمه أو بردائه.

فقد ذكر الفخر الرازي في ذيل تفسير هذه الآيات: « وقال قوم: إنّها نزلت في علي عليه السلام. ثم قال: ويدل عليه وجهان:

الأول: إنّه عليه السلام لما دفع الراية إلى علي عليه السلام يوم خيبر قال: «لأدفعن الراية غداً

(١) مجمع البيان٥: ٢٥٥. تأويل الآيات١: ٢٢٥.

(٢) الرعد: ٤٣.

(٣) الكافي١: ٢٢٩، ح٦. دعائم الإسلام١: ٢٢.

(٤) المائدة: ٥٤ ـ ٥٦.

إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»[1]، وهذا هو الصفة المذكورة في الآية.

والوجه الثاني: إنه تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ وهذه الآية في حق علي عليه السلام، فكان الأولى جعل ما قبلها أيضاً في حقه»[2].

وقد أجمع علماء أهل البيت أنَّ آيتي الولاية نزلت في علي عليه السلام، كما روي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[3].

ويؤيد هذا القول أنَّ النبي وصفه بهذه الصفات المذكورة في الآية: فقال فيه وقد ندبه لفتح خيبر ـ بعد أن ردَّ عنها حامل الراية إليه مرة بعد أُخرى وهو يجبّن الناس ويجبنونه ـ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله، كراراً غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه»، ثم أعطاها إياه. وأما وصفه باللين على أهل الإيمان والشدة على الكفار والجهاد في سبيل الله، وأنّه لا يخاف فيه لومة لائم[4]، فمما لا يمكن لأحدٍ دفع عليٍّ عليه السلام عن استحقاق ذلك، لما ظهر من شدته على أهل الشرك والكفر، ونكايته فيهم ومقاماته المشهورة في تشيد الملة

---

(١) ويؤكد هذا الاستظهار أنَّ هذا الوصف الذي ذكره رسول الله كان في حادثة مهمة استطالت لها أعناق كبار المسلمين، بعد فشلهم في فتح الحصن المذكور، بحيث يمكن أن نقول: إنَّ ذلك أصبح وصفاً معروفاً للإمام علي عليه السلام، مما يشكل ظهوراً عرفياً في المجتمع في فهم الآية الكريمة، ولاسيماعندما يضاف إليها الوجه الثاني الذيّ ذكره. منه رحمه الله.

(٢) تفسير الرازي١٢: ٢٠.

وذكر ابن عساكر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ روايتين أنّها نزلت في حق علي عليه السلام. تاريخ مدينة دمشق٤٢: ٣٥٧.

(٣) الكافي ١: ٢٨٨ـ ٢٨٩، ح٣ و٤.

(٤) كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

ونصرة الدين والرأفة بالمؤمنين.

ويؤيّد ذلك أيضاً إنذار رسول اله ﷺ قريشاً بقتال عليّ عليه السلام لهم من بعده، حيث جاء سهيل بن عمرو في جماعة منهم فقالوا له: «يا محمد إنّ ارقّاءَنا لحقوا بك فارددهم علينا، فقال رسول الله: لتنتهين يا معشر قريش أو ليبعثن الله عليكم رجلاً يضربكم على تأويل القرآن كما ضربتكم على تنزيله، فقال له بعض أصحابه: من هو يا رسول الله، أبو بكر؟ قال: لا، قال: فعمر؟ قال: لا، ولكنّه خاصف النعل في الحجرة»[1] وكان عليٌّ يخصف نعل رسول الله ﷺ.

كما ذكر في تأويل الآيات الظاهرة: «اتفقت روايات العامة والخاصة على أنّ المعني بـ(الذين آمنوا) أنّه أمير المؤمنين عليه السلام لأنه لم يتصدق أحد وهو راكع غيره»[2].

كما نقل ابن طاووس: أنّ محمد بن العباس يروي حكاية نزول الآية الكريمة ـ آيتي الولاية والولاية العظيمة ـ من تسعين طريقاً، وذكر ثلاثة من هذه الروايات[3] وكذلك ذكر صاحب إحقاق الحق مجموعة كثيرة وبأسانيد متصلة كلها من رواة جمهور المسلمين، ثم عدّد الرواة وسماهم[4].

وتدل هذه الآيات على بُعد الشهادة والاصطفاء.

المثال السادس: ما ورد من قوله تعالى ـ في سياق الحديث عن بعض أزواج النبي، وموقفهن من إفشاء الأسرار والتصرف بما لم يرض الله ورسوله، في مقام الوعظ والتهديد لهن ـ: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[5]، حيث ذكر

---

(١) مجمع البيان ٣: ٣٥٨. المستدرك ٣: ١٢٢. تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٤٢. مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٢) تأويل الآيات ١: ١٥١، وذكر بعض الروايات عن الخاصة، وفي مراجعتها الكثير من الفائدة.

(٣) سعد السعود: ٩٦.

(٤) ومن رام التفصيل فليراجع شرح إحقاق الحق ٢: ٣٩٩.

(٥) التحريم: ٤.

المفسرون ـ شيعة وسنة ـ أنَّ هذه الآية الكريمة نزلت في عليٍّ، وأنَّ المراد بـ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هو عليٌّ عليه السلام[1].

فقد روى السيوطي في ذيل تفسير الآية الكريمة عن أسماء بن عميس وابن عباس ـ بطرق متعددة ـ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هو عليُّ بن أبي طالب»[2].

كما روي ذلك أيضاً في كنز العمال عن علي، «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله تعالى ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال: هو عليّ بن أبي طالب»[3].

ونقل الهيثمي في مجمعه قال: « وعن حبيب بن يسار قال: لما أصيب الحسين بن علي عليه السلام قام زيد بن أرقم على باب المسجد فقال: أفعلتموها؟ !! أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: اللهم إني استودعكهما وصالح المؤمنين»[4].

وبذلك تصبح هذه الآية الكريمة مؤكدة لآيات الولاء والولاية، وتدل في الوقت نفسه مع الآيات السابقة على بُعد الامتداد للرسالة في الإمام علي عليه السلام، لأنه امتداد لله تعالى وللرسول صلى الله عليه وآله، كما تدل على الامتياز بالتقوى التي هي الأصل في كل تكريم إلهي، وتطبيق ذلك على علي عليه السلام.

المثال السابع: قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ

---

(١) قال الطبرسي: «ووردت الرواية من طريق الخاص والعام أنّ المراد بصالح المؤمنين أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو قول مجاهد».

وفي كتاب شواهد التنزيل بالإسناد عن سدير الصيرفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لقد عرّف رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أصحابه مرتين، أما مرّة فحيث قال: من كنت مولاه فعلي مولاه. وأما الثانية فحيث نزلت هذه الآية: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية، أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد علي عليه السلام فقال: أيها الناس هذا صالح المؤمنين» راجع مجمع البيان١٠: ٥٩.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٤٤.

(٣) كنز العمال ٢: ٥٣٩، ح٤٦٧٥.

(٤) مجمع الزوائد ٩: ١٩٤.

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١)، نزلت هذه الآية الكريمة في علي والعباس وطلحة، حيث افتخر كل واحد منهم بشيء، «فقال طلحة: أنا صاحب البيت الحرام بيدي مفتاحه ولي ثياب بيته، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي عليه السلام: ما أدري ما تقولان، لقد صليت ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد»، فأنزل الله تعالى هذه الآية والآية التي تليها.

وقد روى ذلك الواحدي في اسباب نزول الآيات، والطبري في تفسيره، وذكره الفخر الرازي في ذيل هذه الآية، وتفسير سورة التكاثر، والسيوطي في الدر المنثور، من عدة طرق وصور(٢).

المثال الثامن: ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾(٣)، حيث فُسر ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ بأهل البيت عليهم السلام، في مجموعة من الروايات المعتبرة الواردة عنهم عليهم السلام(٤).

وكلتا الآيتين تؤكدان بُعد الامتياز بالعلم، والإيمان، والجهاد، وهي أبعاد أكدها القرآن الكريم في عدة مواضع، وأنَّها سبب للامتياز الحقيقي، وفي هاتين الآيتين تطبيق لذلك على علي عليه السلام.

المثال التاسع: ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾(٥)، وقد فُسر (الهادي) بعلي عليه السلام فقد روى الحاكم في مستدرك الصحيحين، عن علي عليه السلام: «قال علي: رسول الله صلى الله عليه وآله المنذر

---

(١) التوبة: ١٩.

(٢) أسباب نزول الآيات:١٦٤. جامع البيان ١٠: ١٢٤، ح١٢٨٦٥. تفسير الرازي١٦: ١١. الدر المنثور٣: ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٣) آل عمران: ٧.

(٤) تأويل الآيات١: ٩٩ ـ ١٠٠، ح ٢ و ٣ و ٤.

(٥) الرعد: ٧.

وأنا الهادي، أي الحاكم. هذا حديث صحيح الاسناد»[(١)].

وذكر ذلك عنه ـ أيضاً ـ المتقي في كنز العمال والهيثمي في مجمعه، إلاّ أنّه ذكر بأنّ الهادي رجل من بني هاشم، يعني به نفسه عليه السلام.

كما رواه الطبري والفخر الرازي والسيوطي والمتقي في كنز العمال عن الديلمي عن ابن عباس، قال: «لما نزلت ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ وضع صلى الله عليه وآله يده على صدره فقال: أنا المنذر، ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ وأومأ بيده إلى منكب علي، فقال: أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون بعدي»[(٢)].

و﴿ هَادٍ ﴾ هنا في الوقت الذي تدل على بُعد الاصطفاء، تدل ـ أيضاً ـ على بُعد الامتداد للرسول في مهمات الرسالة.

المثال العاشر: قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾[(٣)] فإنها نزلت في علي عليه السلام والوليد بن عقبة بن أبي معيط، فقد روى الطبري عن عطاء بن يسار: «كان بين الوليد وبين علي كلام، فقال الوليد بن عقبة: أنا أبسط منك لساناً، وأحدّ منك سناناً، وأردّ منك للكتيبة، فقال علي عليه السلام: اسكت فإنك فاسق. فانزل الله فيهما: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟

---

(١) المستدرك٣: ١٢٩.

(٢) تفسير الرازي١٩: ١٤. الدر المنثور٤: ٤٥ ومن عدة طرق. كنز العمال٢: ٤٤١، ح٤٤٤٣، باختلاف في اللفظ، وكذلك رواه ابن عساكر في تاريخه٤٢: ٣٥٩، حيث جاء ما لفظه: «عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قال النبي صلى الله عليه وآله: أنا المنذر وعلي الهادي، بك يا علي يهتدي المهتدون».

ويمكن جعله من الطائفة الثالثة لما ورد عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «المنذر رسول الله صلى الله عليه وآله، والهادي أمير المؤمنين عليه السلام وبعده الأئمة عليهم السلام، وهو قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾»، تفسير القمي١: ٣٥٩.

(٣) السجدة: ١٨.

عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[١] وذكر ذلك الزمخشري والسيوطي والواحدي والخطيب البغدادي[٢].

وهذا يدل على الامتياز الخاص لعلي عليه السلام.

المثال الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ﴾[٣] نزلت في الإمام علي عليه السلام عندما بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة هجرته إلى المدينة المنورة، فقد روى ذلك الرازي في تفسيره[٤] وذكره في أسد الغابة بسنده عن الثعلبي[٥].

وروي عن ابن عباس قال: «نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب حين هرب النبي صلى الله عليه وآله عن المشركين إلى الغار ونام علي عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله..»[٦].

---

(١) جامع البيان٢١: ١٢٩، ح٢١٥٣٢..

(٢) الكشاف ٣: ٢٤٥. الدر المنثور ٥: ١٧٨. تاريخ بغداد١٣: ٣٢٣، ح٧٢٩١. أسباب نزول الآيات: ٢٣٦.

(٣) البقرة: ٢٠٧.

(٤) تفسير الرازي ٥: ٢٢٣.

(٥) قال: «رأيت في بعض الكتب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما أراد الهجرة خَلَفَ علي بن أبي طالب بمكة لقضاء دونه ورد الودائع التي كانت عنده، وأمره ـ ليلة خرج إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار ـ أن ينام على فراشه، وقال له: إتشح ببردي الحضرمي الأخضر فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء الله تعالى، ففعل ذلك فأوحى الله إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام : إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله عزّ وجلّ إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبيي محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه، فنزلا فكان جبريل عند رأس علي، وميكائيل عند رجله، وجبريل ينادي: بخ بخ، من مثلك يابن أبي طالب يباهي الله عزّ وجلّ به الملائكة. فأنزل الله عزّ وجلّ على رسوله ـ وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ﴾» أسد الغابة٤: ٢٥، وذكره غير واحد من علماء الجمهور.

(٦) مجمع البيان ٢: ٥٧.

المثال الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾(1) حيث ورد تفسيرها في علي عليه السلام. ذكر الواحدي عن أبي سعيد الخدري قال: «نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ... ﴾ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب عليه السلام»(2).

وكذلك جاء في تفسير الرازي في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾: «العاشر ـ من الوجوه التي قالها المفسرون في نزولها ـ نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه، فلقيه عمر فقال: هنيئاً لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»(3).

المثال الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾(4)، حيث اتفق

---

(1) المائدة: ٦٧.

(2) أسباب نزول الآيات: ١٣٥.

(3) تفسير الرازي١٢: ٤٩ ـ ٥٠.

وجاء عن العياشي عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، قالا: أمر الله محمداً صلى الله عليه وآله أن ينصب علياً عليه السلام للناس.. فأوحى الله إليه هذه الآية فقام بولايته يوم غدير خم.

وذكر صاحب شواهد التنزيل عن ابن عباس قال: «نزلت هذه الآية في علي عليه السلام فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيده عليه السلام فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وكذلك رواها الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس مثله، مجمع البيان٣: ٣٨٢.

وكذلك ذكر صاحب إحقاق الحق٦: ٢٤٩ ـ ٢٥٧، أكثر من ثلاثين طريقاً من كتب الجمهور في تفسير هذه الآية، أنها نزلت تأكيداً لولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وذكر ابن عساكر تصديقاً لحديث الغدير عن أبي فاخته، قال: «أقبل علي وعمر جالس في مجلسه فلما رآه عمر تضعضع وتواضع وتوسع له في المجلس، فلما قام علي قال بعض القوم: يا أمير المؤمنين إنك تصنع بعلي صنيعاً ما تصنعه بأحد من أصحاب محمد. قال عمر: وما رأيتني أصنع به؟ قال: رأيتك كلما رأيته تضعضعت وتواضعت وأوسعت حتى يجلس. قال: وما يمنعني والله إنه لمولاي ومولى كل مؤمن» تأريخ مدينة دمشق٤٢: ٢٣٥.

(4) المائدة: ٣.

المفسرون من علماء الجمهور وعلماء أهل البيت أنّها نزلت في الإمام علي عليه السلام، ذكر ذلك السيوطي في ذيل تفسير هذه الآية، قال: «وأخرج ابن مردويه، وابن عساكر... عن أبي سعيد الخدري قال: لما نصب رسول الله صلى الله عليه وآله علياً يوم غدير خم فنادى له بالولاية، هبط جبريل عليه بهذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾». وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر... عن أبي هريرة، قال: «لمّا كان يوم غدير خم... قال النبي صلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فعلي مولاه فأنزل الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾»[1].

وهاتان الآيتان تؤكدان بُعد الولاية بصورة أوضح.

المثال الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾[2]، وقد ورد أنّه لم يعمل بهذا الأمر الإلهي أحدٌ إلاّ علي بن أبي طالب عليه السلام، لأنّه قد نسخ هذا الأمر بعد ذلك[3]، حيث اتفق علماء التفسير من الفريقين على أنّها نزلت في علي عليه السلام.

فقد رواه الطبري في تفسيره، عن مجاهد، وذكره الواحدي في اسباب نزول الآيات، والفخر الرازي في تفسيره. وفي موضع ثانٍ من تفسيره، عن ابن جريح والكلبي وعطاء، عن ابن عباس، وكنز العمال عن عامر بن واثلة، والسيوطي في الدر المنثور في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ قال: وأخرج سعيد بن منصور.. والحاكم صححه عن

---

(١) الدر المنثور٢: ٢٥٩. تأريخ مدينة دمشق٤٢: ٢٣٧.

(٢) المجادلة: ١٢.

(٣) فقد ذكر العلامة الطباطبائي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾، قال: «الآية ناسخة لحكم الصدقة المذكور في الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾، وفيه عتاب شديد لصحابة النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين، حيث إنّهم تركوا مناجاته صلى الله عليه وآله خوفاً من بذل المال بالصدقة، فلم يناجه أحد منهم إلا عليّ عليه السلام فإنّه ناجاه عشر نجوات كلما ناجاه قدم بين يدي نجواه صدقة، ثم نزلت الآية ونسخت الحكم» الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٨٩.

علي عليه السلام[(١)].

الطائفة الثالثة: القرآن ومصاديق النظرية

هي الطائفة من الآيات التي جرى تطبيقها على أهل البيت عموماً أو على عليّ عليه السلام بالخصوص، بمعنى أنّه جرى تأويلها فيهم وأنّهم أظهر المصاديق أو المصداق الخاص في هذه الأُمة لها، والأمثلة على ذلك عديدة نذكر بعضها:

المثال الأول: ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[(٢)]، حيث ورد تفسيرها في أهل البيت عليهم السلام، كما رواه الطبري في تفسيره، عن جابر الجعفي، قال: «لما نزلت: ﴿ ... فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، قال علي عليه السلام: نحن أهل الذكر»[(٣)].

وبهذا تدل الآية على بُعد الشهادة والهداية والاصطفاء.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[(٤)]، حيث ورد في تفسير هذه الآية أنّ خير البرية هو علي عليه السلام وشيعته.

فقد روى ابن جرير الطبري عن أبي الجارود عن محمد بن علي الباقر عليه السلام:

---

(١) قال: «إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾، كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكنت كلما ناجيت النبي صلى الله عليه وآله قدمت بين يدي درهماً، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد.. ».

اسباب نزول الآيات: ٢٧٦. تفسير الرازي٢٩: ٢٧١ ـ ٢٧٢. كنز العمال٢: ٥٢١، ح٤٦٥١. المستدرك٢: ٤٨٢.

وروى الزمخشري في تفسيره لهذه الآية، قال: «عن ابن عمر كان لعلي ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وأعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى». الكشاف٤: ٧٦.

(٢) النحل: ٤٣. الأنبياء: ٧.

(٣) جامع البيان١٤: ١٤٥، و١٧: ٨. وفي الرواية الأولى لم يرد (قال: علي).

(٤) البينة: ٧.

«﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ فقال النبي ﷺ: أنت يا علي وشيعتك»[١].

كما روى ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: «كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي بن أبي طالب، فقال النبي ﷺ: قد أتاكم أخي، ثم التفت إلى الكعبة فضربها بيده ثم قال: والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ثم قال: إنّه أولكم إيماناً معي، وأوفاكم بعهد الله، وأقومكم بأمر الله، وأعدلكم في الرعية، وأقسمكم بالسوية، وأعظمكم عند الله مزية. قال: ونزلت ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾، قال: فكان أصحاب محمد ﷺ إذا أقبل علي قالوا: جاء خير البرية»[٢].

ورواه عن أبي سعيد مرفوعاً عن ابن عباس، وابن حجر في الصواعق المحرقة عن الزرندي عن ابن عباس، وذكره الشبلنجي في نور الأبصار[٣].

وبذلك تدل هذه الآية على بُعد (الهدف) من وجود الإنسان.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[٤]، حيث ورد في تفسير ذلك أنّ المراد من ﴿ ٱلسِّلۡمِ ﴾ هو ولاية أهل البيت عليهم السلام، أو ولاية علي عليه السلام، فقد روى الشيخ الكليني عن أبي جعفر: في قول الله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ قال: «في ولايتنا»[٥].

---

(١) جامع البيان ٣٠: ٣٣٥، ح٢٩٢٠٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٧١. الدر المنثور ٦: ٣٧٩ مع اختلاف يسير.

(٣) الصواعق المحرقة ٢: ٤٦٧. نور الأبصار: ٨٩، كلاهما باختلاف يسير عما رواه السيوطي، وتصبح هذه الآية الكريمة من الطائفة الثانية، بناءً على الرواية الثانية التي رواها ابن عساكر والسيوطي وغيره.

(٤) البقرة: ٢٠٨.

(٥) الكافي ١: ٤١٧، ح٢٩.

وتفسيره هو ما ورد في الحديث القدسي الذي رواه جماعة عن أهل البيت عليهم السلام من قوله تعالى: «ولاية عليّ بن أبي طالب حصني، فمن دخل حصني أمن من ناري»[١].

المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[٢]، حيث ورد تطبيق هذه الآية الشريفة على أهل البيت عليهم السلام، عن بريد بن معاوية العجلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾[٣] قال: «إيّانا عنى، أن يؤدّي الأول إلى الإمام الّذي بعده الكتب والعلم والسلاح ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ الّذي في أيدكم، ثمّ قال للناس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ إيّانا عنى خاصّة، أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا...»[٤].

وبذلك تدل هاتان الآيتان على بُعد الولاية.

المثال الخامس: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٥]، فقد روى الكليني عن بريد بن معاوية العجلّي قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ قال: إيّانا عنى»[٦].

وأخرج السيوطي في الدر المنثور في ذيل تفسير هذه الآية عن ابن عباس في

---

(١) أمالي الصدوق: ٣٠٦ ، ح٣٥٠. بحار الأنوار ٣٩: ٢٤٦ ، ح١، وفيه: «عذابي» بدل «ناري».

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) النساء: ٥٨.

(٤) الكافي ١: ٢٧٦، ح١، وتؤيده الرواية: ٢، ٣ في الكتاب نفسه، وكذلك كتاب تأويل الآيات ١: ١٣٤ ـ ١٤٠.

(٥) التوبة: ١١٩.

(٦) الكافي ١: ٢٠٨ ، ح١.

قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، قال: «مع علي بن أبي طالب»[١].

وكذلك أخرج ابن عساكر في تاريخه، عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، قال: «مع علي بن أبي طالب»[٢].

وبهذا تدل الآية على بُعد الولاء والمودة.

فقد ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخه، كلاهما عن ابن عباس، قال: نزلت في علي عليه السلام ثلاثمائة آية[٣].

وكذلك ذكر ابن حجر في الصواعق المحرقة، والشبلنجي في نور الأبصار، وابن عساكر[٤]، عن ابن عباس قال: ما نزل في شأن أحد من كتاب الله ما نزل في علي.

ونكتفي بهذا المقدار من الأمثلة لهذه الطائفة، حيث إنَّ مجال التأويل فيها واسع، وقد وردت النصوص من كلا الطرفين ـ العامة والخاصة ـ في هذا التأويل لمئات من الآيات الكريمة، كما أشرنا إلى ذلك في بداية الحديث.

الدليل الثاني: الاستدلال بروايات الجمهور

ويمكن الاستدلال على إمامة أهل البيت عليهم السلام بروايات الجمهور، وهي الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله في اختصاص أهل البيت عليهم السلام بالإمامة من طرق

---

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩٠.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٦١.

(٣) تاريخ بغداد ٦: ٢١٩، ح٣٢٧٥. تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٦٤، ومن أراد أن يرجع إلى الروايات التي وردت في شأن هذه الآيات الكريمة، يمكن أن يرجع إلى كتاب (فضائل الخمسة في الصحاح الستة)، حيث يذكر جملة من المصادر لما ورد في تفسير مجموعة من هذه الآيات الشريفة في فضل أهل البيت عليهم السلام وعلي عليه السلام من طرق الجمهور، وكذلك كتاب (تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة)، في ذكر الروايات التي وردت من طرق أهل البيت عليهم السلام وغيرهم في تفسير الآيات التي وردت بشأنهم.

(٤) الصواعق المحرقة ٢: ٣٧٣. نور الأبصار: ٩٠. تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

العامة[1]، أو ما يمكن أن نعبّر عنه بمدرسة (عموم الصحابة) الذين طرحوا كمرجع لمعرفة الإسلام في مقابل مرجعية أهل البيت عليهم السلام[2].

فقد وردت روايات كثيرة من طرقهم تدل على اختصاص الإمامة بأهل البيت عليهم السلام.

ملاحظات مهمة

وقبل الدخول في عرض هذه الروايات نشير إلى عدة ملاحظات مهمة لها علاقة بفهم هذه الروايات والاستدلال بها:

الملاحظة الأولى: حول المقصود من أهل البيت في هذه الروايات، فهل يشمل هذا العنوان نساء النبي صلى الله عليه وآله أو أنه يشمل أقرباءه صلى الله عليه وآله من أولاد عمومته ـ وهم بنو هاشم ـ أو له مدلول آخر؟

ويبدو من مجموع الروايات أنَّ المقصود من عنوان (أهل البيت عليهم السلام) المطروح

(١) لا يرتاح أهل السنة إلى إطلاق كلمة (العامة) عليهم، حيث يفترضون أنّ التعبير بذلك عنهم يعني اتهامهم بالعامية، ولكن لا يراد من كلمة العامة العوام، وإنّما يراد منه عموم الناس، في مقابل (الخاصة) الذين هم شيعة أهل البيت عليهم السلام والمعتقدين بإمامتهم، باعتبار أنّ جمهور الناس وعمومهم كانوا في ذلك الوقت لا يؤمنون بإمامة أهل البيت عليهم السلام. منه قدس سره.

(٢) يلاحظ في موضوع (المرجعية الفكرية) وتشخيص من يتم الرجوع إليه لمعرفة الإسلام، أنّ هناك ـ بعد الاتفاق على مرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية ـ مدرستين واتجاهين:

الاتجاه الأول: يذهب إلى امكان الرجوع الى عموم الصحابة في هذا الأمر، وقد تبنى هذا الاتجاه جمهور المسلمين الذين يطلق عليهم (أهل السنّة) ، وغالبيتهم الفعلية ترى عدالة عموم الصحابة، بل يرى الكثير منهم أنّ عمل الصحابي يمكن الرجوع إليه في معرفة الحكم الشرعي، إذا لم يكن هناك نص واضح يخالفه.

الاتجاه الثاني: يذهب إلى أنّ الرجوع إنما يكون لأهل البيت عليهم السلام ، ومنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّ الأخذ لابد أن يكون عن طريق الثقاة من أصحابهم دون الفرق بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أو غيره. منه قدس سره.

في زمن رسول ﷺ هم: رسول الله ﷺ، وابنته فاطمة الزهراء، وعلي، وولداه الحسن والحسين عليهما السلام.

وأفضل حديث يدل على هذه الحقيقة بصورة واضحة وكاملة هو حديث الكساء، الذي يكاد أن يكون متواتراً في روايته من طرق العامة، فضلاً عن طرق الخاصة، وقد ورد ـ هذا الحديث ـ في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]، حيث ورد في الحديث أنَّ رسول الله ﷺ منع زوجه أُم سلمة ـ وهي من أفضل أزواجه ـ من الدخول تحت الكساء، حرصاً منه على تأكيد اختصاص هذا العنوان بهذه المجموعة المعينة، وأنَّهم هم أهل البيت).

كما أنَّ هناك الكثير من الروايات الأخرى تذكر هذه الأسماء لهذا العنوان، وبعضها تذكر أسماء بقية أئمة أهل البيت عليهم السلام تبعاً لهم، وبعضها لا يستخدم عنوان أهل البيت عليهم السلام، وإن كان يؤكد هذه الحقيقة، حين يذكر الأسماء الخمسة بعنوان أنَّها أسماء مقدسة وطاهرة، كالروايات التي وردت في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2]، حيث يذكر في تفسير الكلمات، الأسماء الخمسة المقدسة: النبي ﷺ، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام[3]، ولكن لا يذكرها بعنوان أهل البيت.

ولكن بعض هذه الروايات ليست بهذا المستوى من السند والتظافر والتواتر.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

فقد ورد في تفسير الآية عن أم سلمة قالت: «جاءت فاطمة عليها السلام إلى النبي ﷺ تحمل حريرة لها فقال: ادعي زوجك وابنيك، فجاءت بهم فطعموا، ثم ألقى عليهم كساءاً له خيبرياً فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وعترتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فقلت: يا رسول الله وأنا معهم، قال: أنت إلى خير». راجع مجمع البيان ٨: ١٥٦، وشواهد التنزيل٢: ١٨ ـ ١٣٩، فقد جاء فيه روايات الفريقين.

(٢) البقرة: ٣٧.

(٣) راجع شواهد التنزيل١: ١٠١ ـ ١٠٢. تأويل الآيات١: ٤٦ ـ ٤٨.

أما حديث الكساء، فإنّه يطبّق عنوان أهل البيت عليهم السلام على هؤلاء الخمسة تطبيقاً كاملاً، من جانب الإيجاب وهو: انطباق العنوان عليهم، وجانب السلب في إخراج غيرهم منهم[١].

فمن خلال الرجوع إلى النصوص نرى من الواضح انطباق عنوان أهل البيت في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله على هؤلاء الخمسة.

الملاحظة الثانية: إنَّ الآيات القرآنية التي سبق الحديث عنها وغيرها، قد وردت فيها ـ أيضاً ـ نصوص وروايات من طرق العامة تؤكد المضمون المستفاد منها، ومن ثم فهذه النصوص يمكن أن تكوّن شواهد أُخرى على هذا الجانب، وتدخل تحت عنوان الاستدلال بالنصوص الروائية التي وردت عن طرق العامة.

وسنحاول في الاستدلال هنا الاقتصار على ذكر النصوص الأخرى التي لم ترد في مقام تفسير الآيات السابقة اختصاراً للبحث، وإلاّ فإنَّ تلك النصوص يمكن أن تدخل ـ أيضاً ـ في هذا المجال وهذا القسم من الاستدلال، لأنها ـ أيضاً ـ وردت عن طرق العامة، وفيها ما يدلّ على هذه النظرية.

الملاحظة الثالثة: إنَّ النصوص التي الواردة في أهل البيت عليهم السلام كثيرة تبلغ المئات إن لم نقل الآلاف، تؤكد على عدة أمور وأبعاد أساسية، وعند دراسة هذه الأبعاد التي تجتمع عليها هذه النصوص ـ تقريباً ـ نجد أموراً:

١ ـ المقام الخاص لأهل البيت عليهم السلام، حيث يظهر منها أنَّ لهم عليهم السلام مقاماً خاصاً يمتازون به على بقية الناس، وأما خصوصيات هذا المقام فقد يختلف نص عن آخر في بيانها، ولكن أصل وجود الامتياز لأهل البيت عليهم السلام فهو ثابت بالتواتر، وهو يُعد من أبعاد (النظرية) في الإمامة، كما ذكرنا.

---

(١) البحث في اختصاص عنوان أهل البيت عليهم السلام في هؤلاء الخمسة من الأبحاث المعروفة في كتب الكلام والحديث والتفسير، ولهذا السبب لم نطل الحديث فيه. منه قدس سره.

٢ ـ مرجعية أهل البيت الفكرية والدينية للمسلمين، حيث إنَّ النبي ﷺ يرجع المسلمين إلى أهل البيت عليهم السلام، كما سوف نشير إلى بعضها.

٣ ـ الولاية والحكم، أي: اختصاص الولاية والحكم بين المسلمين بأهل البيت عليهم السلام.

٤ ـ تأكيد الحب والولاء لأهل البيت عليهم السلام، والتحذير والنهي عن البغض والنصب والعداء لهم، ولذلك يفهم منها التولي لهم والتبري من أعدائهم.

٥ ـ وجود الدرجة العالية من صفات الكمال في أهل البيت عليهم السلام، وهي التي يتصف بها الإنسان الصالح في نظر الإسلام ـ عادة ـ عن طريق الاكتساب، مثل: العلم، والعدل، والتقوى، والجهاد، والإخلاص، والتضحية، حيث يمتاز بذلك أهل البيت عليهم السلام، ولاسيما ورد في الإمام علي عليه السلام من صفات خاصة تميزه على جميع المسلمين، وهذا غير المقام الخاص والقدسية الخاصة التي ذكرناها في النقطة الأولى والتي ترتبط بالاصطفاء، بل المقصود المواصفات التي يكتسبها الإنسان ـ عادة ـ في حركته وحياته[1].

الملاحظة الرابعة: إنَّ هذه الروايات يمكن تقسيمها إلى ثلاثة طوائف:

الأولى: الروايات التي يكون الحديث فيها عن عموم أهل البيت عليهم السلام.

الثانية: الروايات الواردة في خصوص الإمام علي أو فاطمة الزهراء أو

(١) هذه المواصفات بالنسبة إلى الإمام علي وأهل البيت عليهم السلام غير مكتسبة، وإنّما هي شأن إلهي في عملية الاصطفاء، ولكن في مجال المواصفات الخاصة التي يكتسبها الإنسان ـ عادة ـ من خلال السلوك والممارسة والتربية والتزكية والرياضة، نجد الإمام علي عليه السلام يمتاز في هذا الجانب ـ أيضاً ـ على بقية الناس.

وهكذا الحال في الزهراء عليها السلام على ما يبدو من بعض النصوص، أنّها كانت لديها خصائص ومواصفات تميزها على بقية الناس. منه قدس سره.

الحسن والحسين عليهما السلام، أو في شأن من شؤونهم، باعتبار أنَّ هذه الأسماء ـ علي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام ـ مع رسول الله صلى الله عليه وآله، يطلق عليهم أهل البيت.

فيمكن انتزاع ورودها في أهل البيت عليهم السلام بصورة عامة، بالرغم من ورودها بخصوص هذا أو ذاك منهم عليهم السلام.

الثالثة: الروايات الواردة في موضوع شيعة أهل البيت عليهم السلام أو التشيع لهم.

هذه الملاحظات الأربع، لابد أن نستذكرها عند مراجعة هذه الروايات:

الطائفة الأولى: الروايات في عموم أهل البيت عليهم السلام

يوجد لدينا مجموعة من الأحاديث المهمة وردت في عموم أهل البيت عليهم السلام، أشير إلى بعضها، كما أشير إلى بعض الأبعاد العامة المستفادة منها(١):

---

(١) هذا الموضوع من الموضوعات التي يمكن القول في بحثها: إنَّها قد استوفي الحديث فيها إلى حد كبير في أبحاث العلماء، وألفت فيها ـ أيضاً ـ كتب ضخمة على شكل موسوعات من قبيل كتاب (عبقات الأنوار) الذي يعتبر من أضخم الموسوعات الشيعية التي تناولت بحث هذه الأحاديث، فهو يذكر كل نصٍّ، ثم بعد ذلك يأتي إلى راوي هذه النصوص، وسلسلة الرواية، ثم بعد ذلك يتناول توثيق هؤلاء الرواة، والشبهات التي تثار حول النص ويناقشها وينتهي إلى النتائج المطلوبة، وكل ذلك عن طريق الجمهور.

ومن جملة الكتب التي ألفت في هذا الموضوع كتاب (الغدير) ، للعلاّمة الأميني رحمه الله ، وقد أخذ العلاّمة الأميني حسب الظاهر ـ والله العالم ـ منهجه في كتاب الغدير من صاحب العبقات، حيث كان لصاحب العبقات قدم السبق في هذا المجال.

وموسوعة صاحب العبقات أوسع من (الغدير) عدة مرات في هذا المجال، ولكن صاحب الغدير أضاف إلى ذلك أموراً أخرى، مثل الحديث عن الشعراء الذين نظموا في قضية الغدير، أو في مدح الإمام علي عليه السلام وما أشبه ذلك من شؤون وأمور، كما تناول بعض الشبهات المتأخرة التي أثارها بعض الكتّاب المتأخرين عن صاحب العبقات، ولكن المنهج العام هو منهج صاحب العبقات.

كما توجد كتب أخرى من قبيل إحقاق الحق، الذي أُلف قبل كتاب العبقات، مضافاً إلى كتب محدودة، مثل: المراجعات، ودلائل الصدق، وفضائل الخمسة.

الحديث الأول: أحاديث الطينة والنور والشجرة الواحدة التي تدل على بُعد الاصطفاء، فقد وردت مجموعة من الروايات عن طريق الجمهور تحت عناوين متعددة، مثل: أن النبي ﷺ والإمام علي عليه السلام وذريتهما عليهم السلام من نور وطينة وشجرة واحدة[١].

والقضية فيها بحث واسع وكبير، ولذلك سوف لا أتعب الإخوة الأعزاء بالدخول في تفاصيل هذا البحث، وإنما يمكن الرجوع إلى مثل هذه الموسوعات. منه ﷺ.

(١) روى الهيثمي، عن بريدة قال: «بعث رسول الله ﷺ علياً أميراً على اليمن وبعث خالد بن الوليد على الجبل، فقال: إن اجتمعتما فعلي على الناس، فالتقوا وأصابوا من الغنائم ما لم يصيبوا مثله وأخذ علي جارية من الخمس، فدعا خالد بن الوليد بريدة فقال: اغتنمها فأخبر النبي ﷺ ما صنع. فقدمت المدينة ودخلت المسجد ورسول الله ﷺ في منزله وناس من أصحابه على بابه، فقالوا: ما الخبر يا بريدة؟ فقلت: خيراً فتح الله على المسلمين، فقالوا: ما أقدمك؟ قلت جارية أخذها علي من الخمس، فجئت لأخبر النبي ﷺ فقالوا: فأخبر النبي ﷺ فإنه يسقط من عين النبي ﷺ ورسول الله ﷺ يسمع الكلام، فخرج مغضباً فقال: ما بال أقوام ينتقصون علياً؟ من تنقص علياً فقد تنقصني، ومن فارق علياً فقد فارقني، إنّ علياً مني وأنا منه، خُلق من طينتي وخلقت من طينة إبراهيم، وأنا أفضل من إبراهيم: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يا بريدة أما علمت أنّ لعلي أكثر من الجارية التي أخذ، وإنه وليكم بعدي، فقلت: يا رسول الله بالصحبة إلاّ بسطت يدك فبايعتني على الإسلام جديداً، قال ـ أي بريدة ـ: فما فارقته حتى بايعته على الإسلام». مجمع الزوائد ٩: ١٢٨.

وأخرج أبو الحافظ والحمويني عن عكرمة عن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ من سرّه أن يحيى حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنات عدن التي غرسها ربي فليوال علياً من بعدي، وليوال وليه وليقتد بالأئمة من ولده من بعده، فإنُهم عترتي، خلَقوا من طينتي، ورزقوا فَهماً وعلماً، وويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنا لهم الله شفاعتي». ينابيع المودة ١: ٣٧٩.

روى الحاكم بسنده، عن جابر بن عبد الله، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي: يا علي، الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ ... وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ... ﴾ ».

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد». المستدرك ٢: ٢٤١.

وفي رواية أخرى عن الحاكم بسنده، قال رسول الله ﷺ: «أنا الشجرة، وفاطمة

فهذه الأحاديث تدل على أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام وذريتهما بعد ذلك هم من نور وطينة وشجرة واحدة، وأنَّ هذا النور كان قائماً وموجوداً قبل أن يخلق الله تعالى آدم، ومن ثم فهو حقيقة من الحقائق الكونية الثابتة في هذا الوجود، قبل أن يخلق الإنسان بهذه الصورة والصبغة.

ويبدو أنَّ هذا النور الإلهي[(١)] ـ والله العالم ـ كان موجوداً في هذه النفخة الإلهية التي نفخ الله سبحانه وتعالى بها من روحه في آدم عندما خلقه.

أما حقيقة النفخة الإلهية وخصوصياتها وتفاصيلها، فهذا بحث آخر، وقد يكون من الأمور الغيبية التي لا يعرفها إلاّ الله تعالى والراسخون في العلم، كما ورد في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عليُّ ما عرف الله حقَّ معرفته غيري وغيرك، وما عرفك حقَّ معرفتك غير الله وغيري»[(٢)]، وهذا يعني أن هذه الحقيقة والخصوصية قد تكون من الخصوصيات الغيبية الخاصة التي اختص بعلمها الله سبحانه، ومن أطلعه على ذلك مما ارتضى من عباده[(٣)].

فرعها، وعلي لقاحها، والحسن والحسين ثمرتها، وشيعتنا ورقها، وأصل الشجرة في جنة عدن وسائر ذلك في سائر الجنة». المستدرك٣: ١٦٠.

راجع تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٦٨، حول موضوع (الطينة) و (النور) و (الشجرة).

(١) يدل النور على معنىً خاص في فهم النظرية، وهو الذي أشرنا إليه في استفادة النظرية من الآيات الكريمة، وهو أنَّ الاصطفاء له معنىً خاص في وجود الإنسان وحركته، وكما أنَّ الهدف والغاية من وجود الإنسان هو تجسيد (الاصطفاء) في موجود مادي حي يتحرك في هذا العالم المادي ليتكامل، ومن ثم ينتقل بعد ذلك إلى عالم الغيب والآخرة، فقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، وأراد سبحانه من ذلك أن يكون الإنسان (الوجود المصطفى) ولذلك أطلق هذا الاسم على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنَّه يكون تجسيداً لأعلى درجات الاصطفاء في حالة مادية متحركة، تتكامل من خلال ما أودع الله تعالى فيها من مواهب، فتصل إلى تلك الدرجات العالية التي وضعها الله تعالى لحركة الإنسان في عالم الغيب ومستقبله. منه قدس سره.

(٢) بحار الأنوار٣٩: ٨٤.

(٣) لا نريد الدخول في بحث الغيب، لأنَّه غيب على أي حال، ولكن قد يعرف كل

الحديث الثاني: حديث الثقلين[1] الذي هو من أفضل ما روي من أحاديث في هذا المجال، وفيه بحوث مهمة، أحدها بحث السند، وبشهادة بعض العلماء والمحققين إنه بلغ حد التواتر. وفيه دلالة على عدة أبعاد من النظرية:

الأول: المساواة بين أهل البيت عليهم السلام والقرآن الكريم، وقرن أحدهما بالآخر. والقرآن الكريم له قدسيته الخاصة، ودوره الخاص ـ أيضاً ـ في حياة المسلمين والرسالة الإسلامية، وبذلك يعطي أهل البيت عليهم السلام هذا المقام والقدسية.

الثاني: مرجعية أهل البيت عليهم السلام للمسلمين في الحياة الاجتماعية والسلوك الفردي، وفهم الإسلام ومعرفته، كمرجعية القرآن الكريم.

الثالث: الطلب من المسلمين التمسك بهم، كتمسكهم بالقرآن الكريم، وهو يعني بُعد الولاء.

إذن، فهو يدل على بُعد القدسية، وبُعد الرجوع والأخذ من أهل البيت عليهم السلام، وبعد الولاء والارتباط والتمسك بهم عليهم السلام.

الحديث الثالث: حديث السفينة[2]، الذي يدل على النجاة عند الارتباط بأهل

الخصوصيات النبي صلى الله عليه وآله وعليٌّ عليه السلام، كما ورد في الحديث. منه قدس سره.

(١) روى الترمذي بسنده عن أبي سعيد والأعمش قالا: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، سنن الترمذي ٥: ٣٢٨، ح٣٨٧٦.

(٢) روى الحاكم في مستدركه، عن حنش الكناني، قال: «سمعت أبا ذر يقول وهو آخذ باب الكعبة: أيها الناس من عرفني فأنا من عرفتم، ومن أنكرني فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»، المستدرك٢: ٣٤٣، وقد صححه الحالكم بشرط مسلم.

وفي رواية أخرى عن علي عليه السلام: قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تعلق بها فاز، ومن تخلف عنها زج في النار» ذخائر العقبى: ٢٠، وقد رواه علماء الجمهور بصيغ أخرى، فمن رام التفصيل، فليراجع كتب الحديث لعلماء الجمهور.

البيت عليهم السلام، كما يدل ـ أيضاً ـ على معنى التمسك والولاء في بعض ما ورد من نصوص الحديث.

وللنجاة معنىً واسع، فهي تعني الهداية من الضلال من ناحية، والأمان لأهل الأرض من ناحية أُخرى، كما دل على ذلك الكثير من النصوص، كما نستفيد منه ـ معنى النجاة ـ موضوع التمسك بهم والولاء لهم.

الحديث الرابع: حديث النجوم، حيث مثّل أهل البيت عليهم السلام في هذا الكون بالنجوم، فكما أنَّ النجوم أمان لأهل الأرض فأهل البيت عليهم السلام أمان لأهل الأرض، فقد روى الحاكم في المستدرك، عن ابن عباس قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأُمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس»[1]، وهو يدل على بُعد الرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام.

الحديث الخامس: حديث باب حطة: «...وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له»[2]، وهذا الحديث ـ أيضاً ـ له دلالات عديدة يمكن الحديث فيها، نجدها في بعض صيغه التي وردت في طرق جماعة أهل البيت عليهم السلام.

فقد ورد عن أبي سعيد الخدري تفصيل ذلك حيث قال: «صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله الصلاة الأولى، ثم أقبل بوجهه الكريم علينا ـ والظاهر من الصلاة الأولى صلاة الفجر ـ فقال: معاشر أصحابي إنَّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح وباب حطّة في بني إسرائيل، فتمسكوا بأهل بيتي بعدي والائمة الراشدين من ذريتي، فإنكم لن تضلوا أبداً... »[3].

---

(١) المستدرك ٣: ١٤٩، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد.
(٢) مجمع الزوائد ٩: ١٦٨.
(٣) كفاية الأثر: ٣٣ ـ ٣٤.

وهذه من الروايات المهمة التي تعبر عن بُعد النجاة والغفران، وبُعد وجوب التمسك بهم عليهم السلام، مضافاً إلى تصريحها بوجود الأئمة الراشدين من ذرية النبي صلى الله عليه وآله، وبذلك فهي من الروايات التي يمكن أن تفسر ما ورد في طرق الجمهور، مما يشير إلى هذا العنوان من روايات الخلفاء الاثني عشر التي يأتي الحديث عنها، وتفسر رواية أُخرى ورد التعبير فيها بالأئمة الراشدين دون تقيد بكلمة (ذريتي)[1].

روايات الصلاة على النبي وآله

ويمكن أن نعدّ الأحاديث التي وردت في موضوع (الصلاة على محمد وآل محمد) من روايات هذه الطائفة، حيث توجد في هذا المجال ـ أيضاً ـ أحاديث كثيرة جداً، يجمع المسلمون على صدورها وصحتها بصورة إجمالية، مع قطع النظر عن بعض التفاصيل فيها، وهي روايات مهمة جداً، وفيها ثلاثة أبعاد مهمة:

البُعد الأول: قدسية أهل البيت عليهم السلام الذي يعبّر عن الاصطفاء والمثال الكامل للتكامل الإنساني والهدف من خلقة الإنسان، حيث ورد فيها أنَّ الصلاة العامة التي أُمر المسلمون بإقامتها لا تقبل إلاّ بالصلاة عليهم.

وهناك نصوص عديدة تذكر أنَّ الدعاء ـ أيضاً ـ لا يقبل إلاّ بالصلاة عليهم، أو أنَّ كل دعاء محجوب وفكّ حجابه بالصلاة على محمد وآل محمد، مضافاً إلى النصوص الكثيرة جداً التي أجمع المسلمون على مضمونها، وهي التي تدل على أنَّ الصلاة الواجبة لا تتم إلاّ بالصلاة على النبي وآله.

البُعد الثاني: قرن آل محمد بالنبي محمد صلى الله عليه وآله في هذه الصلاة، حيث وردت الأحاديث العديدة التي تدل على أنَّ الصلاة التامة على النبي هي: الصلاة التي يذكر فيها رسول الله صلى الله عليه وآله، وبدون ذكر (آله) تكون الصلاة بتراء وناقصة، مما يعني

(١) بل قد تشير إلى وقوع التحريف والنقصان في تلك الرواية. منه قدس سره.

أنَّ تمام الأثر في هذه الصلاة بالصلاة على أهل البيت عليهم السلام، الأمر الذي يؤكد بُعد الاقتران برسول الله صلى الله عليه وآله.

وبذلك يمكن أن نفهم منها ـ أيضاً ـ أنَّهم يعبّرون عن الامتداد والاستمرار لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذه الأحاديث تستحق الوقوف عندها، باعتبارها كثيرة وصحيحة السند، كما أنها مروية في أكثر صحاح الجمهور، فضلاً عن طريق جماعة أهل البيت عليهم السلام، حتى أولئك الذين لديهم مواقف متحفظة بدرجة عالية، كالبخاري الذي يتحفظ كثيراً في الرواية الناقلة لفضائل أهل البيت عليهم السلام، وكأنّه يتعمد الابتعاد عن هذا المجال، ولكن في موضوع الصلاة على آل محمد يؤكد ذلك، وهذه قضية ذات أهمية خاصة[1].

والخلاصة: إنَّ روايات الصلاة على الآل من أهم الروايات التي يمكن

---

(١) هذه الروايات تكشف ـ أيضاً ـ عن جانب مؤسف في وضع جمهور الأُمة الإسلامية، فإنّه بالرغم من أنَّ النبي صلى الله عليه وآله قد ورد عنه هذا القدر من الأحاديث في شأن الصلاة عليه وعلى آله والتأكيد على ذلك، وهم يروون وجوب ذلك في الصلاة الواجبة أيضاً، ولكن مع ذلك إما يحذفون ذكر الآل في الصلاة عليه ـ كما هو الغالب ـ أو يأتون بذكرهم مقرونين بالأصحاب، مما يفهم منه أنَّ الهدف هو إلغاء هذا الامتياز للآل.

هذا مع أنّه لا يوجد هناك أي دليل خاص عن النبي وحتى عن الصحابة يدل على حسن ذكر الأصحاب في الصلاة، وبالرغم من كل ذلك يدعون أنفسهم (أهل السنة)!!!.

نعم، توجد بعض الروايات التي تدل على استحباب الصلاة على المؤمنين بصورة عامة، والسلام عليهم، وهو أمر لا يختص بالأصحاب، وهو وارد في سلام الصلاة الواجبة، أما عنوان الأصحاب فهو عنوان مخترع ومبتدع ولا يوجد فيه أثر يمكن الاعتماد عليه.

ولا يصحح هذا الابتداع ما ورد لديهم من الروايات التي تمدح الأصحاب خصوصاً وعموماً ، فإن مجرد المدح لا يصحح هذا النوع من الالتزام والابتداع. منه قدس سره.

الاستدلال بها على النظرية من الطائفة الأولى من الروايات، وقد حضيت باهتمام خاص من قبل علماء الجمهور وعلماء أتباع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم.

الطائفة الثانية: الروايات في بعض أهل البيت عليهم السلام

الروايات التي تحدثت عن أهل البيت عليهم السلام بعناوين خاصة، وهي على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الروايات في الإمام علي عليه السلام

الروايات التي وردت في خصوص الإمام علي عليه السلام وهي روايات كثيرة جداً ومتعددة الأبعاد، يمكن تقسيمها تحت عناوين كثيرة.

ملاحظات حول الطائفة الثانية

وقبل الإشارة إلى عناوين الروايات أذكر عدة ملاحظات حولها:

الملاحظة الأولى: إنَّ الروايات الواردة في علي عليه السلام لا نظير لها في أي أحد من أهل البيت عليهم السلام من حيث الكثرة والتعدد في الأبعاد والخصائص، كما يبدو ذلك واضحاً من استعراض هذه الرويات، ولعل السرّ في ذلك هو علو شخصيته عليه السلام، كما ورد ذلك في بعض الروايات من أنّه أفضل أهل البيت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

كما يمكن أن يكون السرّ في ذلك هو أن الإمام علي عليه السلام يمثل الرمز لأهل البيت عليهم السلام في زمن النبي صلى الله عليه وآله، لأنّه الشخصية التي أراد الله عزّ وجلّ والنبي صلى الله عليه وآله طرحها للمسلمين وللجماعة المسلمة وللبشرية كإمام وامتداد للنبوة في أهل البيت عليهم السلام، وبذلك يكون رمزاً لأهل البيت عليهم السلام، ومن ثمَّ فلابد أن يتم تأكيد هذه الحقيقة لتأخذ موقع الرمزية والتأسيس لهذه القضية في جماعة المسلمين، ومن ثمَّ في الرسالة الخاتمة وبالنسبة للبشرية بصورة عامة.

الملاحظة الثانية: إنَّ ما ذكر من الروايات عن علي عليه السلام في كتب الجمهور وكتب العامة ـ مع قطع النظر عن الروايات التي وردت في كتب جماعة أهل

البيت عليهم السلام ـ لم يرد مثلها في أي أحد من المسلمين على الإطلاق، حتى الخلفاء الأوائل الذين وردت في شأن الثناء عليهم روايات في كثير من كتب الجمهور.

وهذه الملاحظة لابد أن نأخذها بنظر الاعتبار في فهم الأبعاد الحقيقية لها؛ لأننا نلاحظ وجود مجموعة كبيرة جداً من الروايات وردت في صحاحهم، وفي مختلف أنواع كتبهم، سواء كتب الحديث أم كتب التأريخ أم كتب العقائد أم كتب التفسير، فإننا نجد أنَّ ما ورد في علي عليه السلام في مجموع هذه الكتب لم يرد في حق أي أحد من المسلمين على الإطلاق حتى الرعيل الأول من المسلمين الذين يحضون بتقديس واحترام جمهور المسلمين، إذ يحتاج ذلك إلى تفسير واقعي، لا سيما وأنَّ الجمهور ـ بصورة عامة ـ لا يرون الإمام علي عليه السلام أفضل من الخلفاء السابقين.

الملاحظة الثالثة: إنَّ احتمال الوضع في بعض هذه الروايات ـ وإن كان موجوداً ـ إلاَّ أن الكثير منها روايات صحيحة السند، تنطبق عليها الضوابط العلمية التي وضعها رجال الحديث عند العامة، فضلاً عن الضوابط العلمية الموضوعة في علم الأصول لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام.

وعند تقيِّيم هذه الروايات من زاوية احتمال الوضع في بعضها نجد ذلك الاحتمال ضعيفاً جداً، بل يمكن أن يحصل للإنسان اليقين[١] بصدور عدد كبير منها؛ وذلك:

أولاً: لتواترها.

ثانياً: يكاد يلغى احتمال الوضع في الباقي منها؛ باعتبار أنَّ الإمام علي عليه السلام قد مرَّ في طول تاريخه ـ أيام حياته وبعد شهادته ـ بعملية قمع واسعة على مستوى التشهير به والحصار والتعتيم والإخفاء لفضائله ومناقبه ولشخصيته، سواء أكان في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله لعوامل الحسد والأحقاد (البدرية) والجاهلية، أو المنافسات

---

(١) عندما يراجعها بصورة حيادية وبقطع النظر عن تمذهبه بمذهب خاص واعتماداً على مقدار ما هو مدون في كتب العامة. منه قدس سره.

السياسية، أم في زمن الخلفاء الذين أرادوا طرح مرجعية الصحابة مقابل مرجعيته عليه السلام وإبعاد شخصيته عن الحياة السياسية والفكرية للمسلمين، أم في زمن الأمويين والعباسيين.

ونظراً لقرب العصر من زمن رسول الله صلى الله عليه وآله فالتعتيم في مثل هذه الحالة يعتبر عملية صعبة جداً، لأن الكثير من هؤلاء الأصحاب قد سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الحقائق؛ ولذا اتخذت محاولة التعتيم شكلين:

الشكل الأول: إحراق جميع المصاحف التي دوّن المسلمون عليها ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وآله أو عرفوه حول نزول القرآن الكريم، كتعليق على تفسير الآيات الكريمة أو ذكر أسباب نزولها والحوادث التي نزلت بشأنها، وتمت عملية إحراق المصاحف، ومن ثمَّ إخفاء كل ما قد دوّن وكتب في ذلك العصر والزمان.

الشكل الثاني: منع تدوين أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله تحت شعار ـ يبدو أنّه شعار جميل ـ يكفينا كتاب الله أو حفاظاً على القرآن الكريم ـ كلام الله ـ من اختلاطه بحديث رسول الله ـ كلام إنسان ـ وعليه فلا حاجة إلى تدوين أي شيء من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم تطور هذا الشعار بعد ذلك وبأساليب مختلفة، عندما ابتعد العهد بالمسلمين عن عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأصبح أكثر المسلمين ممن لم يرَ رسول الله صلى الله عليه وآله، أو لم يسمع منه.

ولذلك اشتدت قضية القمع والتعتيم في عهد الأمويين بصورة أوضح واتخذت شكلاً جديداً، حتى أصبح سب الإمام علي عليه السلام من على منابر المسلمين شعاراً رسمياً للأمويين يلتزم به الحكم الأموي[1]، ويُطارد محب علي عليه السلام ومن يذكره بخير حتى تصل إلى القتل، فضلاً عن أنواع المطاردة الأُخرى.

وكذلك الأمر في زمن العباسيين، حيث تحولت قضية الإمام علي عليه السلام إلى قضية للتنافس بين بني العباس وأبناء علي، في من هو الأقرب لرسول الله صلى الله عليه وآله

(١) الغدير ١٠: ٢٥٧.

العباس بن عبد المطلب أو علي بن أبي طالب عليه السلام.

وهكذا استمرت عملية القمع والمحاصرة والتعتيم على فضائل الإمام علي عليه السلام في جميع أدوار التأريخ الإسلامي المختلفة.

ولكن مع كل هذه الأدوار الصعبة نجد هذا القدر الكبير من الروايات التي وردت في حقه عليه السلام في كتب العامة، أولئك الذين يمثلون الخط الرسمي العام الحاكم بين المسلمين، حتى أصبح ذلك مثال الاستغراب ومضرب الأمثال.

وفي مقابل ذلك كان جماعة علي عليه السلام يمثلون في الصدر الأول القلة القليلة، ثم كانوا بعد ذلك الجماعة المطاردة والمحاصرة والمحرومة من كل الوسائل المادية التي يمكن من خلالها أن يعبر الإنسان عن وجوده ورأيه وموقفه، فقد كانت هناك عملية قهر وقمع لهذه الجماعة، بحيث لم يسمح لها أن تنفذ إلى بطون الكتب والحديث، ومع كل ذلك ظهر هذا القدر من الفضائل، حتى قال القائل: «كيف أقدم في مدح من كتم أحباؤه فضائله خوفاً وأعداؤه حسداً وظهر بين الكتمانين ما ملأ الخافقين»[1].

ولذلك عندما ننظر إلى الأحاديث من هذه الزاوية لابد أن نقول: إنّ احتمال الوضع فيها هو احتمال ضعيف.

على خلاف الأحاديث الأخرى التي وردت في شأن الحاكمين، سواء كانوا من الخلفاء الأوائل الثلاثة أم ممن يمثل امتدادهم، وهو عنوان (قريش) الذي حاول الأمويون أن يستغلوه من أجل تثبيت حكمهم، أو الروايات التي وردت بشأن بعض أقرباء النبي صلى الله عليه وآله التي حاول العباسيون أن يشيعوها بين المسلمين.

إنّ مثل هذه الروايات هي التي يمكن أن نضع حولها الكثير من علامات الاستفهام، لأن وراءها الحكم والسلطة وإمكانياتها والأهداف السياسية.

---

(١) هذا قول للخليل بن أحمد الفراهيدي عندما سئل: (لماذا لا تمدح علياً)، شرح إحقاق الحق ٤: ٢.

الملاحظة الرابعة: إنَّ ما تقدم في الملاحظة الثالثة يثير السؤال عن كيفية تمكّن أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من حفظ هذه الآثار، بالرغم من وجود هذه العوامل المضادة في الخط الحاكم الذي استخدم القمع والتعتيم من ناحية، وقلة الجماعة وضعفها وضعف إمكانياتها من ناحية أُخرى؟

يوجد هنا بحث واسع لا يسعه المقام، ولكن يمكن الإشارة إلى بعض الأسباب والعوامل التي مكنّت أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من ذلك بصورة موجزة:

العامل الأول: عامل الغيب والوعد الإلهي في حفظ الرسالة والدين الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1]، فإذا فسرنا الذكر ـ كما هو أمر محتمل ـ بمعنى أوسع من نص القرآن الكريم، وهو الرسالة الإسلامية التي نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله بكل معالمها الأساسية التي منها القرآن الكريم، فهنا يمكن افتراض وجود يد الغيب وراء المحافظة على هذا التراث، كما كانت وراء حفظ القرآن الكريم نفسه.

العامل الثاني: التخطيط الذي وضعه ونفذه أهل البيت عليهم السلام للمحافظة على التراث، كما صنع النبي صلى الله عليه وآله ذلك بالنسبة إلى القرآن الكريم وأصول الشريعة، وتوجد الكثير من المؤشرات والدلائل على وجود هذا العامل، الذي هو الوجه المادي للعامل الأول وليس مقابلاً له، وقد امتاز أهل البيت عليهم السلام بوجود هذا العنصر في منهجهم وعملهم، الذي تمثل بما يلي:

أولاً: اهتمامهم عليهم السلام بعملية التدوين، وهي عملية كانت معقدة في ذلك العصر، ولكنَّهم أعاروها أهمية خاصة، حيث طلبوا من أصحابهم الخاصين ـ منذ زمن الإمام علي عليه السلام ـ أن يدونوا التراث الأصيل، وكان الإمام علي عليه السلام قدوة لهم في ذلك، حيث دوَّن الكثير من التراث، كما تؤكد الكثير من النصوص التي وردت

---

(١) الحجر: ٩.

في كتابة الإمام علي عليه السلام للصحيفة الجامعة، وكذلك النصوص التي وردت في كتابته عليه السلام وتدوينه للقرآن بصورة كاملة، أي بنصه وشرحه.

ثانياً: منهجهم عليهم السلام في الانفتاح على بقية أوساط المسلمين في التعليم والمعاشرة، بحيث تمكنوا من التوغل في هذه الأوساط، وبالتالي نشر الكثير من الحقائق المقنعة للمسلمين واستثمار الكثير من التعاطف الموجود فيها مع مظلوميتهم ومواقفهم في نصرة الحق والدفاع عنه، والتزام العدل والفئات المستضعفة من الناس.

العامل الثالث: ما تركه الإمام علي عليه السلام في قلوب المسلمين من ودٍّ وحبٍّ، بالرغم من كل المحاولات التي جرت لقمعه عليه السلام، كما أشرنا في الشكل الثاني.

إن شخصية الإمام علي عليه السلام فرضت نفسها على المجتمع الإسلامي عموماً، وعلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله خصوصاً في زمن الخلفاء الثلاثة، بعد اتضاح الوجه الآخر الناصع له عليه السلام من الزهد في الدنيا ومناصبها، والحرص على المصلحة الإسلامية العليا، بالرغم مما تعرض له من ظلم وحيف، ووضوح منهجه في الاستقامة على الحق والعدل والانصاف من نفسه والانتصاف للمظلومين من أبناء الأُمة الإسلامية في زمن خلافته، بحيث أصبحت هذه الشخصية تمثل رمزاً عالياً للعدالة والتقوى والعلم والجهاد والورع في جميع الأدوار، في دور الجندي المجاهد المقاتل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي دور المستشار المظلوم في دور الخلفاء، وفي دور القائد والخليفة والأمير.

ثمَّ تأكد ذلك بكل قوة في العهد الأموي الغاشم الذي شهد المسلمون فيه الطغيان والظلم وانتهاك الحرمات، فكانت المقارنة ماثلة أمام عقول المسلمين وعيونهم.

العامل الرابع: دور أئمة أهل البيت عليهم السلام في تجسيدهم سيرة جدهم وأبيهم صلى الله عليه وآله وابن عمه علي عليه السلام في المنهج والسلوك والالتزام بالحق والعدل...

العامل الخامس: دور شيعة أهل البيت عليهم السلام في تجسيد روح التضحية والفداء والمثابرة والجد، من أجل المحافظة على التراث الإسلامي الأصيل، والتعريف به والدفاع عنه.

الملاحظة الخامسة: لم يترك النبي صلى الله عليه وآله فرصة ـ من أول بعثته إلى حين وفاته ـ دون تأكيد دور وشخصية الإمام علي عليه السلام، الأمر الذي يعني عدة أمور:

١ ـ توضيح وتأكيد موقع الإمام علي عليه السلام في النظرية الإسلامية.

٢ ـ تربية الأُمة على هذه الحقيقة وإيجاد قاعدة نفسية وروحية لقبولها، ولو على المدى البعيد.

٣ ـ إبقاء وترسيخ هذه الحقيقة بصورة تأريخية، بحيث لا يمكن إغفالها مهما بذلت الجهود في طمسها وإخفائها.

٤ ـ إقامة الحجة على المسلمين والأُمة الإسلامية بشأن هذا الموضوع الهام والحساس، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

الملاحظة السادسة: يبدو من هذه الروايات ظاهرة تصحيح النبي صلى الله عليه وآله لعمل الإمام علي عليه السلام بصورة مطلقة: «علي مع الحق والحق مع علي» والدفاع عن عمله وفعله بقوة أمام مناوئيه ومنتقديه وحاسديه، والتحذير الشديد من معاداته وبغضه، ولا نجد مثل هذا الموقف تجاه أي أحد من الصحابة الذين عرفهم التأريخ الإسلامي.

وقضية موقف النبي صلى الله عليه وآله من عمله عند ذهابه عليه السلام إلى اليمن وقيادته لعمليات الفتح فيها واختصاصه ببعض الغنائم دون غيره من المسلمين، وتصحيح النبي لهذا العمل، مع بيان القاعدة الكلية فيه، وحديث بريدة في هذا المجال مما أثار حفيظة بعضهم وانتقاد بعض.

وكذلك قضية حج النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام حيث أمر النبي عليه السلام المسلمين جميعاً بحج التمتع وقبل من الإمام علي عليه السلام نيته لحج القرآن وإشراكه في هديه[1].

---

(١) ذكر الطبرسي في حديثه عن حجة الوداع للنبي صلى الله عليه وآله، قال: «... وحجّ علي عليه السلام من

ويحسن بنا أخذ هذه الملاحظات بنظر الاعتبار عند دراسة هذه الطائفة من الروايات.

عناوين الروايات التي تناولت أبعاد الإمامة

سنكتفي بذكر عناوين روايات هذه الطائفة التي تتناول أبعاد الإمامة ـ التي أشرنا إليها ـ مجسدة في الإمام علي عليه السلام، ويمكن مراجعتها في مصادرها(١)، والعناوين هي:

عنوان الاصطفاء: حيث توجد أخبار تتحدث عن أنَّ الله تعالى قد (اجتبى) علياً، وأخبار تقول بأنَّ: «علياً خير البشر»(٢)، بعد استثناء رسول الله صلى الله عليه وآله. ومن الأخبار ـ أيضاً ـ في مجال الاصطفاء والاجتباء مجموعة أُخرى من الأحاديث وردت في أنَّ علياً عليه السلام هو لحم رسول الله صلى الله عليه وآله، ودمه صلى الله عليه وآله(٣)، وهذه المضامين ما

اليمن وساق معه أربعاً وثلاثين بدنة، وخرج بمن معه من العسكر الذي صحبه إلى اليمن ومعه الحلل التي أخذها من أهل نجران، فلّما قارب رسول الله صلى الله عليه وآله مكّة من طريق المدينة قاربها أمير المؤمنين عليه السلام من طريق اليمن، فتقدّم الجيش إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فسُرّ رسول الله بذلك وقال له: بمَ أهللت يا علي؟

فقال: يا رسول الله إنك لم تكتب إليّ بإهلالك، فعقدت نيّتي بنيّتك وقلت: اللهمّ إهلالاً كإهلال نبيّك، فقال صلى الله عليه وآله: فأنت شريكي في حجّي ومناسكي وهديي، فأقم على إحرامك وعد على جيشك وعجّل بهم إليّ حتّى نجتمع بمكّة» إعلام الورى١: ٢٥٩. الإرشاد١: ١٧٢، باختلاف يسير، صحيح مسلم ٤: ٥٩.

(١) ومن جملة المصادر الجيدة في هذا المجال كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة، الذي ألفه آية الله السيد مرتضى الحسيني الفيروزآبادي، وهو من علماء النجف الأشرف، الذين تربوا في مدرستها، ثم أخرجوا وهجّروا إلى إيران قسراً على يد الظالمين، وتوفي في إيران، كما توجد كتب أُخرى عديدة في هذا المجال، يمكن الرجوع إليها. منه رحمه الله.

(٢) تاريخ بغداد ٧: ٤٣٣.

(٣) ذكر الخطيب البغدادي في تاريخه عن أبي العباس قال: «كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وعلى فخذه الأيسر ابنه إبراهيم، وعلى فخذه الأيمن الحسين بن علي تارة يقبل هذا وتارة يقبل هذا، إذ هبط عليه جبريل عليه السلام بوحي من رب العالمين، فلما سرى عنه قال: أتاني

أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[١] من آية المباهلة.

عنوان الامتداد للنبوة: توجد مجموعة من الأحاديث التي تؤشر الى بعد امتداد الامامة للنبوة، كحديث المنزلة: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه ليس نبي بعدي»[٢]، وحديث: «علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض يوم القيامة»[٣]، وحديث: «علي مع القرآن والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[٤].

ومن جملة الأحاديث التي يمكن فهم ذلك منها ما ورد من أنَّ علياً عليه السلام هو حجة الله على عباده[٥]، وكذلك حديث قصة إرسال علي بسورة براءة، حيث أكد رسول الله صلى الله عليه وآله فيه أنّه لا يبلّغ عني إلاّ رجل من أهل بيتي، والقصة معروفة ويرويها المفسرون والمؤرخون وأصحاب الحديث[٦].

جبريل من ربي فقال: يا محمد إنَّ ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: لست أجمعهما لك فافد أحدهما بصاحبه، فنظر النبي صلى الله عليه وآله إلى إبراهيم فبكى، ونظر إلى الحسين فبكى، ثم قال: إنَّ إبراهيم أُمة أمة، ومتى مات لم يحزن عليه غيري، وأم الحسين فاطمة وأبوه علي ابن عمي لحمي ودمي.. » تاريخ بغداد ٢: ٢٠٠.

وفي رواية أُخرى: «... لحمي ودمي وشعري. ... » ذخائر العقبى: ٩٢.

وفي حديث آخر: «... لحمه لحمي ودمه دمي. ... » مجمع الزوائد ٩: ١١١.

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) صحيح البخاري ٥: ١٢٩. سنن الترمذي ٥: ٣٠٢ ـ ٣٠٤، ح ٣٨٠٨و ٣٨١٣ و ٣٨١٤.

(٣) تاريخ بغداد ١٤: ٣٢٢. مجمع الزوائد٧: ٢٣٥، باختلاف يسير.

(٤) المستدرك٣: ١٢٤. المعجم الأوسط٥: ١٣٥. كنز العمال١١: ٦٠٣، ح٣٢٩١٢.

(٥) روى الخطيب البغدادي في تاريخه عن أنس بن مالك قال: «كنت عند النبي صلى الله عليه وآله فرأى علياً مقبلاً، فقال: أنا وهذا حجة على أُمتي يوم القيامة» تاريخ بغداد ٢: ٨٦ كنز العمال١١: ٦٢٠، ح ٣٣٠١٣.

وفي رواية أُخرى: «أنا وعلي حجة الله على عباده» ميزان الإعتدال٣: ٧٦. تاريخ مدينة دمشق٤٢: ٣٠٩.

(٦) عن أنس بن مالك قال: «بعث النبي صلى الله عليه وآله ببراءة مع أبي بكر، ثم دعاه فقال: لا ينبغي لأحد أن يبلّغ هذا إلاّ رجل من أهلي، فدعا علياً عليه السلام فأعطاه إياه». سنن الترمذي٤:

وكذلك ما ورد من أحاديث تحت عنوان أنَّ علياً يبلّغ عني، وأنَّ علياً يمثل الامتداد للنبي صلى الله عليه وآله، وبعض الروايات تذكر أنَّ علياً عليه السلام يمثل امتداداً للرسول صلى الله عليه وآله.

إذن، فقضية الإمامة بعنوان أنَّها استمرار للنبوة نجدها في هذه الروايات.

عنوان الولاء: ما ورد في ذكر وجوب الولاء لعلي عليه السلام من الروايات يبلغ المئات، ومنها الروايات التي تتحدث عن أنَّ علياً أحب الخلق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، مثل حديث الطائر المشوي المعروف(١).

وكذلك الأحاديث التي وردت في أنَّ حب علي هو حب رسول الله، وأنَّ حب رسول الله هو حب الله تعالى، فإن مثل هذه الأحاديث تدل على وجوب

٣٣٩، ح٥٠٨٥. السنن الكبرى٥: ١٢٨.

(١) المستدرك٣: ١٣٠. المعجم الأوسط٦: ٩٠.

وفي رواية عن ثابت البناني: «أنَّ أنس بن مالك رضي الله عنه كان شاكياً فأتاه محمد بن الحجاج يعوده في أصحاب له، فجرى الحديث حتى ذكروا علياً عليه السلام فتنقصه محمد بن الحجاج، فقال أنس: من هذا؟ أقعدوني، فقال: يابن الحجاج ألا أراك تنتقص علي بن أبي طالب؟ والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق لقد كنت خادم رسول الله صلى الله عليه وآله بين يديه وكان كل يوم يخدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله غلام من أبناء الأنصار، فكان ذلك اليوم يومي فجاءت أم أيمن مولاة رسول الله صلى الله عليه وآله بطير فوضعته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أم أيمن ما هذا الطائر؟ قالت: هذا الطائر أصبته فصنعته لك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم جئني بأحب خلقك إليك وإلي يأكل معي من هذا الطائر، وضرب الباب فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أنس انظر من على الباب؟ قلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار، فذهبت فإذا علي بالباب، قلت: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله على حاجة، فجئت حتى قمت مقامي فلم ألبث أن ضرب الباب ـ وفي بعض الروايات أنَّ الإمام علي عليه السلام يأتي ثلاث مرات ويرده أنس ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أنس اذهب فأدخله، فلست بأول رجل أحب قومه، ليس هو من الأنصار، فذهبت فأدخلته، فقال: يا أنس قرِّب إليه الطير، قال: فوضعته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فأكلا جميعاً.

قال محمد بن الحجاج: يا أنس كان هذا بمحضر منك؟ قال: نعم، قال: أعطي بالله عهداً أن لا أنتقص علياً بعد مقامي هذا ولا أعلم أحداً ينتقصه إلاَّ أشنت له وجهه» المستدرك ٣: ١٣١.

الولاء والحب، وهي تعبّر عن بُعد الامتداد للنبوة والرسالة.

وكذلك ما ورد من أنَّ حب علي حسنة، وما ورد أنَّ حب علي إيمان وبغضه نفاق[١]، وما ورد من أمر رسول الله ﷺ ـ في روايات ومناسبات عديدة وكثيرة ـ بوجوب حبّ علي عليه السلام[٢].

ومن أهم هذه الأحاديث وأكثرها تواتراً حديث الغدير المعروف[٣].

الفضل والامتياز: وجود الروايات المتضافرة التي تدل على وجود صفات الفضل التي تعبر عن الامتياز لعلي عليه السلام في الصفات المكتسبة عادة، وإن كانت غير مكتسبة بالنسبة للإمام علي عليه السلام، وإنّما هي هبة إلهية، ولكن هذه الأحاديث تناولت عناوين الصفات التي يكتسبها الناس عادة، فنسبتها إلى علي عليه السلام، وكان يمتاز بها على غيره من الناس، ويكون الأفضل بها بينهم، كحديث مدينة العلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٤]، وما ورد من قوله ﷺ: «أنا دار الحكمة وعلي بابها»[٥]، و«علي أقضاكم»[٦]، و«لا فتى إلاَّ علي لا سيف إلاَّ ذو الفقار»[٧]، وما ورد ـ أيضاً ـ في هذا المجال في قول رسول الله ﷺ: «علي سيد العرب»[٨]، ورواية أُخروى: أنَّ علياً سيد الأصحاب.

روى الخطيب البغدادي بسنده عن رشيد قال: «كنت يوماً عند المهدي فذُكر

---

(١) السنن الكبرى٥: ١٣٧، باب الفرق بين المؤمن والمنافق.

(٢) مسند أحمد٥: ٣٥٠. تاريخ مدينة بغداد٥: ١٧٧. السنن الكبرى٥: ١٣٥، باب الترغيب في حبّ علي.

(٣) لمزيد من التفصيل يراجع كتاب الغدير للعلامة الأميني، وكتاب ترجمة الإمام علي بن أبي طالب لإبن عساكر.

(٤) المستدرك٣: ١٢٦. لسان الميزان٦: ٢٤٣. ميزان الإعتدال٢: ٢٥١.

(٥) سنن الترمذي ٥: ٣٠١، ح٣٨٠٧. الجامع الصغير١: ٤١٤.

(٦) المستصفى: ١٧٠.

(٧) السيرة النبوية٤: ٧٠٧. الفصول المهمة١: ٣٢٦.

(٨) المستدرك٣: ١٢٤. كنز العمال ١١: ٦١٩ ، ح٣٣٠٠٧، و٣٣٠٠٨. تأريخ الإسلام٣: ٦٣٥.

علي بن أبي طالب، فقال المهدي: حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن ابن عباس قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وعنده أصحابه حافين به إذ دخل علي بن أبي طالب، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: يا علي إنَّك عبقرهم»[1]. قال المهدي: أي سيدهم.

وروايات أُخرى وردت: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أُوحي إليّ في علي ثلاث، إنه: سيد المسلمين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين»[2].

وهنا يلاحظ أنَّ عنوان (قائد الغر المحجلين) ليس مجرد مدح وثناء، بل له مدلول خاص، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله - كما تقدم في رواية سابقة رواها جمهور المسلمين في صحاحهم - ذكر بأنَّ الصالحين من أصحابه صلى الله عليه وآله يردون عليه الحوض بهذه العلامة والصفة، وعلي عليه السلام هو قائد هؤلاء الأصحاب الذين يردون الحوض على رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك في مقابل الأصحاب الذين يصدون عن الحوض، فعنوان (الغر المحجلين) عنوان طرحه رسول الله صلى الله عليه وآله للنخبة من أصحابه، وعلي عليه السلام قائد الغر المحجلين.

وفي هذا المجال يمكننا الرجوع إلى الأحاديث في فضائل ومناقب علي عليه السلام، حيث يجد الباحث أمامه مئات الروايات التي تدل على أن علياً عليه السلام امتاز بفضائل ومناقب لا يباريه فيها أحد من الناس.

عنوان ولاية الأمر: توجد روايات عديدة وكثيرة في هذا المضمون:

منها: إنَّ علياً هو وصي رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقد يحاول البعض تحديد عنوان الوصية وتفسيرها بالأمور الشخصية التي عرفها الشرع الإسلامي، وحث عليها المسلمين عند الوفاة، ولكن هذا التفسير ظلم وإجحاف في حق علي عليه السلام، إذ لابد في فهم هذه الأحاديث من ملاحظة ما اقترنت به من القرائن الكثيرة التي تعني بأنّ الوصية لها مدلول أوسع وأبعد، وهو

---

(١) تاريخ بغداد ٨: ٤٣٦.

(٢) المستدرك ٣: ١٣٧، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. مجمع الزوائد ٩: ١٢١.

الولاية، مضافاً إلى ما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام مما يدل أنّ هذه الوصية جعلت للتميم كأحد الأدلة الواضحة في تشخيص الإمام من بين إخوته أو من بين الأشخاص الذين يشتبه بهم الحال، حيث يكون الموصى إليه شخصياً هو الإمام[1].

وكذلك ما ورد من أنّ علياً عليه السلام وارث رسول الله صلى الله عليه وآله ووزيره[2]، ومن ذلك حديث الدار ودعوة العشيرة المعروف[3]، وحديث الغدير: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه...»، الذي يعتبر من أهم وأفضل هذه الأحاديث سنداً ودلالة، لما اقترن به من القرائن المقالية والحالية، ومنها أخذ البيعة لعلي عليه السلام من جمهور المسلمين.

وكذلك حديث: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع علياً فقد أطاعني، ومن عصى علياً فقد عصاني»[4]، فالطاعة تمثل بُعداً من الولاية.

وكذلك حديث: «يا علي من فارقني فقد فارق الله ومن فارقك يا علي فقد فارقني»[5].

وما ورد عنه في قوله صلى الله عليه وآله: «أنا وهذا -يعني علياً- حجة الله على خلقه»[6].

وكذلك ما ورد عنه صلى الله عليه وآله من: «أن علياً يقاتل على التأويل كما قاتلت على التنزيل»[7].

عنوان مثال الكمال الإنساني: وردت النصوص الكثيرة التي تعبّر عن وجود الكمال الإنساني في شخصية علي عليه السلام وهو بُعد آخر في الإمامة، بحيث يكون

---

(١) المستدرك ٣: ١٧٢.
(٢) كنز العمال ١١: ٦١٠، ح ٣٢٩٥٥.
(٣) مسند أحمد ١: ١١١. تفسير ابن كثير ٣: ٣٦٣.
(٤) المستدرك ٣: ١٢١. تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٢٧٠.
(٥) المستدرك ٣: ١٢٣. كنز العمال ١١: ٦١٤، ح ٣٢٩٧٥ و٣٢٧٦.
(٦) تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٠٨ - ٣٠٩. ذخائر العقبى: ٧٧. تاريخ بغداد ٢: ٨٦، ح ٤٧٤.
(٧) السنن الكبرى ٥: ١٥٤. المستدرك ٣: ١٢٢. تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٥١ - ٤٥٥.

الهدف من وجود الإنسان وخلقه في هذا الكون هو تجسيد هذا الكمال، ومن ذلك ما ورد: (أنَّ علياً يشبه الأنبياء في صفاتهم)[1]، كما يشار في هذا المجال ـ أيضاً ـ إلى محنة علي عليه السلام في ما تعرض له من سب وشتم وتهمة، فيمثل بعيسى عليه السلام الذي تعرض إلى مثل هذا الأذى والحصار.

وكذلك ما ورد: أنَّ النظر إلى علي عبادة وذكره عبادة، وكذلك ما ورد في فضائل علي عليه السلام ومناقبه مما يشير إلى هذا الكمال الإنساني فيه، بحيث يعبر عن المثال الكامل في وجود الإنسان.

فمجموع هذه الروايات التي وردت في علي عليه السلام مع الملاحظات التي أشرت إليها في المقدمة تدل على أنَّ جميع أبعاد الإمامة وبأعلى درجاتها وصورها تتجسد في شخصية الإمام علي عليه السلام.

القسم الثاني: الروايات في الزهراء عليها السلام

الروايات الكثيرة الواردة في الزهراء عليها السلام والتي تحمل أبعاداً متعددة، وقبل الإشارة إلى عناوينها أذكر عدة ملاحظات حول هذه الروايات:

ملاحظات حول الروايات في الزهراء عليها السلام

يلاحظ في الروايات التي تناولت الحديث عن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: ورود مجموعة كبيرة جداً من الروايات تحدثت عن فضل فاطمة على النساء، حيث لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وآله في كتب العامة في فضل وشأن

(١) عن أبي الحمراء قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه، وإلى نوح في فهمه، وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى يحيى بن زكريا في زهده، وإلى موسى بن عمران في بطشه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب»، راجع شواهد التنزيل١: ١٠٣، ح١١٧. والمناقب: ٨٣

وخصائص وامتيازات وحب لامرأة كما ورد بشأن السيدة فاطمة ﷺ، مع ملاحظة أنَّ رسول الله ﷺ كان من حيث العلاقات الخاصة تحيطه دائرة واسعة نسبياً من النساء، فقد تزوج ﷺ من النساء حوالي خمس عشرة امرأة، وتوفي عن تسع منهن[1]، وهذه دائرة واسعة نسبياً في مجال الزوجات، لعلها لا تشبه أي دائرة من دوائر الناس العاديين، فضلاً عن شخصية كرسول الله ﷺ،

وقد كان عدد من زوجاته ﷺ نساء ذوات شأن وموقع خاص في الوضع الاجتماعي والإسلامي، باعتبار طبيعة العلاقات الاجتماعية العامة التي كان يعيشها رسول الله ﷺ.

مضافاً إلى إلى ما ينسب له ﷺ على مستوى التأريخ العام لدى جمهور المسلمين من وجود بنات له غير السيدة فاطمة ﷺ[2].

ومن ثم، فمن خلال وجهة النظر هذه يفترض وجود علاقات أبوة مع بعض النساء الأُخريات، ولم تكن هذه العلاقة خاصة بالسيدة فاطمة ﷺ، ولكن بالرغم من هذه الدائرة الواسعة نسبياً من النساء التي كان يعيش فيها رسول الله ﷺ بصورة خاصة لا نجد هذا القدر من الحديث الذي ورد بشأن أي أمرأة كما ورد بشأن فاطمة ﷺ.

وحتى عائشة التي كانت تتميز في علاقاتها برسول الله ﷺ بنظر روايات جمهور المسلمين التي روت أكثرها عائشة نفسها عن رسول الله ﷺ[3].

---

(١) أسد الغابة ١: ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) يوجد هناك حديث وكلام في البحث التأريخي في ما يتعلق بهذا الموضوع، ولعل الراجح أنَّ السيدة فاطمة ﷺ هي البنت الوحيدة من ذريته ﷺ ، وإنَّ الأخريات ربيبات رسول الله من زوجته الأولى المفضلة خديجة بنت خويلد. منه ﷺ.

(٣) ذلك لأن عائشة أكثرت الرواية عن رسول الله ﷺ بحد يمكن أن نقول فيه: إنَّ ما روته عائشة عن رسول الله ﷺ لم يرد عن أي امرأة أُخرى حتى فاطمة الزهراء ﷺ نفسها، وذلك حسب ما في روايات جمهور المسلمين. منه ﷺ.

فإنَّ هذه الروايات التي تتحدث عن علاقة عائشة المتميزة مع رسول الله ﷺ هي أيضاً لم يصل فيها هذا الامتياز إلى درجة الامتياز الذي تتحدث عنه الروايات التي وردت في كتب جمهور المسلمين بشأن فاطمة الزهراء عليها السلام.

بل إنَّ الروايات التي وردت على لسان عائشة نفسها في كتب جمهور المسلمين تتحدث عن فاطمة عليها السلام بحديث يميزها على كل النساء.

فقد ورد عن عائشة: «أنَّ النبي ﷺ قال ـ وهو في مرضه الذي توفي فيه ـ: يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، وسيدة نساء هذه الأمة، وسيدة نساء المؤمنين؟ »[1].

الخلاصة: إنَّ ما ورد في فاطمة عليها السلام في كتب جمهور المسلمين من الكثرة والامتياز لا نظير له بالنسبة إلى أي امرأة أخرى كانت تحيط برسول الله ﷺ، فضلاً عن نساء المسلمين بصورة عامة.

الملاحظة الثانية: إنَّ علاقة الحب والمودة بين رسول الله ﷺ وفاطمة التي تتحدث عنها هذه الروايات كانت بدرجة عالية، لا يمكن أن نجد لها نظيراً في التأريخ الإنساني، كما أنّها عميقة ومقدسة لا نظير لها في التأريخ.

فقد جاء في الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقوم لمدة ستة أشهر ـ أواخر أيامه ـ في كل يوم ولعدة مرات بالمرور على بيت فاطمة والسلام عليها، وذلك عندما يأتي إلى الصلاة في المسجد خمس مرات يومياً، وكان بيت فاطمة في المسجد، ويقوم رسول الله ﷺ في الذهاب والإياب بالوقوف على بيت فاطمة ويسلّم عليها[2].

وهذه الحالة غريبة، لا نجد لها نظيراً في التأريخ الإسلامي.

---

(١) المستدرك ٣: ١٥٦، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. صحيح البخاري ٧: ١٤١ مع اختلاف يسير.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٩٩.

أو أنّ رسول الله ﷺ ـ كما تروي عائشة ـ كان إذا دخلت عليه فاطمة يقوم من مجلسه ويأخذ بيدها ويقبلها[١]، وضمير (يقبلها) قد يرجع إلى فاطمة أو إلى يد فاطمة.

وعلى كلا التقديرين، فإن فيه دلالة خاصة في الحب والاحترام، ثم لا يكتفي بذلك حتى يجلسها مجلسه، وهذا الإجلاس له معنىً خاص في الآداب الاجتماعية والعرفية القائمة آنذاك، فعندما يعطي الإنسان مجلسه لآخر يريد بذلك التعبير عن الدرجة العالية جداً من الاحترام والتكريم لذلك الإنسان، وهو أمر لم يكن معروفاً في العرف الاجتماعي تجاه الأبناء، ولم تكن فاطمة عليها السلام امرأة غريبة عن رسول الله ﷺ فهي ابنته، ومع ذلك كان يتعامل معها بهذه الطريقة[٢].

كما أنّ هذه العلاقة كانت بدرجة عالية جداً من الحب والعاطفة من قبل فاطمة عليها السلام نفسها تجاه أبيها ﷺ، حتى أنّها سميت باللقب المعروف عنها (أم أبيها)[٣]، أي أنّ علاقة الحب والرعاية لرسول الله من قبلها كانت بهذه الدرجة التي تستحق هذه التسمية.

ولعل أروع تعبير عن ذلك ما ترويه عائشة ـ أيضاً ـ في فضل فاطمة عليها السلام في هذا الأمر، قالت: «ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ودلاً وهدياً برسول الله في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت ـ وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها، فلما مرض النبي ﷺ دخلت فاطمة

(١) روى الحاكم في مستدركه، عن عائشة قالت: «ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله ﷺ وكانت إذا دخلت عليه رحّب بها وقام إليها فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه». المستدرك ٣: ١٥٤، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٢) والروايات في هذه المجال كثيرة جداً، ويمكن مراجعتها في مصادرها.

(٣) أسد الغابة ٥: ٥٢٠. الإصابة ٨: ٢٦٢.

فأكبت عليه فقبلته ثم رفعت رأسها فبكت، ثم أكبت عليه ثم رفعت رأسها فضحكت، فقلت: إن كنت لأظن أنَّ هذه من أعقل نسائنا فإذا هي من النساء!، فلما توفي النبي ﷺ قلت لها: أرأيت حين أكببت على النبي ﷺ فرفعت رأسك فبكيت ثم أكببت عليه فرفعت رأسك فضحكت، ما حملك على ذلك؟ قالت: إني أذن لبذرة أخبرني أنّه ميت من وجعه هذا فبكيت، ثم أخبرني أنّي أسرع أهله لحوقاً به وذاك حين ضحكت»[1].

فإن هذه الرواية تعبّر عن الدرجة العالية من حب فاطمة عليها السلام لأبيها ﷺ، وذلك فإنَّ الأمر الأول ـ وهو بكاؤها على فراقه ـ وإن كان أمراً عادياً، حيث يتحقق ـ عادة ـ بالنسبة لعموم الناس عند سماعهم بخبر وفاة رسول الله ﷺ، ولكن الأمر الثاني ـ وهو الشيء المهم في التعبير عن هذه العلاقة ـ فإنَّ امرأة شابة بهذا السن والوضع الخاص عندما تخبر بأنّها سوف تكون أول الناس لحوقاً برسول الله ﷺ، وفراقاً لهذه الحياة، تفرح وتتبسم بالرغم من حزنها على فراقه، حيث كان فرحها بلقاء أبيها بهذه الدرجة العالية، وعائشة تنقل هذا الحديث بكل تفاصيله.

فهذه الدرجة العالية من الحب شيء مهم جداً، لابد من أخذه بنظر الاعتبار عند الحديث عن هذه الروايات.

الملاحظة الثالثة: إنَّ الشيء المهم الذي لابد أن يتابع في هذه الروايات هو: هل أنَّ موقع الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام من الإمامة يتمثل في كونها امرأة مقدسة طاهرة ذات مواصفات عالية، وفي الوقت نفسه هي بنت النبي وزوجة الولي وأم الأئمة الأطهار، أو أنَّ للصديقة موقعاً أعظم وأعمق من ذلك؟

وفي مقام الجواب نلاحظ:

---

(١) سنن الترمذي ٥: ٣٦١، ورواه الحاكم ـ أيضاً ـ في مستدركه ٤: ٢٧٢ ـ ٢٧٣، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. ورواه البخاري في صحيحه٧: ١٤١ بمضمون قريب عن هذا المضمون.

إنَّ هذه الروايات بمجموعها تشير في مضمونها إلى وجود أبعاد الإمامة في الصدّيقة فاطمة عليها السلام وهي الأبعاد الستة التي تقدم الحديث عنها في نظرية الإمامة.

وهذا الأمر يثير ـ أيضاً ـ التساؤل حول المقصود من الإشارة في هذه الروايات عندما تطرح فاطمة عليها السلام كامرأة بهذا المستوى من الموقع الذي تتجسد فيه أبعاد الإمامة، مع أنّنا نعرف أنَّ فاطمة عليها السلام لم تسم بـ (الإمام) ولم تعنون بهذا العنوان، لا في هذه الروايات ولا في غيرها، بخلاف النبي صلى الله عليه وآله وعلي والحسن والحسين وبقية أئمة أهل البيت عليهم السلام فانهم سمّوا بالإمامة.

إذن، فعنوان الإمامة لا ينطبق على الزهراء عليها السلام كعنوان له بعد اجتماعي، ولكن مع ذلك نجد أبعاد الإمامة في شخصيتها عليها السلام.

الزهراء عليها السلام ومنصب الإمامة

وهذا يفتح أمامنا بحثاً واسعاً، وهو: ما السبب في عدم تسمية السيدة فاطمة عليها السلام بالإمامة؟ وما هو السرّ في اتصافها عليها السلام بهذه الأبعاد، بحيث يكون فيها هذا المستوى العالي من تكامل الشخصية؟

إن أحد الأبعاد في هذا الموضوع هو بحث ذو طابع قانوني واجتماعي، يتلخص في أنَّ منصب الإمامة منصب اجتماعي خاص بالرجل، كمنصب القيمومة الذي أعطي للرجل في الأسرة، فلعله لذلك لم تسمّ فاطمة عليها السلام بالإمام باعتبار هذا الجانب الاجتماعي، فالقضية لا ترتبط بهوية المرأة والتكامل فيها، أو قضية الموقع والمستوى في التكامل الشخصي، وإنّما هي قضية التنظيم الاجتماعي، وأنَّ النظام الاجتماعي الإسلامي يفرض أن يكون هذا الموقع للرجل لسرّ من الأسرار يبحث في مجاله.

وبُعد آخر يشكل احتمالاً آخر في تفسير عدم تسمية فاطمة عليها السلام بالإمامة، وهو وجود المانع من هذه التسمية بسبب وجود رسول الله صلى الله عليه وآله ووجود الإمام علي عليه السلام، حيث إنَّ حياتها عليها السلام كانت في حياة الرسول صلى الله عليه وآله، وقد فارقت الحياة

بعده صلى الله عليه وآله بمدة قصيرة، فلم تكن هناك فرصة لهذه التسمية، لوجود الإمام علي عليه السلام، فلا يجتمع إمامان في وقت واحد إلاّ وأحدهما صامت، كما هو الحال بالنسبة للإمام الحسين عليه السلام، حيث إنّه لم يسمّ بالإمامة في حياة أخيه الإمام الحسن عليه السلام، وهناك نصوص[1] تشير إلى هذا الأمر والحقيقة[2].

والبعد الثالث المحتمل في هذا البحث هو أنّ المراد من منح الصدّيقة فاطمة عليها السلام هذا الموقع الخاص من أبعاد الإمامة والاصطفاء من الله تعالى لها، هو الإشارة إلى أنّ موقع المرأة في النظرية الإسلامية مكمّل لموقع الرجل في مختلف المستويات وشؤون الحياة، كما هو الحال في موقعها المكمّل لشؤون الرجل في التوالد والتناسل والتكاثر في الحياة الإنسانية والبشرية، حيث إنّ التكاثر والتناسل أريد له في الرؤية الإسلامية وبحسب التقدير الإلهي أن يكون من خلال المرأة والرجل لتكوين الأسرة، مع أنّه بالامكان أن يتم التكاثر والتناسب بطريقة أخرى غير الزواج أو غير علاقات الرجل والمرأة، فهناك ـ مثلاً ـ نظرية علمية مطروحة الآن وقد طبقت إلى حدّ ما على بعض الحيوانات[3]، وهو أن يتم التكاثر والتناسل عن طريق أخذ عيّنة وخلية من الإنسان وتكثّر هذه الخلية، فيتحول هذا الموجود إلى أكثر من فرد واحد، وكما هو الحال في حالة الخلايا وتكاثرها في داخل جسم الإنسان، أو تكاثر (البكتريا)، فإن هذا التكاثر لا يتم عن طريق وجود زوجين ـ ذكر وأنثى ـ بالمعنى المعروف في الحيوانات، وإنّما يكون عن طريق الانقسام

---

(١) روى الحسين بن أبي العلاء قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: تكون الأرض ليس فيها إمام؟ قال: لا، قلت: يكون إمامان؟ قال: لا إلاّ وأحدهما صامت». الكافي ١: ١٧٨، ح١.

(٢) وقد يفتح هذا الأمر أمامنا البحث عن وجود أشخاص كانوا من حيث المستوى النفسي والروحي والأخلاقي بمستوى أن يكونوا أئمة، ولكن لوجود مانع يمنع من إمامتهم، وهو وجود من هو أفضل منهم في هذا المستوى، ولذا لم يسموا بالإمام، إذ إنّه لا يجتمع إمامان في وقت واحد إلاّ وأحدهما صامت، مما يعني عدم إطلاق عنوان الإمامة عليه اجتماعياً. وهذا على كل حال بحث من الأبحاث التي ينبغي أن يتابع في موقعه. منه قدس سره.

(٣) وهي ما تسمى بنظرية وتجربة (الاستنساخ) المعروفة.

الداخلي في هذه الخلية والتوالد والتكاثر التدريجي في الخلايا، أو يكون التكاثر كما هو في النباتات.

ولكن شاء الله تعالى في هذا الإنسان ـ الذي خلقه في أحسن تقويم ـ أن يكون إنساناً موجوداً له بعد اجتماعي، وهذا البعد الاجتماعي لابد أن يتم فيه التكاثر والتناسل بهذه الطريقة، طريقة الرجل والمرأة وبطريقة منظمة ومضبوطة.

وهنا يقال ـ أيضاً ـ: أريد لهذا المجتمع في الأبعاد الأُخرى له، ومن أجل أن يتكامل، أن يكون لكل من الزوجين دور في التكامل الإنساني والاجتماعي، فيكون للمرأة دور وللرجل للدور، ويتحقق التكامل لهما على جميع المستويات، ومنها مستوى الاصطفاء والاجتباء.

ولعل هذا البُعد هو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾[1]، حيث إنَّ الله تعالى في هذه الآيات الكريمة ضرب مثلاً للذين كفروا في امرأتين، وضرب مثلاً للذين آمنوا ـ أيضاً ـ في امرأتين، وهو مثل لجميع الكفار ولجميع المؤمنين، ومن ثم فقد يكون المراد من ذلك الإشارة إلى هذه الحقيقة.

لأن المرأة موجود أُريد له أن يكمّل الوجود الإنساني من الناحية الاجتماعية العامة، وفي حركة تكامل المجتمع والوصول به إلى الدرجات العليا المطلوبة لابد أن يكون لها دور خاص في التكامل الفردي، ومن أجل تجسيد هذه الحقيقة في

(١) التحريم: ١٠ ـ ١٢.

الحياة الإنسانية بهذا البُعد على مستوى موقع الإمامة كان هذا الاصطفاء والكمال في فاطمة الزهراء عليها السلام، حيث إنَّ موقع الإمامة هو أهم موقع في الهرم الاجتماعي، وأريد أن يعطى دور للمرأة في إكمال موقع الإمامة في الرسالة الخاتمة، فكان هذا الدور لفاطمة الزهراء عليها السلام بخصوصياتها وأبعادها، وهو أمر قد يلقي بظلاله الوارفة في تفسير موقفها في الدفاع عن الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذا بحث بابه واسع، ولكن لابد أن نأخذه بنظر الاعتبار عندما ننظر إلى هذه الروايات من زاوية الإمامة، وإلاّ فقد يقال: ما هو موقع الحديث هنا عن فاطمة الزهراء عليها السلام ونحن نتحدث عن الإمامة في أهل البيت عليهم السلام - لا عن أهل البيت بعنوان أهل البيت فحسب - والزهراء عليها السلام ليست إماماً، فما هو معنى الحديث فيها؟

ولكن بملاحظة هذه الزاوية يمكن أن يقال: إنَّ موقع الحديث عن فاطمة الزهراء عليها السلام هو أنَّ الأبعاد المطلوبة في الإمامة في النظرية التي تقدم طرحها هي موجودة - أيضاً - في فاطمة الزهراء عليها السلام، وهي وإن لم تسم بالإمامة، ولكنَّها يمكن أن يكون لها دور في إكمال دور الإمامة من الناحية الاجتماعية والمسيرة البشرية، أي: في إكمال الصورة المطلوبة للبناء الإنساني الاجتماعي الكامل في هذا الموقع الخاص المتميز وهو موقع الإمامة، حيث إنَّ فاطمة الزهراء عليها السلام لها هذه الخصوصية.

وقد يكون لجميع هذه الأسباب مجتمعة، أو لغيرها دور في تفسير هذه الظاهرة.

الملاحظة الرابعة: إنَّ الحديث عن فاطمة الزهراء عليها السلام يمكن أن نجده في جميع الروايات التي تحدثت عن أهل البيت عليهم السلام، أي أنَّ كل ما ورد من روايات في أهل البيت عليهم السلام - ومنها الروايات التي تقدمت الإشارة إليها - تنطبق على الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام، لأنها أقرب مصداق لعنوان أهل البيت عليهم السلام وصاحب

البيت، ففاطمة الزهراء عليها السلام هي الذرّية المباشرة الوحيدة الباقية لرسول الله صلى الله عليه وآله، وحتى لو افترضنا ـ كما تذكر روايات الجمهور ـ أنَّ للرسول صلى الله عليه وآله بناتاً أُخريات، فأولئك البنات كن قد توفين في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله.

فكلما ورد في أهل البيت عليهم السلام من حديث في فضل أو امتياز في مواصفات الكمال والأبعاد نجدها تنطبق على فاطمة الزهراء عليها السلام بصورة أوضح من انطباقها على الآخرين[1].

الملاحظة الخامسة: إنَّ الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام قد تعرضت ـ كما تعرض بقية أهل البيت عليهم السلام ـ إلى عمليات قمع تاريخي، وتعتيم للحقائق التي وردت بشأنها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكنَّها زادت على ذلك بسبب موقفها الخاص بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله الذي تجسد في رفضها لقبول خلافة أبي بكر والبيعة له واستمرارها عليه حتى وفاتها، وفي دفاعها عن الإمام علي عليه السلام عندما حاولوا فرض البيعة لأبي بكر عليه بالقوة وتهديده بالقتل، وفي مطالبتها بحقوقها المشروعة وإعلانها عن وقوع حكم الخلافة ببعض الانحرافات الواضحة بهذا الشأن، ومنها قضية فدك[2]، كل هذه الأمور وغيرها أدت إلى هذا القمع التأريخي والتعتيم العام.

ولابد أن نفهم ما وصل إلينا بشأنها في هذا الإطار الخاص.

وفي هذا المجال يمكن أن نفهم المحاولات التأريخية والسياسية التي بذلت لإبراز شخصيات نسائية أُخرى وطرحها كشخصيات مقارنة أو منافسة

---

(١) لا أقصد أنَّ فاطمة الزهراء عليها السلام أفضل من الآخرين، أي: أفضل من الإمام علي عليه السلام، وإنَّما أقصد أن انطباق عنوان أهل البيت على فاطمة الزهراء عليها السلام هو أوضح من انطباقه على أي واحد من الآخرين، لأن انطباقها على الحسنين عليهما السلام إنَّما هو باعتبار أنَّهما أولاد فاطمة عليها السلام وانطباقه على علي عليه السلام باعتباره زوج فاطمة عليها السلام وابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله الذي أنزله منزلة نفسه. منه قدس سره.

(٢) راجع كتاب الزهراء عليها السلام أهداف. مواقف. نتائج: ١١٥ لشهيد المحراب.

للصديقة عليها السلام[١]، وكذلك محاولات إبراز الصدّيقة على أنّها إنسانة تقع تحت تأثير المشاعر الإنسانية العادية من الغضب أو الانفعالات أو حب الدنيا أو غير ذلك مما نشاهده أحياناً في كتب الحديث العامة[٢].

إنّ هذه الملاحظات لابد من وضعها أمامنا عند الحديث عن الروايات التي ذكرت الزهراء عليها السلام.

عناوين الروايات التي ذكرت الزهراء عليها السلام

سوف أكتفي بالإشارة فقط إلى عناوين الروايات التي ذكرت الزهراء عليها السلام، حيث نجد فيها الأبعاد التي ذكرناها في الإمامة:

ففي بُعد (الاصطفاء) الذي هو من الأبعاد المهمة في قضية الإمامة، نجد هناك مجموعة من العناوين تحدثت عنها الروايات التي أشير إليها[٣]:

منها: عنوان أنّها (حوراء أنسية)، و (طاهرة مطهرة)، و (حوراء آدمية)، وأنّ الله تعالى فطمها وذريتها ومحبيها من النار، وأنّها (صدّيقة)، و (خيرة الله تعالى)، أي: أنّ الله تعالى اختارها، فقضية الاختيار والاصطفاء مذكورة بعنوانها.

ففي رواية رواها المستدرك على الصحيحين، عن سعد بن مالك، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أتاني جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بسفرجلة من الجنة فأكلتها

(١) كما في بعض النصوص التي تتحدث عن مساواتها لبقية النساء، أو تحذف اسمها من قائمة النساء الفضليات، أو توحي بأفضلية عائشة على جميع النساء، مع أنّ عائشة ارتكبت مخالفات خطيرة بإجماع المسلمين، أدت إلى شن الحروب وإراقة دماء المسلمين، وتشتت شملهم في زمن الخليفة عثمان، والإمام علي عليه السلام. منه قدس سره.

(٢) ناقش هذه الروايات شهيد المحراب في الفصل الأخير من كتابه الزهراء عليها السلام. أهداف. مواقف. نتائج.

(٣) وردت هذه الروايات عن طريق الجمهور ـ وهي موضوع حديثنا ـ والكثير منها بالنسبة إلى أي عنوان من هذه العناوين أو مجموعة العناوين المتقاربة التي تعبر عن أحد الأبعاد صحيحة على طبق شروطهم في صحة الحديث. منه قدس سره.

ليلة أسري بي فعلقت خديجة بفاطمة فكنت إذا اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رقبة فاطمة»[١] وهذه رواية تعبّر عن قضية الاصطفاء أيضاً، أي: أنَّ الله تعالى كان قد اصطفى فاطمة بهذه الطريقة.

وفي رواية أُخرى رواها الخطيب البغدادي في تاريخه، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ قال: «... ففاطمة من تلك النطفة وهي حوراء إنسية... »[٢].

ورواية أُخرى رواها صاحب ذخائر العقبى، في قصة ولادتها من الحمل الخفيف لها، والحديث في بطن أُمها، وما ولي من ولادتها من النساء الأربعة، وهنّ خيرة النساء المصطفين، كما ورد ذلك في روايات متواترة لدى علماء الجمهور ـ وقد أشار القرآن الكريم إلى اصطفاء بعض هذه النسوة على أقل تقدير، كما مرَّ في الآيات الشريفة ـ حيث ولي ولادتها حواء، وكلثم أخت موسى عليه السلام، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون، ومريم بنت عمران[٣].

ومن ذلك ـ أيضاً ـ ما ورد في تفسير اسم فاطمة ـ كما جاء في عدة طرق ـ من قول رسول الله ﷺ: «إنَّ الله عزّ وجل فطم ابنتي فاطمة وولدها ومن أحبهم من النار، فلذلك سميت فاطمة»[٤].

---

(١) المستدرك٣: ١٥٦.

(٢) تأريخ بغداد ٥: ٢٩٢.

(٣) روي أنَّ النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل بتفاحة من الجنة فأكلتها وواقعت خديجة فحملت بفاطمة، فقالت: إني حملت حملاً خفيفاً فإذا خرجتَ ـ أي عندما يخرج النبي ﷺ وتبقى وحدها ـ حدثني الذي في بطني، فلما أرادت أن تضع بعثت إلى نساء قريش ليأتينها فيلين منها ما تلي النساء ممن تلد، فلم يفعلن وقلن: لا نأتيك وقد صرت زوجة محمد، فبينما هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة عليهن من الجمال والنور ما لا يوصف، فقالت لها إحداهن: أنا أمك حواء، وقالت الأخرى: أنا آسية بنت مزاحم، وقالت الأخرى: أنا كلثم أخت موسى، وقالت الأخرى: أنا مريم بنت عمران أم عيسى، جئنا لنلي من أمرك ما تلي النساء، قالت: فولدت فاطمة، فوقعت حين وقعت على الأرض ساجدة رافعة إصبعها»، ذخائر العقبى : ٤٤ ـ ٤٥.

(٤) ذخائر العقبى : ٢٦. تاريخ بغداد ١٢: ٣٢٧. ينابيع المودة٢: ١٢١.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «ليلة عرج بي إلى السماء رأيت على باب الجنة مكتوباً: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله علي حب الله ـ أي محبوب الله ـ والحسن والحسين صفوة الله، فاطمة خيرة الله، على باغضهم لعنة الله»[1]. وهذا الحديث صحيح ـ حسب الظاهر ـ طبق موازين الجمهور وأهل السنة. هذا في موضوع بُعد الاصطفاء.

إذن، ففاطمة كانت مصطفاة كما تدل على ذلك الأحاديث.

وفي بُعد (المثال الإنساني الكامل)، الذي عبرنا عنه ببعد الهدف من وجود الإنسان، وهو وجود هؤلاء المصطفين، وأنَّ الإمامة تمثل المثال الكامل لهم، فقد ورد بشأن الصديقة فاطمة عليها السلام: «إنَّ فاطمة أحصنت حرّمها الله وذرّيتها على النار»[2]، وكذلك ما ورد في أنَّ مصير فاطمة إلى الجنة، و «فاطمة أول من يدخل الجنة»[3]، وما ورد في مرور فاطمة على الصراط، وغيرها من الروايات.

ومن ذلك هذه الرواية التي تدل على هذا المضمون، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «تبعث الأنبياء يوم القيامة على الدواب ليوافوا بالمؤمنين ـ يعني أنَّ الله تعالى يأتي بالمؤمنين إلى الجنة بهذا الطريقة وبهذا الشكل، وكل نبي يبعث على دابة من الدواب حتى يأتي بمن آمن به، ممن اختارهم الله تعالى للجنة ـ من قومهم المحشر، ويبعث صالح على ناقته، وأبعث على البراق خطوها عند أقصى طرفها، وتبعث فاطمة أمامي»[4]، وأنَّ فاطمة عند ذلك تبعث أمام رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهناك رواية أُخرى يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من وراء حجاب: يا أهل الجمع غضّوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله حتى تمر».

---

(١) تاريخ بغداد١: ٢٧٤. ميزان الاعتدال٣: ٤٧٨، باختلاف يسير.

(٢) المعجم الكبير٢٢: ٤٠٧. الجامع الصغير١: ٣٥٢.

(٣) لسان الميزان٤: ١٦. الفصول المهمة١: ٦٥٩.

(٤) المستدرك٣: ١٥٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

وفي رواية أُخرى: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش: يا أهل الجمع نكّسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم حتى تمّر فاطمة بنت محمد ﷺ على الصراط، فتمّر مع سبعين ألف جارية من الحور العين كمرّ البرق»(١). وفي هذا الحديث مدلول أوسع من النص السابق، إذ ليس المطلوب فيه غض البصر فحسب، بل لابد للناس من التعبير عن الاحترام أو الخضوع أو التقديس وهو ما نفهمه من «نكسوا رؤوسكم».

وذكر الذهبي في ميزان الاعتدال حديثاً واعترف بصحته، عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «أول شخص يدخل الجنة فاطمة»(٢). ولعله انتزعه من ذاك الحديث ـ وقد مرّ ـ الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «... وأبعث على البراق خطوها عند أقصى طرفها، وتبعث فاطمة أمامي»، فإذا كان يدخل الجنة وفاطمة أمامه، فبطبيعة الحال تكون فاطمة عليها السلام أول من يدخل الجنة.

هذا في موضوع التكامل الإنساني.

وأما في بُعد (الامتياز والفضل)، فإننا نجد ـ أيضاً ـ الكثير من النصوص المتواترة لدى أهل السنة فضلاً عما ورد في أحاديثنا التي أشارت الى امتيازها على النساء، وأنّها هي أفضلهن، فهي سيدة نساء عالمها، وأنّ عالمها أفضل العوالم. بل هي أفضل حتى من خير النساء، كما وردت نصوص أُخرى تشبهها برسول الله ﷺ في خَلقه وخُلقه وهديه. وهذا التشبيه في هذه الأبعاد يعطيها درجة عالية جداً من الامتياز، فلو كان هذا التشبيه قد ورد على لسان احد الإئمة عليهم السلام أو ولد من أولادها عليهم السلام فقد يحمل لدى الآخرين على المبالغة في تعظيم فاطمة عليها السلام أو على محامل أُخرى خاصة، ولكن عندما يرد على لسان عائشة ـ التي كانت كما ورد

---

(١) كنز العمال١٢: ١٠٥، ح٣٤٢٠٩. المستدرك ٣: ١٥٣، وقال الحاكم عن الرواية السابقة: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. ذخائر العقبى: ٤٨. تاريخ بغداد ٨: ١٣٦.

(٢) ميزان الإعتدال٢: ٦١٨.

في الحديث المرويّ في كتبهم وصحاحهم عنها تكنّ شيئاً من الغيرة لفاطمة، باعتبار ما كانت تشعر به من حب رسول الله صلى الله عليه وآله لها عليها السلام، وأنَّ علاقته صلى الله عليه وآله بها كانت وطيدة جداً ـ يكون حينئذٍ لهذا الوصف مدلول خاص في إعطاء هذا الامتياز لفاطمة عليها السلام، فهي تقول: ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ودلاً وهدياً برسول الله صلى الله عليه وآله في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ـ قالت ـ: وكانت إذا دخلت على النبي صلى الله عليه وآله قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها.

وهناك بعض الروايات التي تدل على علم فاطمة عليها السلام، وزهدها وصبرها وتحملها، وغير ذلك من الأخلاق العالية التي كانت تتصف بها عليها السلام.

ولا شك أنَّ بعض الدرجات الموجودة في هذه الأخلاق مكتسبة من خلال ممارسة فاطمة الزهراء عليها السلام وسلوكها، ولكن بعضها الآخر هو منحة إلهية.

وعلى أي حال، فهذا النوع من الأخلاق الذي عبّرنا عنه بـ (الامتياز) لموجود في فاطمة الزهراء عليها السلام.

وفي بُعد (الامتداد) توجد ـ أيضاً ـ مجموعة من الأحاديث التي تشير إلى ذلك، من قبيل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كل بني آدم ينتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وأنا عصبتهم».

وفي رواية أُخرى ما لفظه: «إنَّ لكل بني أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم، وهم عترتي خلقوا من طينتي، ويل للمكذبين بفضلهم، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[1]. فكان يفترض أنَّ فاطمة عليها السلام وولدها يمثلون امتداداً له وبقاءً واستمراراً له.

وكذلك ما ورد بشكل متواتر في قوله صلى الله عليه وآله: «فاطمة بضعة مني، فمن

---

(١) كنز العمال ١٢: ٩٨، ح٣٤١٦٨، و١١٤، ح٣٤٢٥٣، و١١٦، ح٣٤٢٦٦، و٣٤٢٦٧. تاريخ بغداد ١١: ٢٨٣ مع اختلاف يسير.

أغضبها أغضبني»[(١)]، أو قوله: «فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن غاضها فقد غاضني ومن سرّها فقد سرّني»[(٢)].

وقوله ﷺ فيها: «بضعة مني» يكاد أن يكون متواتراً بنصّه في كتبهم، مع قطع النظر عن بعض الخصوصيات التي اقترنت بهذا التعبير.

وفي بُعد (الطاعة والولاية) وارتباط الصدّيقة فاطمة عليها السلام بهذا البُعد، نلاحظ ما ورد من قوله ﷺ: «يا فاطمة إنّ الله ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك»[(٣)].

إذن، فطاعتها تكون طاعة لله تعالى، وأيضاً عصيانها وإغضابها يكون إغضاباً لله تعالى، وقد احتجت الصدّيقة بذلك على الشيخين.

وما ورد من بُعد (الولاء والمودّة) ووجوب حبّها وودّها، ومن ذلك ما تقدم سابقاً: «إنّ الله عز وجل فطم ابنتي فاطمة وولدها ومن أحبهم من النار».

إذن، فقضية حبّها يكون سبباً لنجاة الإنسان من النار، فهو واجب لا مناص عنه[(٤)].

القسم الثالث: الروايات في الحسنين عليهما السلام

الروايات التي وردت في الحسنين عليهما السلام على وجهين:

الأول: الروايات التي وردت في الحسنين بعنوانهما المشترك.

الثاني: ما تناول كلاً من الحسن والحسين عليهما السلام بصورة مستقلة وبخصوصياته ومواصفاته.

---

(١) صحيح البخاري ٤: ٢١٠.

(٢) السنن الكبرى ١٠: ٢٠٢.

(٣) مجمع الزوائد ٩: ٢٠٣. ميزان الاعتدال ١: ٥٣٥. المستدرك ٣: ١٥٣.

(٤) نسأله تعالى أن يجعلنا ممن أحب فاطمة عليها السلام وأحب أباها ﷺ وزوجها والأئمة الطاهرين عليهم السلام من أبنائها، وأن نكون إن شاء الله من السائرين على منوالها. منه دام ظله.

ملاحظات حول الروايات في الحسنين عليهما السلام

وقبل التعرض إلى هذه الروايات وعناوينها لابد من الإشارة إلى عدة ملاحظات حول هذه الروايات[(١)]:

الملاحظة الأولى: إنَّ الحسن والحسين عليهما السلام يمثلان مصداقاً من أوضح المصاديق التي ينطبق عليها عنوان أهل البيت بعد أُمهما فاطمة الزهراء عليها السلام، ولذلك فلابد أن يكون النظر إلى هذه الروايات كروايات مكمّلة وموضِّحة للآيات والروايات الشريفة التي وردت بشأن أهل البيت عليهم السلام، والتي تمّ الحديث عنها سابقاً؛ لأنَّ ما ورد بشأنهم عليهم السلام بصورة عامة من آيات وروايات شريفة تنطبق على الحسن والحسين عليهما السلام ـ أيضاً ـ باعتبارهما من المصاديق الواضحة لعنوان أهل البيت عليهم السلام.

الملاحظة الثانية: إنَّ الحسن والحسين عليهما السلام كانا في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله في سن الطفولة، أي لم يبلغا سنّ الرشد بالمعنى العرفي له، بنظر الناس في الحياة البشرية الاعتيادية، فالحديث عنهما من قِبَل الرسول صلى الله عليه وآله بحديثٍ له مضمون عالٍ وهما يعيشان هذا السن له مداليل تختلف عن مدلول ما إذا تحدث النبي صلى الله عليه وآله عن إنسان يراه الناس كاملاً في كل خصوصياته وشؤونه الإنسانية من قوة بدنية، وعمر متقدم، وممارسة اجتماعية وجهادية، وغير ذلك كما هو الحال في الإمام علي عليه السلام الذي تحدث عنه رسول الله صلى الله عليه وآله بأحاديث كثيرة، فقد كان عليه السلام على المستوى البشري العادي الإنساني إنسان له مستوى مناسب من العمر، ومن الممارسة الخارجية في القتال والجهاد والحركة الاجتماعية، وفي تحمل المسؤولية الخارجية، حيث كان يمارس أدواراً في هذه المجالات، ومن ثَمَّ فالحديث عنه حديث عن شخص يراه الناس تتجسد فيه هذه المضامين والعناوين التي كان يتحدث عنها النبي صلى الله عليه وآله، أما الحسنان عليهما السلام فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتحدث عن طفلين لا يرى

---

(١) الحديث الآن عن الروايات الواردة عن طريق الجمهور، أما التي وردت عن طريق جماعة أهل البيت عليهم السلام فسنتناولها بعد ذلك في حديث آخر. منه قدس سره.

الناس منهما إلاّ صغر سنهما وحياتهما المحدودة.

نعم، الحسنان عليهما السلام قد بلغا الرشد الكامل بالمعنى الحقيقي والمعنوي له بحسب الواقع في معرفتنا لهما باعتبارهما إمامين معصومين، كما تشير إلى ذلك الآيات والروايات التي وردت في أهل البيت عموماً، ولكن حديث النبي صلى الله عليه وآله عنهما أمام الناس كان حديثاً عن طفلين بنظر هؤلاء الناس.

الملاحظة الثالثة: مرّ الحسنان عليهما السلام بظروف سياسية خاصة، فلابد من ملاحظتها عند دراسة وتقييم هذه الأحاديث.

فالإمام الحسن عليه السلام مرَّ بظروف مقاومته لمعاوية الطامع بالخلافة والسلطان، ثم الصلح أو (الهدنة) إذا أردنا استخدم تعبيراً دقيقاً عن الموقف السياسي والمذكرة التي وقعها عليه السلام مع معاوية، والإمام الحسين عليه السلام مرَّ بظروف الثورة والنهضة ضد الحكم الاموي اليزيدي مما أدى إلى استشهاده.

ويسبب هذه الظروف تعرض كل منهما عليهما السلام إلى محاولة واسعة للتقليل من شأنهما.

فمثلاً نلاحظ أنَّ أي مضمون (نبوي) يعبّر عن إمامتهما بصورة واضحة فإنَّ ذلك يعني سحب الشرعية عن السلطة الأموية من أولها إلى آخرها، ومن المؤسف أن الخط العام لدى جمهور المسلمين يحاول بشتى الوسائل تصحيح هذه الخلافة؛ ولذا من الطبيعي أن يتعرض مثل هذا المضمون ـ لو ورد في ضمن نص معين ـ إلى الحذف أو التحريف.

وهذه من المشاكل المعقدة التي يواجهها جمهور المسلمين من الناحية الفكرية والعقائدية والأخلاقية تجاه الكثير من النصوص الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله في مختلف المجالات، فلو لم يجعلوا غطاءً شرعياً للخلافة الأموية فذلك يعني سحب الشرعية عن الحكم الإسلامي طيلة هذه القرون الطويلة، وسيؤدي ذلك إلى سحب الشرعية عن جميع المؤسسات المرتبطة بالوجود العام لنظام الخلافة، بل قد يسري

الشك حينئذٍ إلى شرعية الخلافة الأولى أيضاً؛ لتشابه الحالة وتصبح الخلافة الاسلامية موضع سؤال وشك، بل في موضع النفي.

ولذلك حاولوا وبشتى الوسائل ايجاد الحل لهذه المشكلة؛ لعدم وجود بديل آخر لديهم من الناحية العقائدية، فسلكوا طريق التعتيم على هذه الحقيقة، وقد وضعت أحاديث وأوّلت وفسّرت أحاديث أُخرى، وأضيف وزيد على أحاديث ثالثة، من أجل المحافظة على شرعية هذه الخلافة.

ولاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ معاوية تمرد ودخل في صراع مع الخلافة الشرعية لعلي عليه السلام، وأنّ الإمام الحسن عليه السلام استلم الخلافة من الإمام علي عليه السلام كحالة شرعية.

إذن، فكيف يمكن تصحيح خلافة معاوية مع شرعية خلافة وإمامة الحسن عليه السلام الذي أعلن الجهاد على معاوية؟ وهل يكفي في شرعية الخلافة الغلبة بالقوة، والحيلة والخداع، وشراء الضمائر والولاءات بالأموال، كما يذهب إلى ذلك بعضهم، لتبرير وتفسير الواقع القائم؟ !! ولذلك حاولوا أن يغيّروا ويفسّروا الكثير من الأمور، ويعتموا على الكثير من الحقائق الأخرى.

وأما الإمام الحسين عليه السلام، فقد نهض مقابل يزيد، وأدى ذلك إلى قتله وقتل أهل بيته وأصحابه، ونهب رحله وسبي حرم رسول الله صلى الله عليه وآله، فكيف يمكن إضفاء الشرعية حينئذٍ على خلافة يزيد إذا كان الإمام الحسين عليه السلام هو الخليفة والإمام وصاحب الحق؟ !!.

ولذلك تعرض الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام بصورة خاصة إلى عملية تعتيم وقمع مادي وإعلامي، تجاه جميع ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله بشأنهما وبخصوصيتهما[1].

---

(١) وإذا كان يمكن لبعض هؤلاء أن يؤول الأحاديث التي وردت في الإمام علي عليه السلام، باعتبار سكوته عن المقاومة المسلحة للخلفاء وقبوله بالتعايش مع الخلافة، فلا مجال

في هذا الجو والرؤية لابد أن ننظر إلى هذه الروايات والأحاديث.

الوجه الأول: روايات العنوان المشترك

عند الرجوع إلى الروايات الواردة في خصوص الحسنين عليهما السلام نرى فيها مختلف معالم الإمامة باستثناء معلم الولاية، حيث لا يبدو واضحاً فيها إلاّ بالاستنتاج والاستنباط[١].

نعم، نجد معلم الولاية بصورة واضحة في ما ورد في عموم أهل البيت عليهم السلام من الآيات والروايات، لأنّه يشملهما عليهما السلام في هذا الجانب، ولكن فيما يتعلق بما ورد بعنوانهما الخاص، قد لا نرى هذا العنوان.

وسنذكر بعض هذه الروايات التي تشير إلى بعض أبعاد الإمامة كنماذج للتبرك بها:

فمما يعبّر عن بُعد الإصطفاء، فقد روى الخطيب البغدادي، بسنده عن ابن عباس قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليلة عرج بي إلى السماء رأيت على باب الجنة مكتوباً: لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله، علّي حب الله، والحسن والحسين صفوة الله، فاطمة خيرة الله، على باغضهم لعنة الله»[٢].

وفي رواية أُخرى ورد عن النبي صلى الله عليه وآله بأنّه هو الذي سمّى حسناً وحسيناً ومحسناً باسم ولد هارون، وهم شبر وشبير ومشبر[٣]، فإن هذه التسمية لها دلالة على حالة الاصطفاء، لأن النبي صلى الله عليه وآله عندما يسميهما يريد أن يعبّر عن خصوصية الاصطفاء من خلال ربطهما بالتأريخ الإلهي والرسالي المتمثل بتاريخ بني إسرائيل.

وهكذا في الرواية الواردة في أنَّ النبي صلى الله عليه وآله عوّذ الحسنين عليهما السلام بما عوّذ به

للتأويلات مع الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام ، بعد دخولهما في صراع مسلح مع الحكم الأموي. منه رحمه الله.

(١) هذا في حدود اطلاعنا ، والله العالم. منه رحمه الله.

(٢) تاريخ بغداد١: ٢٧٤.

(٣) المستدرك٣: ١٦٥. ذخائر العقبى : ١١٩. الإصابة٦: ١٩١.

إبراهيم عليه السلام ولديه إسماعيل وإسحاق[(١)].

وكذلك ما ورد في أنَّ الحسنين عليهما السلام خير الناس جداً وجدة وأباً وأُماً[(٢)]، وهذا يمكن أن يشير إلى بُعد الاصطفاء.

وأما ما يعبّر عن جانب الهدف ـ الكمال الإنساني في شخصية الإمامين الحسنين عليهما السلام ـ فقد روى الهيثمي في مجمعه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يبعث الله الأنبياء يوم القيامة على الدواب، ويبعث صالحاً على ناقته كيما يوافي بالمؤمنين من أصحابه المحشر، ويبعث بابني فاطمة الحسن والحسين على ناقتين من نوق الجنة، وعلّي بن أبي طالب على ناقتي، وأنا على البراق...»[(٣)].

وأيضاً ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله مخاطباً علي عليه السلام، حيث قال: «إذا كان يوم القيامة كنت أنت وولدك على خيل بلق متوجة بالدر والياقوت فيأمر الله بكم إلى الجنة والناس ينظرون»[(٤)]. فإنَّ هذه النهاية والصورة المحشرية تعبّر ـ أيضاً ـ عن خصوصية الحسن والحسين عليهما السلام.

إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنَّ الحشر تتبين فيه الحقائق بصورة كاملة، فالمنظر والصورة والمشهد المحشري يجسد الامتيازات والنتائج في حركة الإنسان وحركة البشرية الدنيوية، نعرف أنَّ النبي صلى الله عليه وآله يعبر بهذا عن الخصوصية التكاملية في الحسن والحسين عليهما السلام في النهاية المحشرية.

وما ورد في هذا البُعد أيضاً أنَّ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[(٥)]، وأنَّهما «زين الجنة»[(٦)]، وأنَّهما «قرطا العرش»[(٧)].

---

(١) صحيح البخاري ٤: ١١٩. سنن الترمذي ٣: ٢٦٧، ح٢١٣٨.
(٢) كنز العمال ١٢: ١١٨ ، ح٣٤٢٧٨. مجمع الزوائد ٩: ١٨٤.
(٣) تاريخ بغداد٣: ٣٥٨، ح١٤٨٥. كنز العمال١١: ٧٥٨، ح٣٣٦٨٩. المعجم الكبير٣: ٤٣. ذخائر العقبى: ١٣٥، ولكن باختلاف في اللفظ.
(٤) ذخائر العقبى: ١٣٥.
(٥) سنن الترمذي ٥: ٣٢١، ح٣٨٥٦.
(٦) مجمع الزوائد ٩: ١٨٤. الفصول المهمة٢: ١١٦١.
(٧) الدر النظيم: ٤٥٩.

وأما ما يعبّر عن بُعد الامتياز والفضل، فقد روى مجاهد قال: «جاء رجل إلى الحسن والحسين فسألها فقالا: إنَّ المسألة لا تصلح إلاّ لثلاثة: لحاجة مجحفة، أو لحمالة مثقلة، أو دَين فادح، فأعطياه ـ أما في غير ذلك فالمسألة لا تكون صحيحة من الناحية الأخلاقية وقد لا تكون صحيحة من الناحية الشرعية ـ ثم أتى هذا السائل إلى ابن عمر فأعطاه ولم يسأله، فقال له الرجل ـ أتيت ابني عمك فسألاني ولم تسألني فقال ابن عمر: أنبأني رسول الله ﷺ أنهما كانا يُغران العلم غرّاً»[1].

فهما على هذا الامتياز من العلم بشهادة رسول الله ﷺ.

وعن أنس قال: «كان الحسن والحسين عليهما السلام أشبههم ـ أشبه الناس ـ برسول الله ﷺ»[2].

وما ورد أيضاً في جملة من الفضائل المتفرقة للحسن والحسين في مناقبهما مما يعبر عن جانب الامتياز فيهما.

وأما ما يتعلق ببُعد الامتداد، من أنَّ الحسن الحسين عليهما السلام يعبّران عن امتداد للنبي ﷺ، فقد ورد أنّهما عليهما السلام عضوان من أعضاء النبي ﷺ، وأنّهما عليهما السلام ريحانتا النبي ﷺ ولا يرضى لهما الشمس[3]، وأنّه ﷺ ورثهما عليهما السلام ـ بطلب من فاطمة عليها السلام عند شكواه ومرضه الذي توفي فيه ﷺ ـ جملة من الصفات الحميدة التي كان يتصف بها ﷺ[4].

وكذلك ورد ـ أيضاً ـ بأنَّ الحسن الحسين سبطا هذه الأُمة[5].

---

(١) تاريخ بغداد ٩: ٣٧٢، ح٤٩٣٦.

يلاحظ هنا أنَّ ابن عمر لا يذكر هذه الصفة للحسنين إلاّ بعد أن يشيره السائل بهذه الطريقة، كما لم يذكرها غيره من المحدثين.

ورد في تفسير يغران: يزقّان، وغرَّ الطير فرخه. أي زقّه الطعام.

(٢) ذخائر العقبى: ١٢٨.

(٣) راجع صحيح البخاري٧: ٧٤. ذخائر العقبى: ١٢٤.

(٤) الإصابة٨: ١٥٨. تهذيب الكمال٦: ٤٠٠. أسد الغابة٥: ٤٦٧.

(٥) ذخائر العقبى: ١٣٥ ـ ١٣٦.

فهذه الروايات تعبّر عن بُعد الامتداد للنبي صلى الله عليه وآله.

وأما ما يتعلق ببُعد الحب والولاء، فقد ورد عن زر بن حبيش قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم يصلي بالناس فأقبل الحسن والحسين عليهما السلام وهم غلامان فجعلا يتوثبان على ظهره إذا سجد، فأقبل الناس عليهما ينحونهما عن ذلك، قال: دعوهما بأبي وأمي، من أحبني فليحبب هذين»[(١)].

وروى عبد الله بن شداد عن أبيه قال: «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً فتقدم رسول الله صلى الله عليه وآله فوضعه ثم كبر للصلاة فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله الصلاة قال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظنن أنّه قد حدث أمر أو أنّه يوحى إليك؟ قال: كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»[(٢)].

وروى عبد الله بن بريدة، عن ابيه قال: «كان النبي صلى الله عليه وآله يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران ويعثران فيهما، فنزل النبي صلى الله عليه وآله فقطع كلامه فحملهما ثم عاد إلى المنبر، ثم قال: صدق الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ رأيت هذين يعثران في قميصيهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما»[(٣)].

كذلك ما ورد في ما يعبر عن الحب، مثل: إنَّ الحسن والحسين أحب أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله إليه[(٤)]، وأيضاً ما جاء في وجوب حب الحسنين عليهما السلام، وما جاء في حرمة بغضهما من أحاديث عديدة[(٥)]، فإنَّ كل ما جاء في حبهما من وجوب،

---

(١) سنن البيهقي ٢: ٢٦٣، فضائل الصحابة: ٢١. ذخائر العقبى: ١٣٢. مجمع الزوائد ٩: ١٧٩.
(٢) سنن النسائي ٢: ٢٢٩ ـ ٢٣٠. مجمع الزوائد ٩: ١٨١. سير أعلام النبلاء٣: ٢٥٧.
(٣) سنن النسائي ٣: ١٠٨. سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، ح٣٨٦٣.
(٤) سنن الترمذي ٥: ٣٢٣، ح٣٨٦١، ذخائر العقبى: ١٢١ ـ ١٢٢.
(٥) المستدرك ٣: ١٦٦ ، و ١٧١.

وحسن، وثواب، وأجر، وما جاء في بغضهما من حرمة، ولعن، وما أشبه ذلك... يؤكد ذلك[١].

ونلاحظ في هذه الروايات ـ بحسب المراجعة السريعة التي قمت بها ـ وجود النصوص على أنَّ الحسن والحسين عليهما السلام بعنوانهما تتوفر فيهما جميع هذه الأبعاد، وهذه الأبعاد بمجموعها يمكن أن ينتزع منها بُعد الولاية، ولكن بنحو الاستنباط، وإن لم تذكر الحكم والطاعة والولاية والإمامة بعناوينها.

الوجه الثالث: روايات العنوان الخاص

هناك مجموعة من الروايات وردت في الحسنين عليهما السلام بعنوانهما الخاص، ويلاحظ ـ مضافاً إلى الخصوصيات التي أشير إليها في العنوان المشترك ـ أمران:

الأمر الأول: الإشارة إلى أنَّ الحسن عليه السلام هو سيد في قومه ويصلح الله تعالى به بين طائفتين من المسلمين[٢].

ولكن هذه الرواية يمكن وصفها بالتزوير لتصحيح ما وقع خارجاً بين الحسن عليه السلام ومعاوية من هدنة، وإضفاء الشرعية عليها لتصبح قضية صحيحة وشرعية؛ باعتبار أن الرسول صلى الله عليه وآله تحدث عنها.

كما يمكن تفسيرها ـ الرواية ـ على أنَّها حديث عن شأن من شؤون الإمام الحسن عليه السلام وما يتعرض له من مظلومية، حيث إنَّ الصلح لم يكن أمراً اختيارياً، وإنَّما كان مفروضاً عليه عليه السلام.

الأمر الثاني: ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله حديث واسع نسبياً يتعلق بمقتل الإمام الحسين عليه السلام وما يجري عليه، واللعن لقاتليه، وغير ذلك من الشؤون المرتبطة.

---

(١) سوف نشير في بحثنا عن طائفة الروايات التي وردت بشأن شيعة أهل البيت عليهم السلام، أنَّ هذا الحب يعني معنىً أوسع من العاطفة، فانتظر. منه قدس سره.
(٢) مسند أحمد٥: ٤٧. تاريخ مدينة دمشق١٣: ٢٣١.

ولعل هذه الأحاديث الكثيرة هي التي استطاعت تثبيت شرعية وإسلامية نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وبالتالي عجز الأمويون عن كتمانها والتعتيم عليها.

ويبدو أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله بعلمه الغيبي ومعرفته للمستقبل كان يعرف جيداً إذا لم يتم التأكيد على ما يجري للحسين عليه السلام بصورة واسعة في زمانه، فمن الممكن أن تفسّر نهضته وتؤوّل وتحرّف بحيث يصبح فيها الإمام الحسين عليه السلام مداناً، وكأنّه قد شق عصا المسلمين، كما حاول الأمويون أن يصنعوا ذلك.

ولهذا فقد تدارك الرسول صلى الله عليه وآله هذا الأمر بالتأكيد على قضية الإمام الحسين عليه السلام[1]، كما تدارك الأمر بالنسبة إلى قضايا أُخرى مثل: حب أهل البيت عليهم السلام، وولاية علي عليه السلام، بحيث لم يكن من الممكن أن تمسح من ذاكرة التأريخ.

إذن، فهذه الطائفة من الروايات يمكن أن تكون دليلاً آخر على اختصاص الإمامة بأهل البيت عليهم السلام من روايات الجمهور.

الطائفة الثالثة: الروايات في شيعة أهل البيت عليهم السلام

الاستدلال على إمامة أهل البيت عليهم السلام بالروايات الواردة في موضوع شيعة أهل البيت أو التشيع لهم[2].

ولعل النصوص التي وردت في تفسير آيات سورة البينة هي من أوضح الأدلة والروايات التي يمكن الاستدلال بها على هذه الحقيقة، فعند النظر إلى سياق هذه الآيات الكريمة يصبح واضحاً أنَّ المقصود هو الحديث عن خط إسلامي

(١) كنز العمال ١٢: ١٢٦ ـ ١٢٩، ح٣٤٣١٣ ـ ٣٤٣٢٧. إمتاع الأسماع ١٤: ١٤٤.

(٢) يستدل ـ عادة ـ بهذه الروايات على فضل شيعة أهل البيت عليهم السلام وقربهم من الله تعالى، كما سوف أشير إلى بعض هذه النصوص، ولكن نحن نحاول هنا أن نستدل بهذه الروايات على إمامة أهل البيت عليهم السلام أيضاً. منه قدس سره.

متميز في حركة تاريخ البشرية والإنسانية وتكامل الرسالات الإلهية، وهذا الخط الإسلامي المتميز ـ الذي انتهت إليه هذه الحركة ـ هم شيعة أهل البيت عليهم السلام؛ لأن الآيات الكريمة تبدأ بالحديث عن أصناف الناس من أهل الكتاب والمشركين: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾.

ثم يتحدث القرآن الكريم عن هذه البينة، فيذكر أنّها رسول الله محمد صلى الله عليه وآله: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾.

ثم يتحدث عن الاختلاف الذي وقع في الرسالات الإلهية والموقف السابق لها تجاه هذا الموضوع، ويؤكد حقيقة الدين القيّم، وهو (الإسلام): ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾.

ثم يطبق القرآن الكريم هذا الدين القيم في نهاية مسيرته على حركة الإنسان الخارجية من خلال بيان تجسيد الكافرين به ونهايتهم، الذين هم شر البرية، وتجسيد المؤمنين به ونهايتهم، الذين هم خير البرية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[1].

ويشخص النبي صلى الله عليه وآله هذه الجماعة التي يصدق عليهم عنوان (خير البرية) من خلال تطبيق العنوان على عليّ عليه السلام وشيعته.

فقد وردت النصوص المتضافرة والصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في روايات أهل السنّة، فضلاً عن تضافر روايات جماعة أهل البيت عليهم السلام من أن الذين يمثلون دين القيمة وخير البرية: «هم أنت وشيعتك يا عليّ»[2] كما ورد في هذا النص.

---

(١) البينة: ١ ـ ٨.

(٢) شواهد التنزيل ٢: ٤٦٣ ـ ٤٦٦، ح ١١٣٠ و ١١٣٢ و ١١٣٥. تفسير جامع البيان ٣٠: ٣٣٥. الدر المنثور ٦: ٣٧٩، فعن ابن عباس قال: « لما نزلت هذه الآية ـ أي ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

وإذا لاحظنا أنَّ شيعة علي عليه السلام يشتركون مع أهل الديانات في مسألة الاعتقاد بالوحي الإلهي والرسل، ويشتركون مع باقي المسلمين بعقيدة التوحيد والنبوة والمعاد، وبإقامة الصلاة وأداء الزكاة والحج والصوم والخمس، ومختلف العبادات والممارسات التي جاء بها الإسلام، ولكن الشيء المهم والأمر الرئيسي الذي يميزهم من الناحية العقائدية إنَّما هو اعتقادهم بإمامة أهل البيت عليهم السلام باعتبارهم أئمة نصبوا من الله تعالى، وجُعلوا لهذا المنصب والموقع الخاص، وبذلك تسموا وعرفوا بالشيعة[1] يثبت أن شيعة علي عليه السلام هم مَن يمثل الخط الإسلامي المتميز في حركة تاريخ البشرية

ومضافاً إلى هذا النص النبوي الشريف توجد طائفة كبيرة وواسعة من الروايات الواردة في حق شيعة أهل البيت عليهم السلام، يمكن استفادة ذات المضمون الذي استفدناه من الآيات الكريمة السابقة بعد تفسيرها بقول الرسول صلى الله عليه وآله.

وسنكتفي بذكر بعض النصوص، والإشارة إلى بعض العناوين الواردة في هذه الروايات؛ باعتبار أن استعراض الروايات يحتاج الى وقت طويل.

ملاحظات حول الطائفة الثالثة

لابد من بيان مجموعة من الملاحظات ترتبط بروايات الطائفة الثالثة، وهي:

الملاحظة الأولى: إنَّ كلمة (الشيعة) و (التشيع) من الناحية التأريخية وجدت

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله: هم أنت يا علي وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيّين، ويأتي أعداؤك غضاباً مقمحين» بحار الأنوار ٣٥: ٣٤٥.

(١) لابد أن نثبت - في هذا المجال - أنَّ هذه الميزة للتشيع كانت ثابتة في عصر النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، ليتم هذا الاستدلال.

وهذا ما قمنا بإثباته في حديث مستقل حول الشيعة، وتناوله بعض الباحثين. ولعل هذا النص في تفسير نزول الآية أحد أهم الأدلة على ذلك، وسوف نشير في الملاحظات الآتية إلى بعض هذه الأدلة والقرائن. منه رحمه الله.

في زمن الرسول ﷺ، ولم تكن عنواناً من العناوين المستحدثة بعد رسول الله ﷺ.

وهناك شواهد تاريخية على ذلك[1]، خلافاً لبعض المحاولات التي تذكر أنَّ التشيع أمر مستحدث، إما بعد النبي ﷺ، أو بعد مقتل الإمام علي عليه السلام.

وبهذا الصدد يمكن الإشارة إلى عدة نقاط:

النقطة الأولى: إنَّ كلمة (شيعة) كانت تتردد في زمن الرسول ﷺ منذ بداية الدعوة الإسلامية حتى الأيام الأخيرة من حياته الشريفة ﷺ، وقد تقدم في روايه تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾، إنَّ رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «هم أنت وشيعتك يا عليّ».

ويذكر تاريخياً أنَّ أول دعوة للتشيع لعلي عليه السلام كانت في حادثة الدار ودعوة النبي ﷺ لعشيرته الأقربين[2]، كما لا شك أنَّ الشيعة والتشيع لغة وعرفاً لا تعني مجرد الحب والعواطف والمشاعر والميل والهوى، وإنَّما تعني الجماعة والمتابعة والفئة.

النقطة الثانية: كان هناك مجموعة من الأشخاص يعرفون بين المسلمين بأنَّهم شيعة لعلي عليه السلام، بحيث أصبح هذا العنوان له مصاديق في الخارج تتجسد فيهم حالة التشيع والارتباط بعلي عليه السلام ارتباطاً خاصاً يجعلهم تحت هذا العنوان، مما يعبر عن خط وارتباط عقائدي وسياسي خاص.

ويذكر في هذا الصدد مجموعة من الأشخاص بعضهم عرّفهم الرسول ﷺ بعنوان شيعة علي عليه السلام كسلمان الفارسي، وبعضهم يذكرون كجماعة من الناس يعرفون بين المسلمين بأنَّهم شيعة علي عليه السلام كعمار بن ياسر، وأبي ذر، والمقداد،

---

(١) ويشير إلى ذلك بعض الكتاب المعاصرين، من قبيل سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد حسين المظفر رحمه الله في كتابه تأريخ الشيعة ـ الذي هو من الكتب الجيدة التي تستحق التحقيق وإعادة النشر بصورة مناسبة ـ وقد اعتمد عليه المرحوم العلامة محمد جواد مغنية ـ أيضاً ـ في الإشارة إلى هذا الموضوع، كما أنَّ هناك إشارات أُخرى لهذا الموضوع في كتابات بعض كتابنا المتأخرين. منه رحمه الله.

(٢) نشأة التشيع والشيعة: ٦٨.

وخالد بن سعيد بن العاص من بني أُمية، وحذيفة بن اليمان، وأبي سعيد الخدري، وآخرين من كبار الصحابة المعروفين[1]، الذين كان لهم دور عظيم جداً ـ بعد ذلك ـ في تاريخ الإسلام والفتوحات الإسلامية و ـ أيضاً ـ كان لهم دور متميز بين أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، ويبدو أنّ السبب في معرفتهم بهذه الصفة هو موقفهم من علي عليه السلام، في قضية خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، ووقوفهم إلى جانب علي عليه السلام في رفض البيعة، الأمر الذي يؤكد أن هذه الصفة كانت مرتبطة بهذه الميزة الخاصة.

النقطة الثالثة: كان المسلمون في زمن النبي صلى الله عليه وآله يعتبرون التشيع لعلي عليه السلام وحبه المقياس الذي يميزون به المؤمن من المنافق، حيث إنّ ظاهر الإسلام واحد بين جميع المسلمين ـ المؤمن والمنافق ـ كالنطق بالشهادتين، وحضور الشعائر الإسلامية ـ كصلاة الجمعة والجماعة، وحج بيت الله الحرام، أو أداء الزكاة، وغير ذلك ـ فالمؤمن والمنافق متساوون في المظهر الخارجي والسلوك العام.

نعم، كان للمنافقين مواقف متعددة تعبّر عن حالة النفاق، ولكنها في كثير من الأحيان يختلف المسلمون انطلاقاً من اجتهاداتهم في تفسيرها، ولذا كان بعض المؤمنين يشترك مع المنافقين في هذه المواقف؛ تأثراً بالتيار الذي كان يوجده المنافقون وسط المسلمين، وبالتالي يقع بعض المسلمين تحت تأثيره ـ لغفلة أو جهالة ـ لأسباب قبلية أو عشائرية أو مصالح خاصة أو لسوء الفهم، وغير ذلك من الرواسب الجاهلية، ولذلك لم تكن هذه المواقف قادرة على تمييز المنافقين عن المسلمين، لوجود هذا التداخل والاختلاف في الحركة الخارجية.

ولكن كان هناك مائز رئيسي وأساسي أكد عليه الرسول صلى الله عليه وآله من أجل أن يميّز المنافق عن المؤمن، حتى أصبح هذا التميز معروفاً بين المسلمين، وتحول هذا التأكيد من النبي صلى الله عليه وآله إلى حالة سياسية واجتماعية بين المسلمين، بحيث أصبح التشيع لعلي وحبه عليه السلام العلامة الفارقة بين المؤمن والمنافق، وتوجد نصوص على

(١) هوية الشيعة: ٣٣.

لسان بعض الصحابة تشير إلى ذلك وأنّهم كانوا يقولون: إنّنا كنا نميز المؤمن من خلال حبّه لعلي وبغضه لعلي[١].

الاستنتاج

عند جمع النقاط المتقدمة يمكن استنتاج: أنَّ قضية الشيعة والتشيع لعلي عليه السلام كانت قضية سياسية قائمة في المجتمع الإسلامي منذ زمن الرسول صلى الله عليه وآله، وهي تعني القول بإمامته عليه السلام أو خلافته بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فعندما يأتي حديث عن حب علي عليه السلام من وجوبه أو آثاره وثوابه، أو غير ذلك فإنّما يصب في موضوع الشيعة والتشيع، بمعنى الفئة والجماعة التي يجمعها المضمون العقائدي والخط السياسي الذي كان ينتسب إلى علي عليه السلام في مقابل الخطوط الأخرى.

ونحن لا نعرف ميزاناً لهذا الخطاب غير قضية الخلافة والإمامة ـ إمامة علي عليه السلام ـ وإلاّ فإن بقية المسلمين بصورة عامة يشاركون أتباع أهل البيت عليهم السلام في حبهم لعلي عليه السلام بمعناه العاطفي، كما أن الكثير منهم يشارك شيعة علي عليه السلام في تفضيله عليه السلام على بقية الصحابة.

فالمعتزلة كلهم ـ وهم جماعة كبيرة جداً في المجتمع الإسلامي ويمثلون نخبته في فترة من الزمن ـ كانوا يفضلون علياً عليه السلام، بل توجد ـ أيضاً ـ اعترافات من قبل الخلفاء الأوائل بهذه الحقيقة، من قبيل اعتراف عمر ـ الخليفة الثاني ـ بأنَّ علياً أقضانا[٢]، فقضية التفضيل لعلي عليه السلام من القضايا التي كانت معروفة بين المسلمين.

ولكن القضية الرئيسية والأساس لهذا التمييز هو الخط السياسي في قضية الإمامة والخلافة لرسول الله صلى الله عليه وآله.

الملاحظة الثانية: إنَّ العدد الأكبر للروايات التي سنشير إليها تتحدث عن

---

(١) مناقب آل أبي طالب٣: ٩ ـ ١٥. تأريخ الاسلام٣: ٦٣٤. تأريخ مدينة دمشق٤٢: ٢٨٥.
(٢) صحيح البخاري ٥: ١٤٩. الاستيعاب١: ١٧.

الحب، وإن كان بعضها يذكر عنوان الشيعة، ولكن العدد الأكبر منها موضوعها الحب لعلي عليه السلام والحب لأهل البيت عليهم السلام، أو الحب لفاطمة عليها السلام أو الحب للحسنين عليهما السلام.

فهل عنوان الحب هذا يراد منه مجرّد العاطفة التي يحسّ بها الإنسان في علاقته بمن يحبه، كما يحب الإنسان أباه أو أخاه أو ولده أو وطنه.. أو غير ذلك ممن يتعامل معهم في الحياة الاجتماعية، وهو حبٌّ مشروع ومقبول ومحبوب من قبل الله تعالى أيضاً، أو أنَّ الحبَّ الذي أشير إليه في هذه الروايات يراد منه نوع آخر من الحب، وهو الذي عبّرنا عنه بالولاء، عندما تحدثنا عن الولاء لله والرسول وللمؤمنين، والذي يشتمل على العناصر الرئيسية الثلاثة، وهي:

١ ـ المودة والعاطفة.

٢ ـ الحماية والنصرة.

٣ ـ العهد والميثاق والالتزام لأهل البيت عليهم السلام والذي يعطي بعض أبعاد الإمامة ويشير إليها، حيث إنَّ الإمامة هي التي تستحق هذا النوع من الولاء؟

يبدو من الروايات أن الحب هنا يعني الولاء، بل الولاء الخاص، حيث تعطيه بعض هذه الروايات عمقاً وجذراً دينياً وعقائدياً يرتبط بقضية الإيمان والكفر، بحيث إنَّ الحب لا يراد منه مجرد هذه العاطفة، بل ولا يراد منه النصرة والالتزام، وإنَّما هو شبيه بحب الإنسان لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله، فهو حب عقائدي، وبذلك يعبر عن بعض آثار القبول بالإمامة.

وسوف نبيّن ذلك من خلال استعراض الروايات، إن شاء الله.

الملاحظة الثالثة: إنَّ أئمة أهل البيت عليهم السلام تحدثوا عن شيعتهم وعن صفات الشيعة، وأهتم العلماء السابقون رحمهم الله بتأليف الكتب حول موضوع صفات الشيعة، من أجل تشخيص معالم شخصية الإنسان الشيعي، ليكون مثالاً يقتدى به. ولكن

مَن هؤلاء الشيعة الذين وردت فيهم هذه الروايات[١]؟

يبدو من النصوص التي وردت عن النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام ضرورة توفر خصوصيتين رئيسيتين في هؤلاء كي يصدق عليهم عنوان الشيعة:

الخصوصية الأولى: التكامل الإسلامي

وهي خصوصية التقوى والورع، فقد ورد عن أبي بصير قال: قال الصادق عليه السلام: «شيعتنا أهل الورع والاجتهاد وأهل الوفاء والأمانة، وأهل الزهد والعبادة، أصحاب إحدى وخمسين ركعة في اليوم والليلة، القائمون بالليل، الصائمون بالنهار، يزكون أموالهم، ويحجون البيت، ويجتنبون كلَّ محرم»[٢].

ويعض هذه النصوص ترقى بالشيعة في المواصفات إلى درجة عالية جداً، بحيث عندما يذكرها الإمام علي عليه السلام إلى (همّام) ـ ذلك العبد الصالح ـ في حديثه المعروف معه، يصعق همّام ويسقط مغشياً عليه ويموت بسبب ما سمعه من مواصفات الشيعة، ولذلك كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في البداية يتحفظ من ذكر هذه المواصفات خوفاً على همّام أن لا يتحملها، ولكن همّام طلب ذكرها بإلحاح وإصرار[٣].

---

(١) أشرت إلى بعض هذه الخصوصيات في كتابي (دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة)، كما يوجد في كتاب بحار الأنوار باباً يتناول صفات الشيعة ـ الجزء ٦٥، باب ١٩ ـ وهو شيء يستحق المراجعة، باعتبار أنّنا من أتباع أهل البيت عليهم السلام، وللاتعاض بها.

وكم أتمنى وجود فرصة لديّ لذكر بعض هذه النصوص، لدورها في تربية الشيعة تربية عالية جداً، كما أنّها مما يتفاعل معها الإنسان من الناحية النفسية والعاطفية والروحية، ولذلك أطلب من الأخوة المؤمنين الأعزاء الاهتمام بهذا الجانب، ومراجعة هذه النصوص في مواردها. منه ﷺ.

(٢) بحار الأنوار ٦٥ : ١٦٧ ، ح٢٣.

(٣) في نهج البلاغة توجد قطعة محدودة من الحديث لعلي عليه السلام مع همّام، وفي النصوص الأخرى يوجد تفصيل أكثر وأكبر في هذه المواصفات، راجع نهج البلاغة : ١٦٠ في صفات المتقين، بحار الأنوار ٦٥: ١٩٢ ـ ١٩٦، ح٤٨.

إذن، فالخصوصية الأولى هي: الكمالات الأخلاقية والروحية والمعنوية التي تجعل من هذا الشيعي المثال للإنسان الكامل، والذي عبرنا عنه ببعد الهدف والمثال التكاملي في أبعاد الإمامة.

الخصوصية الثانية: الامتحان والبلاء

الامتحان والابتلاء والتعرض للبلاء، حيث كان ذلك خصوصية من الخصوصيات التي يتصف بها شيعة أهل البيت عليهم السلام بصورة لازمة، وقد وردت في روايات أهل السنة وفي كلمات الإمام علي عليه السلام، وفي كلمات الأئمة عليهم السلام بصورة واسعة.

ويوجد في هذه الخصوصية بعدان:

الأول: بُعد المظلومية الذي يهتم به بعض الباحثين بصورة أساسية، باعتبار أنَّ شيعة أهل البيت عليهم السلام هم أهل الحق، وأهل الحق يتعرضون دائماً إلى الظلم والمطاردة، كما هو الحال في أهل البيت عليهم السلام الذين هم أئمة أهل الحق والهدى، فقد تعرضوا بسبب ذلك ـ أيضاً ـ إلى أعلى درجات الظلم والاضطهاد.

وقضية الإمام الحسن والحسين عليهما السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام من القضايا التي ترمز إلى هذا الظلم.

وهذا الموضوع بهذا البُعد والجانب يستحق الحديث والوقوف عنده، ولكن لا أريد أن أتناوله الآن بالنقد والتمحيص[1].

الثاني: بُعد التكامل الإنساني الفردي والجماعي من خلال الامتحان والابتلاء، وهذا البُعد هو الملحوظ في كثير من الروايات ذات العلاقة بهذه الخصوصية، إذ لا يتحقق التكامل إلاّ من خلال المحن والآلام.

وهذا قانون وخصوصية ثابتة يراد منها تمحيص وفتنة الفرد الإنساني وتمحيص الجماعة وفتنتها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

(١) راجع كتاب الزهراء أهداف. مواقف. نتائج لشهيد المحراب.

عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾[٢]، وهذا الأمر شبيه بتنقية الذهب عندما يفتن ويصهر في النار ليمحّص ويميّز عما اختلط به من نحاس أو معدن آخر.

فعندما يراد تمحيص وتنقية الإنسان وتزكيته وتطهيره من كل الشوائب الأخرى التي تعتريه لابد أن يمحّص بالفتنة والبلاء، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[٣]. فقضية الفتنة والامتحان سنّة إلهية يراد منها التمحيص والتزكية للصالحين من عباد الله والوصول بهم إلى درجة الكمال المطلوب؛ لأنه الطريق الذي وضعه الله تعالى للكمال المطلوب في الإنسان، بعد أن خلقه موجوداً مريداً.

ولذلك ورد في الروايات عن النبي ﷺ، في حديث أبي ذر قال: «إنّه أتى النبيَّ ﷺ فقال: إنّي أُحبكم أهل البيت، فقال له النبي ﷺ: الله قال: فأعد للفقر تجفافاً، فإن الفقر أسرع إلى من يحبّنا من السيل من أعلى الأكمة إلى أسفلها»[٤]، فالسيل عندما ينحدر من أعلى الجبل يسير بسرعة لا يقف أمامه حاجز يمنعه من الوصول إلى الوادي، وهكذا البلاء فإنّ سرعته للعبد المؤمن تكون بهذا الشكل.

وثمة كلمات معروفة عن أمير المؤمنين عليه السلام، في هذا المجال: «من أحبّنا أهل البيت فليستعد للفقر جلبابا»[٥]، و«من تولاّنا فليلبس للمحن إهاباً»، و«من أحبّنا

---

(١) المُلك : ٢.
(٢) الأعراف: ١٥٥.
(٣) العنكبوت: ٢.
(٤) المستدرك٤: ٣٣١. سنن الترمذي ٤: ٧، ح٢٤٥٤، كنز العمال٦: ٤٨٣، ١٦٦٤٦. باختلاف في اللفظ.
(٥) نهج البلاغة٤: ٢٦.

أهل البيت فليستعدّ عدة للبلاء»[(١)]، و«من أحبّنا فليُعدّ للبلاء جلبابا»[(٢)].

وعن الأصبغ بن نباته، قال: «كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام، فأتاه رجل فسلّم عليه، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين إنّي والله لأُحبك في الله، وأُحبّك في السرّ كما أُحبك في العلانية، وأدين الله بولايتك في السرّ كما أدين بها في العلانية. وبيد أمير المؤمنين عودٌ، طأطأ رأسه ثمّ نكت بالعود ساعة في الأرض، ثمّ رفع رأسه إليه فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حدّثني بألف حديث لكلّ حديث ألف باب، وإنّ أرواح المؤمنين تلتقي في الهواء فتشمّ وتتعارف، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، وبحق الله لقد كذبت، فما أعرف وجهك في الوجوه، ولا اسمك في الأسماء!!. ثمّ دخل عليه رجل آخر فقال: يا أمير المؤمنين إنّي لأُحبّك في السرّ كما أُحبك في العلانية، قال: فنكت الثانية بعوده في الأرض ثمّ رفع رأسه فقال له: صدقت، إنّ طينتنا طينة مخزونة، أخذ الله ميثاقها من صلب آدم فلم يشذّ منها شاذٌّ، ولا يدخل فيها داخلٌ من غيرها، اذهب فاتّخذ للفاقة جلبابا، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا علي بن أبي طالب والله للفقر أسرع إلى محبّينا من السيل إلى بطن الوادي»[(٣)].

وقد جاء في بعض هذه الروايات: إنّ الإنسان المحب لأهل البيت عليهم السلام والمرتبط بهم لو قطع إرباً إرباً لما ترك حبهم والارتباط بهم.

وهذا يعني إن هذا الحب هو إيمان وعقيدة، وليس مجرد عاطفة ومشاعر تتأثر بالشدائد والصعاب، كما في علاقة الصداقة أو الأبوة أو العلاقة الزوجية أو أيّ علاقة اجتماعية أخرى.

إذن، فهذه القضية من القضايا المهمة التي تميز شيعة أهل البيت عليهم السلام، ولابد أخذها بنظر الاعتبار عند الحديث عن انطباق هذه الروايات عليهم.

---

(١) الغارات ٢: ٥٨٨. الفصول المهمة ١: ١٣.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٤٦٤.

(٣) الاختصاص: ٣١١. أمالي الطوسي: ٤٠٩ ـ ٤١٠، ح ٩٢١، باختلاف يسير.

تقسيم روايات التشيع

بعد هذه الملاحظات الثلاثة نأتي إلى الروايات الشريفة التي وردت في شيعة أهل البيت عليهم السلام والتي تستحق الوقوف عندها، والقيام بجمعها وتبويبها، لأنها متفرقة ـ مع الأسف ـ بحسب مراجعتي السريعة لها[1].

ويمكن تقسيم هذه الروايات إلى أربع طوائف من حيث عناوينها، كما أنّها من حيث مضمونها تشتمل على أربعة أبعاد من أبعاد الإمامة الستة، والبعد الخامس منها يؤكد عليه أهل البيت عليهم السلام كصفة لابد أن يتصف بها شيعتهم، يعني: يقدمونها كنصيحة، وهو بُعد الامتياز الذي تقدم ذكره في الملاحظة الثالثة.

الطائفة الأولى: ما ذكر فيها عنوان (شيعتنا) أو ما يشبهه من عناوين.

ومن جملة الأمثلة على هذه الطائفة ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾، حيث إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «هم أنت وشيعتك يا عليّ».

ومنها: ما ورد من روايات (الطينة)، حيث يذكر بأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنَّ في الفردوس لعيناً أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وأبرد من الثلج وأطيب من المسك، فيها طينة خلقنا الله منها وخلق منها شيعتنا فمن لم يكن من تلك الطينة فليس منا ولا من شيعتنا، وهي الميثاق الذي أخذ الله عزَّ وجل عليه ولاية علي ابن أبي طالب»[2].

ومنها: رواية (الشجرة)، حيث روى مولى عبد الرحمن بن عوف، قال: «خذوا عني قبل أن تشاب الأحاديث بالأباطيل، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أنا

---

(١) لا أجد الوقت الكافي للتحضير غالباً، وإنّما أقوم بالمراجعة السريعة وأعتمد على معلوماتي السابقة، والمراجعة الميسورة، وأترك الباب مفتوحاً للباحثين المتفرغين، والله الموفق للصواب. منه قدس سره.

(٢) تأريخ مدينة دمشق ٤٢: ٦٥.

الشجرة، وفاطمة فرعها، وعلي لقاحها، والحسن والحسين ثمرتها، وشيعتنا ورقها، وأصل الشجرة في جنة عدن وسائر ذلك في سائر الجنة»[١].

الطائفة الثانية: ما ذكر فيها وجوب الحب لأهل البيت عليهم السلام والتشيع لهم، وحرمة البغض والعداوة لهم، أي: الروايات التي تتضمن المقارنة بين حبهم وعداوتهم، وتقسيم الناس إلى: محبّين، ومبغضين، وتذكر حال المحب وحال المبغض، كالرواية التي ذكرها الزمخشري ـ وهو من علماء الجمهور المعروفين ـ في تفسيره الكشاف عند ذكر قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، حيث قال: «وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آلأ محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمن، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة»[٢].

وقال الفخر الرازي في تفسيره الكبير في ذيل تفسير هذه الآية ـ أيضاً ـ بعد نقل ما تقدم من الزمخشري في الكشاف ـ ما لفظه: «أقول: آل محمد صلى الله عليه وآله هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل، ولا شك أنَّ فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله أشد

---

(١) المستدرك٣: ١٦٠. شواهد التنزيل١: ٤٠٧، ح٤٣٠.
(٢) الكشاف ٣: ٤٦٧.

التعلقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل»[١].

ومضمون هذه الرواية يكاد أن يكون مضموناً متواتراً في روايات الجمهور، حيث توجد عشرات بل مئات الأحاديث ـ عشرات الأحاديث الصحيحة بأسانيدهم، ومئات الأحاديث العامة ـ الصحيح وغير الصحيح بحسب موازين علم الحديث، تتعرض لهذا المضمون، ولكن بصيغ مختلفة.

الطائفة الثالثة: الروايات التي تضمنت الحديث عن الآثار والنتائج التي تترتب على التشيع لأهل البيت عليهم السلام وحبّهم، من الفوز بالجنة، والثبات على الصراط، والدرجات العالية، إلى غير ذلك مما تشير إليه هذه الروايات.

الطائفة الرابعة: الروايات التي تتناول مواصفات وخصوصيات الشيعة، كما أشرنا إلى ذلك في الملاحظة الثالثة.

هذه الطوائف الأربعة إذا تمّ جمعها فسنخرج بنتيجة واضحة، وهي: الحديث عن وجود وتأسيس تيار وخط عقائدي وثقافي وسياسي يسمى بالشيعة، وجد في زمن النبي صلى الله عليه وآله يتميز بالاعتقاد بإمامة أهل البيت عليهم السلام.

مواقف تعبر عن الحقيقة

ومن المواقف الموجودة في هذا المجال موقفان متباينان يعبران عن هذه الحقيقة:

الموقف الأول: موقف ابن حجر في صواعقه، ويعتبر ابن حجر من كبار علماء الجمهور المتعصبين، ولكنَّه في الوقت نفسه ـ أيضاً ـ يروي عدداً كبيراً جداً من الروايات الواردة في أهل البيت عليهم السلام وحبّهم، وقد ألف كتابه (الصواعق المحرقة) للجواب عن الإشكالات التي يثيرها شيعة أهل البيت عليهم السلام حول الخلافة الرسمية والاستدلال على الإمامة.

---

(١) تفسير الرازي ٢٧: ١٦٦.

وعندما يأتي إلى هذه الروايات ويرى هذا القدر الكبير والواضح منها في حق شيعة أهل البيت عليهم السلام ومحبّيهم، يصبح لديه وضوح أنَّ هذه القضية تمثل قضية عقائدية، فيحاول التهرب من الحقيقة، بقول: إنَّ شيعة أهل البيت هم أهل السنة!!، وأنَّ عنوان الشيعة يراد به أهل السنة، وعمل جاهداً صرف اتجاه كل القرائن والدلائل ـ من ذلك التأريخ الذي تقدم الحديث عنه ـ إلى هذا العنوان.

والسبب في ذلك: عدم إمكانيته من نفي هذه الروايات؛ لتواتر مضمونها ولوضوحها وكثرتها وانتشارها في مختلف الكتب الصحيحة العامة والمجاميع المختلفة، فيقف متحيراً أمامها ولا يرى أمامه إلاَّ هذا التفسير ويقول: إنَّ المقصود من الشيعة هم أهل السنة، وإنَّ أهل السنة هم شيعة أهل البيت[1].

الموقف الثاني: موقف الإمام محمد بن إدريس الشافعي ـ إمام مذهب الشافعية ـ الذي واجه في زمانه حالة اجتماعية تتهم كل من يذكر حديثاً في فضل أهل البيت عليهم السلام وحبّهم بالرفض والتشيع، بحيث يكون ذلك طعناً فيه وسبة عليه من النواصب.

فإنّ هذا الجو السياسي والفهم الاجتماعي لهذه الروايات ـ الذي كان يعيشه عوام المسلمين المتأثرين بأجواء التعصب والنصب أيام الإمام الشافعي الذي عبّر عنه في شعره المعروف، كما عبّر عنه ابن عربي المعروف بالشيخ الأكبر، حيث يقول: «من يذكر رواية في حب علي أو في حب أهل البيت كان يتهم بالرفض والانتماء إلى علي عليه السلام ورفض خلافة الخلفاء الأوائل»[2] ـ كان يفهم منه بصورة واضحة: أنَّ هذه الروايات كانت تعني الاعتقاد بإمامة علي عليه السلام لوضوح دلالتها في ذلك، وتم

(١) نحن لا نريد ولا نرغب أن نخرج أهل السنة من عنوان شيعة أهل البيت عليهم السلام ، بل نتمنى أن يكون جميع الناس من شيعتهم، ولكن المغالطة في حديث ابن حجر هي في جعل نفي إمامة أهل البيت عنهم تشيعاً لهم والتزاماً بهم!!!. منه قدس سره.

(٢) كتاب الأم ١: ١٤. نظم درر السمطين: ١١١.

محاولة احتواء هذا المدلول لها من قبل علماء الجمهور، إما بصرفها إلى أهل السنة، أو بجعل الحب فيها مجرد العاطفة ومشاعر المودة والولاء.

وهنا يلاحظ التناقض الواضح بين موقف ابن حجر وموقف الامام الشافعي، فابن حجر حاول تحويل كل هذه الروايات إلى افتراض أنّها تعبّر عن الأعتقاد بعدم إمامة أهل البيت ﷺ كما يذهب إلى ذلك عموم أهل السنة، وأمّا الشافعي وابن عربي فكانت لهما هذه الابيات الشعرية المعروفة:

يقول الشافعي:

يا راكباً قف بالمحصّب من منى ... واهتف بساكن[1] خيفها والناهضِ
إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أنّي رافضي[2]

وفي أبيات أُخرى:

آل النبي ذريعتي ... وهم إليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً ... بيد اليمين صحيفتي[3]

وكذلك في أبيات أُخرى:

إذا في مجلس نذكر علياً ... وسبطيه وفاطمة الزكية
يقال: تجاوزوا يا قوم هذا ... فهذا من حديث الرافضية
برئت إلى المهيمن من أناس ... يرون الرفض حب الفاطمية[4]

فقد كانت هذه حالة عامة، كما يعبر عنها الشعر نفسه، وليست قضية شخص يدعيها.

---

(١) وفي موضع آخر بدل كلمة (بساكن) كلمة (بقاعد).
(٢) الإنتقاء في فضائل الثلاثة الإئمة الفقهاء: ٩١.
(٣) ينابيع المودة٢: ٤٦٨.
(٤) معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول: ٤٥.

وفي شعر ينسب إلى ابن عربي في الفتوحات:

فلا تعدل بأهل البيت خلقاً فأهل البيت هم أهل السيادة
فبغضهم من الإنسان خسر حقيقي وحبهم عباده[(١)]

وفي شعر آخر:

رأيت ولائي لآل طه فريضة على رغم أهل البعد يورثني
فما طلب المبعوث أجراً مع الهدى بتبليغه إلا المودة في القربى[(٢)]

فإن هذا الشعر وأمثاله في هذا الجو السياسي الذي أشرت إليه يعبّر عن حقيقة هذا الحب، ومعنى الارتباط بأهل البيت عليهم السلام، وأنّه ارتباط بالإمامة نفسها.

موقع الشيعة من النظرية الإسلامية

من خلال الاستدلال والعرض المتقدم، أو الإشارة لطوائف النصوص والأخبار وتحليلها، يمكن التعرف على موقع الشيعة والتشيع لأهل البيت عليهم السلام في النظرية الإسلامية[(٣)].

وهو موقع يمكن تحديده ـ بصورة إجمالية ـ في جانبين:

الجانب الأول: موقعهم في الحركة الإنسانية والبشرية في مسيرة التكامل الإنساني، حيث نلاحظ في الشيعة الامتداد الطبيعي لحركة (الإمامة) في وجود الإنسان، والتعبير عن خلافة الإنسان الكامل لله تعالى في هذه الأرض، لأنّهم يمثلون الوجود الصالح والكامل للإنسان في أبعاده المختلفة، التي تتمثل فيه

(١) الفتوحات المكية ٤: ١٤٩.

(٢) الفصول المهمة في معرفة الإئمة ١: ٧٦.

(٣) هذا الموضوع من الموضوعات المهمة التي تستحق البحث التفصيلي نسبياً، وقد أشرنا إلى جانب منه في كتابنا (دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة) عند الحديث عن أهداف بناء الجماعة، وكذلك في بحثنا عن الشيعة والتشيع. منه قدس سره.

خصائص الإمامة التي تقدم الحديث عنها، ولكن بدرجة أقل.

وهذه الأبعاد يمكن ملاحظتها في طوائف النصوص التي وردت في الشيعة عن النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام[(١)].

أولاً: يمكن تلمّس بُعد (الاصطفاء) في الروايات التي تحدثت عن (الشجرة)، وعن أنَّ (الشيعة هم خير البرية)، التي سبقت الإشارة إليها.

ثانياً: يمكن أن نرى بُعد (الامتداد) للرسالة والإمامة، في مثل ما رواه الترمذي، عن علي عليه السلام: «أنَّ النبي ﷺ أخذ بيد حسن وحسين، قال: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»[(٢)].

وما ذكره الخطيب البغدادي: «شفاعتي لأمتي من أحب أهل بيتي وهم شيعتي»[(٣)]، حيث يذكر أنَّ شيعة أهل البيت هم شيعته ولهم شفاعته ﷺ.

وكذلك ما ورد عن أبي برزة من قول النبي ﷺ: «إنَّ الله تعالى عهد إلي في علي عهداً، فقلت: يا رب بيِّنه لي، فقال: اسمع، فقلت: سمعت، فقال: إنَّ علياً راية الهدى، وإمام أوليائي، ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها للمتقين، من أحبّه أحبني، ومن أبغضه أبغضني...»[(٤)].

كما يمكن فهم ذلك من الآيات التي دلت على أن ولاية المؤمن وولاءه هو امتداد لولاية الله ورسوله، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[(٥)].

---

(١) سوف نقتصر على الإشارة إلى النصوص التي وردت في كتب الجمهور فقط، وهناك مئات النصوص الأخرى أكثر وضوحاً، وردت في كتب الخاصة. منه قدس سره.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٣٠٥، ح٣٨١٦. تهذيب التهذيب٢: ٢٥٨.

(٣) تاريخ بغداد ٢: ١٤٤.

(٤) ينابيع المودة١: ٤٠١. تاريخ مدينة دمشق٤٢: ٢٩١. نظم درر السمطين: ١١٤.

(٥) المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

ثالثاً: يمكن رؤية بُعد وجوب (الحب والولاء) لهم مما سابق في بُعد الامتداد من الآيات والروايات، وما ورد من النص على غفران ذنوب محبي شيعتهم: فعنه صلى الله عليه وآله: «يا علي إنّ الله عزّ وجل قد غفر لك ولشيعتك ولمحبي شيعتك»(١).

رابعاً: يمكن ملاحظة بُعد (التكامل الإنساني) فيهم، الذي هو الهدف من وجود الإنسان في الحياة الدنيا، وما ينتهي إليه في الآخرة.

وذلك فيما ورد من روايات تتحدث عن مصير محبيهم ومصير مبغضيهم ومواصفاتهم، ومنها رواية الزمخشري، وتؤيدها روايات عديدة متفرقة، تتحدث عن بعض مضمونها، وأنّ حبهم وبغضهم مقياس للإيمان والنفاق:

روى السيوطي في الدر المنثور عن ابن مردويه، عن علي عليه السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت هذه الآية: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، قال: ذاك من أحب الله ورسوله، وأحب أهل بيتي صادقاً غير كاذب»(٢)، فالنبي صلى الله عليه وآله يجعل عناصر الحبّ مرتبطة بأصل الإيمان: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(٣)،

---

(١) شرح الأخبار٣: ٥٧٤. ينابيع المودة٢: ٣٥٧، ح١٩ بزيادة في الالفاظ.
عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «دخل عليٌّ عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في بيت ام سلمة، فلمّا رآه قال: كيف أنت يا عليُّ إذا جمعت الأمم، ووضعت الموازين، وبرز لعرض خلقه، ودعي الناس إلى ما لابد منه، قال: فدمعت عين أمير المؤمنين عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما يبكيك يا علي؟ تدعى والله أنت وشيعتك غرّاً محجّلين رواء مرويّين مبياضة وجوهكم، ويدعى بعدوك مسوادةً وجوههم أشقياء معذّبين، أما سمعت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أنت وشيعتك ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ عدوك يا علي» بحار الأنوار ٦٥: ٧٠ ـ ٧١، ح ١٣٠، ولا بأس بمراجعة بحار الأنوار ٦٥ باب فضائل الشيعة.
ونقل الهيثمي في مجمعه عن الطبراني، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي: «أنت وشيعتك تردون على الحوض رواة مرويين بيضة وجوهكم، وإنّ عدوك يردون على الحوض ظمأ مقمحين» مجمع الزوائد ٩: ١٣١.
(٢) الدر المنثور ٤: ٥٨.
(٣) الرعد: ٢٨.

وكأنه يقول: (بحب أهل البيت تطمئن القلوب)، أي: ذكر الله الذي هو ـ أيضاً ـ من العناصر الإيمانية.

وهكذا ما ورد من قبيل: «من أحبهم أحبّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[(١)].

وما ورد من قوله ﷺ: «لا يحبنا أهل البيت إلاّ مؤمن تقي ولا يبغضنا إلا منافق شقي»[(٢)].

وما ورد من قول علي عليه السلام: «إنَّ خليلي ﷺ قال: يا علي إنك ستقدم على الله وشيعتك راضين مرضيين، وقدم عليك عدوك غضاب مقمحين»[(٣)]، ثم يأخذ الإمام عليه السلام يده ويصور حالة الإقماح.

وكذلك ما ورد من قوله ﷺ لعلي عليه السلام: «يا علي إنَّ الله قد غفر لك ولذريتك ولولدك ولأهلك ولشيعتك ولمحبي شيعتك، فأبشر فإنك الأنزع البطين»[(٤)].

خامساً: يمكن تلمّس بُعد (الصفات الأخلاقية) العالية، التي يحصل عليها الإنسان من خلال الجهد والعمل والمعاناة، بحيث يجعلهم يمتازون على بقية الناس.

ومن ذلك الروايات التي وردت في صفات الشيعة ومحبي أهل البيت عليهم السلام، من أنّهم الصابرون على البلاء والمحن، وأهل الورع والتقوى، والصادقون، وهم خير البرية، وأنّهم بيض الوجوه، وأعداؤهم سود الوجوه، عن ابن عباس: «﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ ﴾: يعرفون محبّهم بسيماء الوجوه ومبغضيهم بسواد الوجوه»[(٥)]، لاسيما إذا أخذنا هذه الرواية مع قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[(٦)]، يعرف بأنَّ

---

(١) كنز العمال ١٢: ٩٨، ح٣٤١٦٨.

(٢) ذخائر العقبى: ١٨.

(٣) مجمع الزوائد ٩: ١٣١. بحار الأنوار ٣٥: ٣٤٦، ح٢٢. المعجم الأوسط٤: ١٨٧.

(٤) ينابيع المودة٢: ٤٥٢.

(٥) شواهد التنزيل ١: ٢٦٤. ميزان الاعتدال٢: ٣٥٢.

(٦) آل عمران: ١٠٦.

المقصود ببيض الوجوه (المؤمنون) وبسود الوجوه (المنافقون).

وأن حبهم هو الشهادة واستكمال الإيمان، وأن حب علي حسنة تأكل الذنوب، فقد ورد عنه صلى الله عليه وآله: «حبّ علي حسنة تأكل الذنوب وجواز من النار وبراءة منها ويثبت القدم على الصراط»[١]، وبغضه على عكس ذلك.

ويمكن ملاحظة أكثر من بُعد واحد في بعض هذه الروايات.

سادساً: يمكن لحاظ بُعد (الولاية) في بعض الآيات السابقة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[٢]، التي تعطي للأولياء دوراً بعد الأنبياء والربانيين.

وكذلك في الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام التي تتحدث عن وراثة العلماء للنبي صلى الله عليه وآله وخلافته من بعده، وأنَّ المرجع بعد أهل البيت عليهم السلام هم العلماء.

وبذلك تختص الولاية بالعلماء بعد الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وتنتقل إلى عدول المؤمنين عند فقدان العلماء.

الجانب الثاني: موقعهم في الحركة الاجتماعية للمجتمع الإنساني، حيث يمكن أن نفهم من بعض النصوص السابقة، أو مما ورد عن أهل البيت عليهم السلام بصورة خاصة، أنَّ الشيعة يمثلون مركز الدعوة الإسلامية والحركة الإلهية في المجتمع الإسلامي، حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام تمثيل موقع الإيمان من الإسلام بموقع الكعبة من المسجد الحرام[٣]، وحينئذٍ يمكن فهم عدة أمور من

---

(١) كنز العمال ١١: ٦٢١، ح٣٣٠٢١، ٣٣٠٢٢. تأريخ بغداد ٣: ٣٨٠، و ٤: ٤١٧.

(٢) المائدة: ٢.

(٣) عن سماعة بن مهران قال: «سألته عليه السلام عن الإيمان والإسلام فقلت له: أفرق بين

ذلك:

الأول: المسؤولية في التصدي والعمل من أجل نشر وإقامة الحق والعدل، ونشر الهدى والصلاح بين الناس، والدعوة إلى الله تعالى، وتحمل المصاعب والآلام والمحن بسبب ذلك.

الثاني: أن يكونوا القدوة والأسوة في السلوك الأخلاقي الراقي، بحيث يكونون قبلة للمسلمين والناس جميعاً.

الثالث: إبقاء الارتباط بالناس والتأثير بهم، والمحافظة على وحدة المجتمع الإسلامي والأُمة الإسلامية، وعدم الانفصال عنهم بالعزلة أو الانكفاء الطائفي الخاص، فهم فئة وجماعة تتميز بالمواصفات الخاصة من الإيمان القوي والأخلاق العالية والأهداف المقدسة، ولكنهم في الوقت نفسه هم جزء من الأُمة الإسلامية تتحمل مسؤوليتها وآلامها، وتسعى لتحقيق آمالها، وتمثل القوة الطاقة المحركة لها.

ونكتفي بهذا القدر من ذكر الروايات والحديث.

الدليل الثالث: الاستدلال بالعقل

من الأدلة التي تذكر للاستدلال على اختصاص الإمامة بأهل البيت عليهم السلام، هو الاستدلال بالعقل أو السيرة العقلائية[1]، وبوجهين:

الإيمان والإسلام؟ فقال: أو أضرب لك مثلاً؟ قال : قلت أو ذاك، قال: مثل الإيمان من الإسلام مثل الكعبة الحرام من الحرم، قد يكون الرجل في الحرم ولا يكون في الكعبة، ولا يكون في الكعبة حتى يكون في الحرم، فقد يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً، ولا يكون مؤمناً حتى يكون مسلماً، قال: فقلت: فيخرجه من الإيمان شيء؟ قال: نعم، قلت: فيصيّره إلى ماذا؟ قال: إلى الإسلام أو الكفر، وقال: لو أنّ رجلاً دخل الكعبة فأفلت منه بوله أخرج من الكعبة ولم يخرج من الحرم، ولو خرج من الحرم فغسل ثوبه وتطهّر ثمّ لم يمنع أن يدخل الكعبة، ولو أنّ رجلاً دخل الكعبة فبال فيها معانداً أُخرج من الكعبة ومن الحرم فضربت عنقه» بحار الأنوار ٦٥: ٢٧١ ـ ٢٧٢ ، ح ٢٩.

(١) بعض الباحثين يخلط بين العقل والسيرة العقلائية في الاستدلال العقلي، ولذا فعندما

الوجه الأول: الاستدلال بدليل الحكمة الذي يستخدمة المتكلمون للاستدلال في أبحاثهم الكلامية، سواء الشيعة منهم أم أهل السنة(١).

وينطلق الإستدلال به هنا من حقيقة تاريخية ثابتة لدى المسلمين بوسائل عديدة ـ قرآنية، وحديثية، وتجريبية ـ من أنَّ أهل البيت عليهم السلام أفضل جماعة بين المسلمين، وأنَّ علياً عليه السلام هو أفضل الصحابة، كما ثبت ذلك بحسب الأدلة السابقة التي أوردناها في حق إمامة علي وأهل البيت عليهم السلام، فإنّها إذا لم تدل على إمامتهم فهي تدل ـ على أقل تقدير ـ على أفضليتهم.

ونكتفي هنا بإثبات جانب الأفضلية، وهي أقل ما تدل عليه تلك الروايات الخاصة أو ما ورد في تفسير الآيات الشريفة التي نزلت بشأنه عن طرق أهل السنة.

وهذا أمر لا يكاد يشك به أحد من المسلمين، فهناك من النصوص التأريخية التي تدل على أنَّ الخلفاء الذين تقدموا على علي عليه السلام بالخلافة كانوا يعترفون له عليه السلام

نذكر عنوان (العقل) نريد منه الأعم من الاستدلال العقلي والسيرة العقلائية، ويكون لدينا وجهان من الاستدلال العقلي في هذا المجال، وإلا فيمكن أن يكون كل واحد منهما دليلاً مستقلاً في نفسه.

وأشير في هذا المجال المحدود إلى هذين الوجهين من الاستدلال بالعقل بالمعنى الأعم، وللقارئ الباحث العزيز أن يراجع المصادر المناسبة لهذا البحث من علم الكلام وأُصول الفقه، لاختيار أحدهما أو كليهما للاستدلال، مع الانتباه إلى الفرق بينهما. منه قدس سره.

(١) فالمتكلمون الإسلاميون بصورة عامة يستخدمون هذا الوجه من الاستدلال، وهو ما يعبرون عنه بدليل اللطف، أو قاعدة اللطف، حيث يستدل بها ـ أحياناً ـ كما ذكرنا في اثبات ضرورة أصل الإمامة.

إنَّ هذه القاعدة ـ في الحقيقة ـ إذا أردنا تحليلها نرى أنها تارة تكون منطلقة من صفة الرحمة واللطف الإلهي، وأخرى تكون منطلقة من صفة الحكمة الإلهية، لأن الله تعالى حكيم.

ونحن في ذلك البحث رجحنا الانطلاق من الصفة الثانية في الاستدلال بهذه القاعدة الشريفة. منه قدس سره.

بهذا الفضل، فعمر ـ مثلاً ـ في مرات عديدة كان يقول في علم علي عليه السلام وفضله: لولا علي لهلك عمر، ويقول أيضاً: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن، وكذلك يقول: أقضانا علي، وتوجد نصوص كثيرة تدل على أفضلية علي عليه السلام[(١)].

ولذلك تتبنى جماعة كبيرة من المسلمين ـ يمثلون النخبة في المجتمع الإسلامي، وهم المعتزلة وغيرهم ـ هذه الحقيقة كجزء من عقيدتهم، وهي أنّ علياً عليه السلام هو الأفضل من بقية الخلفاء، حتى أنّهم كانوا يعبّرون عن ذلك ـ أحياناً ـ بقولهم: (الحمد الله الذي قدّم المفضول على الفاضل)[(٢)].

وعندئذٍ إذا ثبت بأنّ علياً عليه السلام هو أفضل، وأنّ (أهل البيت عليهم السلام) هم ـ أيضاً ـ أفضل جماعة بين المسلمين، يأتي دليل الحكمة، فيقال: إنّ مقتضى الحكمة الإلهية في تنظيم المجتمع الإنساني أن يقدّم الفاضل على المفضول، وأن تكون الإمامة في

---

(١) تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين: ٢٩.

قال في مقدمة شرح نهج البلاغة ما نصه: «.. وما أقول في رجل تُعزَى إليه كلُّ فضيلة، وتنتهي إليه كل فرقة، وتتجاذبه كلُّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو عُذرها، وسابق مضمارها، ومجلّي حلبتها؛ كلُّ مَنْ بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى. ..

.. وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر. وأيضاً فإنّ فقهاء الصحابة كانوا: عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس؛ وكلاهما أخذ عن علي عليه السلام. أما ابن عباس فظاهر، وأمّا عمر فقد عَرَف كلُّ أحد رجوعَه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة، وقولَه غير مرة: (لولا عليٌّ لهلك عمر) وقوله : (لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن) ، وقوله: (لا يُفتينّ أحد في المسجد وعليّ حاضر) ؛ فقد عُرف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه. ..» راجع مقدمة شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٧ ـ ١٨.

(٢) المقصود به أنّ علياً عليه السلام كان يعتبر هو الفاضل والآخرون هم المفضول، ولكن شاء الله تعالى أن يتقدم هؤلاء عليه عليه السلام في الخلافة وإدارة الحكم خارجياً، من قبيل ما نحمده ـ أحياناً ـ على كل حال، على السراء والضراء، والشدة والرخاء، فهم كذلك يحمدون الله تعالى على هذا الواقع الذي تقدّم فيه المفضول على الفاضل، وهذا هو منهج آخر لتبرير الواقع في مواجهة الأدلة التي لا يمكن غض النظر عنها. منه قدس سره.

الأفضل، أي: أن تكون الإمامة في هذه الجماعة المفضلة بعد أن ثبت ضرورة ثبوت الإمام.

وقضية (تقديم الأفضل في إدارة المجتمع الإنساني) يشير إليها القرآن الكريم في بعض الحالات الخاصة.

ففي قضية قيمومة الرجل على المرأة عندما يتحدث القرآن الكريم عن تفسير هذه القيمومة يذكر هذه الأفضلية، حيث يقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾[1]، فجعل قضية التفضيل سبباً في ثبوت القيمومة بمقتضى الحكمة الإلهية.

والقرآن الكريم يفسّر هذه القيمومة ـ التي هي نوع من أنواع الإدارة للأسرة ـ بأمرين:

الأول: وجود الفضل لبعضهم على بعض.

الثاني: وجوب الإنفاق من الرجل على المرأة.

إذن، فقضية التفضيل أحد ـ كما أشار إليه القرآن الكريم ـ الأسباب التي تنظر إليه الحكمة الإلهية، فإذا ثبت أنَّ أهل البيت عليهم السلام هم أفضل من غيرهم فلابد أن يقدموا في هذه الإمامة، بموجب هذه الحكمة الإلهية الثابتة.

الوجه الثاني: الاستدلال بـ(السيرة العقلائية)، وهو وجه من الاستدلال معروف لدى المسلمين بصورة عامة، ولدى فقهاء وعلماء شيعة أهل البيت عليهم السلام بصورة خاصة، وهو ما يعرف في ثقافة جماعة أهل البيت عليهم السلام بموضوع (الرجوع إلى الأعلم)، سواء في الإمامة أم غيرها كالتقليد، بل إنَّ الروايات التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام وردت في خصوص الإمامة، وتمَّ تعميمها إلى موضوع التقليد، حيث يتعيّن تقليد المجتهد الأعلم دون غيره، فمتى ما كان هناك مجتهدان كاملان في علمهما وتقواهما، وكان أحدهم أعلم من الآخر يتعيّن تقليد الأعلم منهما، ولا

---

(١) النساء: ٣٤.

يجوز الرجوع إلى غيره، ولاسيما إذا كان هذا الأعلم واضح الأعلمية في درجته العلمية.

ويستدل الفقهاء على ذلك بعدة أدلة، أهمها:

السيرة العقلائية، فيذكرون: «أنَّ العقلاء التزموا في سيرتهم الشخصية وقضاياهم الاجتماعية بالرجوع إلى الأعلم، فعند ابتلاء الإنسان العاقل بمرض ـ ولاسيما إذا كان خطيراً ـ نراه يفتش وأهله عن أعلم الأطباء، للرجوع إليه في هذا الأمر».

وهكذا حين يريد الإنسان أن يبني بناءً، أو يقوم بأي عمل، ولاسيما إذا كان العمل مهماً، فإنَّه يفتش عمّن يكون قادراً على أدائه بصورة أفضل.

وقد أُشير إلى صحة هذا الوجه في روايات صحيحة عن أهل البيت عليهم السلام فيكون ذلك وجهاً آخر من الاستدلال على هذه الحقيقة، أو كاشفاً عن الوجه الأول. وأشير إلى نصين منها:

أحدهما: ما ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ أحق الناس بهذا الأمر ـ يعني في إدارة أمر الخلافة ـ أقواهم عليه»[(١)]، أي: أنَّ الشخص الأقوى على إدارة هذا الأمر يكون أولى الناس به من غيره.

وهذا معناه أنَّ الأفضل يكون مقدماً على غيره في الإمامة.

ثانيهما: ما ورد في صحيحة العيص بن القاسم عن الإمام الصادق، حيث يشرح الإمام عليه السلام السيرة العقلائية ـ تقديم الأفضل في الإمامة ـ باستخدام هذا المثال البسيط، فيقول: «عليكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وانظروا لأنفسكم، فو الله إنَّ الرَّجل ليكون له الغنم فيها الراعي، فإذا وجد رجلاً هو أعلم بغنمه من الّذي هو فيها يخرجه ويجيء بذلك الرَّجل الّذي هو أعلم بغنمه من الّذي كان

(١) نهج البلاغة: ٢: ٨٦، خطبة ١٧٣.

فيها...»[١].

فقضية الغنم وإن لم تكن خطيرة بالنسبة إلى المجتمع الإنساني كله، ولكنَّها خطيرة بالنسبة للإنسان المالك لها، وهذه قاعدة في سيرة العقلاء.

إذن، تقتضي قاعدة اللطف أنَّ الإمامة لابد أن تكون مختصة بأهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم هم الأفضل بمقتضى السيرة العقلائية.

الدليل الرابع: الاستدلال بروايات أهل البيت عليهم السلام

توجد مجاميع حديثية عديدة منذ الأجيال الأولى لأتباع أهل البيت عليهم السلام، بل منذ زمان الأئمة عليهم السلام وحتى يومنا الحاضر، جُمعت فيها روايات كثيرة جداً فيما يتعلق بهذا الموضوع، مثل: أُصول الكافي، وبعض كتب الشيخ الصدوق، ومصادر الكتب الأربعة، والموسوعات الكبيرة المتأخرة، مثل: البحار للعلامة المجلسي، وإثبات الهداة للشيخ الحر العاملي، بل هناك مجاميع ألّفها بعض العلماء من أهل الجمهور بهذا الصدد، كينابيع المودة للقندوزي، وفرائد السمطين للحمويني وغيرها، مما يمكن الرجوع إليها في هذا الصدد، وقد جمع الشيخ الحر العاملي ما يقرب من ألف رواية في هذا الموضوع، جزى الله علماءنا الأعلام الماضين خير الجزاء.

كما أنَّ هذا العمل يتابع الآن في أوساطنا العلمية بصورة واسعة وعلمية، وتوجد مؤسسات تتابعه وتوثقه، وتحاول أن تحفظه وتهتم به، ولذلك فإنَّ الحديث فيه يكون حديثاً تكرارياً، ولا يكون فيه شيء جديد.

ملاحظات حول الاستدلال

ولكن مع ذلك هناك بعض الملاحظات مهمة بالنسبة إلى هذه الروايات الشريفة والكريمة لابد من ذكرها لأهميتها:

(١) الكافي ٨: ٢٦٤، ح ٣٨١.

الملاحظة الأولى: إنَّ وجود الإمامة وثبوتها في أهل البيت عليهم السلام قضية ضرورية، بل هي من ضروريات مذهبهم عليهم السلام، فالروايات الواردة في هذا الجانب تشكّل وضوحاً بالنسبة لقضية الإمامة بحيث تصبح هذه القضية من ضرورات المذهب، ومن ينكرها يكون خارجاً عن المذهب، مهما ادعى أو تسمى باسم من الأسماء.

الملاحظة الثانية: إذا قارنا بين هذه الروايات والروايات الواردة عن طرق الجمهور نجد في كثير من مواردها شيئاً من التشابه، ومن خلال هذه المقارنة والتشابه نكتشف حالات التزوير والحذف والتحوير الذي تعرضت له بعض روايات الجمهور بسبب الظروف السياسية والاجتماعية والأغراض الخاصة.

فهناك ثلاث محاولات تعرضت لها الروايات في طرق الجمهور ـ وتصبح هذه المحاولات من الواضحات عندما نقارن بينها وبين روايات أهل البيت عليهم السلام ـ وهي:

١ـ وجود عملية التزوير أحياناً.

٢ـ وجود عملية التحوير أحياناً أُخرى، حيث نلاحظ أنَّ التحوير بشيء بسيط يحول المضمون، بحيث يصبح له معنىً آخر، أو لا يكون بتلك الدرجة من الوضوح، ويعتريه شيء من الإبهام.

٣ـ وجود عملية الحذف والإسقاط لبعض الكلمات أحياناً ثالثة، فنلاحظ أنَّ النص يكون بنفسه عند الفريقين، وبنفس الخصوصيات، والرواة، ولكن نجد هناك كلمة قد أُسقطت من النص في طرق الجمهور، الأمر الذي يشعر الإنسان بهذه العملية.

وهنا يأتي دور المقارنة بين روايات علماء الجمهور وروايات أهل البيت عليهم السلام، التي سوف تكشف هذه العمليات[1]، وتصبح الصورة واضحة من خلال هذه

(١) ولذلك أعتقد أنَّ القيام بكتابة مجاميع حديثية ترتبط بأهل البيت عليهم السلام تتناول

المقارنة.

الملاحظة الثالثة: إنَّ روايات أهل البيت عليهم السلام في حديثها عن الإمامة أوضح بكثير من روايات الجمهور، ولذلك نجد في هذا المجال عدة أمور:

الأول: إن روايات أهل البيت عليهم السلام تشخص الأبعاد الستة في الإمامة بكل وضوح بخلاف روايات الجمهور التي تُستنبط منها هذه الأبعاد استنباطاً.

الثاني: ذكر الأدوار والمسؤوليات التي يقوم بها الإمام بوضوح في هذه الروايات، ولذلك إذا أردنا معرفة نظرية الإمامة بصورة تفصيلية واضحة ـ بعد إثباتها ـ لابد من الرجوع إلى هذه الروايات، لمعرفة النظرية بصورة صحيحة إعتماداً عليها ـ الروايات ـ بموجب القواعد والضوابط العلمية المعترف بها، حيث فيها الكثير من النصوص صحيحة السند، وبعضها متضافرة، وبعضها متواترة.

الثالث: تتعرض هذه الروايات إلى بعض تفاصيل صفات أئمة أهل البيت عليهم السلام، التي قد لا تكون موجودة في روايات الجمهور، من قبيل تفاصيل علم أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكذلك بعض خصوصيات الولاية، مثل: الجانب التكويني في الولاية، حيث نجده فيها بوضوح، وعلى أقل تقدير بعض مراتب وأبعاد الولاية التكوينية، أو الرجعة أو الكرامات.

الملاحظة الرابعة: وجود مجموعة من الادعاءات في هذا الجيل، وفي أجيال سابقة، ومحاولات للتضليل من خلال تزوير الحقائق بالنسبة إلى هذه الروايات[1]،

فضلهم عليهم السلام وشؤونهم، بصورة مقارنة بين كتب الجمهور وكتبنا، وتطبع وتنشر بصورة مناسبة، سوف يكون له دور كبير جداً في معرفة الحقيقة وهداية الناس لإمامة أهل البيت عليهم السلام. منه قدس سره.

(١) **ومنها:** المحاولة الأخيرة في هذه الأيام التي تنسب إلى أحمد الكاتب، ومن قبله إلى السيد موسى الموسوي حفيد آية الله العظمى السيد الأصفهاني قدس سره، وغيرها من المحاولات التي انطلقت تحت عنوان (تصحيح التشيع)، بعنوان بيان التشيع الحقيقي!!!.

فهذه المحاولات تحاول التشكيك في حقيقة الإمامة الواضحة في عقائد المذهب ونصوصه وتراثه بأساليب الخداع والتضليل.

ولابد من ذكر عدة قضايا بصورة عامة:

القضية الأولى: إن محاولات التضليل هذه تعتمد استخدام عناوين مضللة، كعنوان التصحيح أو الرجوع إلى الأصول الشيعة، فهذه المحاولة بنفسها عملية تحتوي على تزوير، فبدلاً من أن يقول هذا الإنسان: أنا خرجت من التشيع، وأصبحت إنساناً مرتداً عن هذا المذهب، ولا أقبل أُصوله ـ كما يصنع بعض المستبصرين الذين يتحولون من الكفر والشرك إلى الدين الإسلامي الأصيل، أو من المذاهب الأُخرى إلى المذهب الشيعي الاثني عشري، ويقولون بصورة واضحة وصريحة تعبر عن مصداقية في فهمهم، وصراحة في موقفهم ـ نلاحظ أنَّهم إما لأغراض سياسية، أو أنَّهم لا يملكون الشجاعة، أو يعيشون أزمة أخلاقية متدنية يكذبون على أنفسهم وعلى الناس، ولا يقولون الحقيقة بصورة صحيحة ويعلنون إرتدادهم عن المذهب وأصوله والإلتزام بشئ آخر، بل الأدهى من ذلك يحاولون الكذب وادعاء التصحيح والتطوير للأُصول الشيعية، وكأنَّها أُصول كاذبة.

القضية الثانية: إنَّ المنهج الذي اتبعه هؤلاء المزيفون ـ إلى جانب الادعاء الكاذب ـ منهج مخادع، فهم يحاولون الظهور بمظهر أتباع المنهج العلمي والموضوعي، كما هو الحال في الكثير من المخادعين والمزورين الذين يتلبسون بثوب العلم والبحث العلمي، وهذا المنهج والأسلوب اتبعه المستشرقون

لقد انطلقت هذه المحاولات الأخيرة في ظروف سياسية معروفة، وهي ظروف الهجمة العالمية على الشيعة والتشيع، بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وآثارها المعنوية على النهضة الإسلامية العالمية.

وقد قام بعض الاخوة الأعزاء ـ جزاهم الله خير الجزاء ـ بمتابعة هذه المحاولات ونقدها بصورة جيدة. منه ﷺ.

والمبشرون ـ أيضاً ـ في أعمالهم في الأجيال السابقة واللاحقة للمسلمين، واتبعه مضلِّلون آخرون.

هؤلاء ـ أيضاً ـ اتبعوا نفس هذا الأُسلوب المخادع، وأخذوا يطرحون المنهج والأسلوب وكأنَّه أُسلوب علمي، مع أنَّ القضية كانت مجرد قضية شيطانية وصورية، ولا يوجد لهذا المضمون والمنهج العلمي أي مصداقية في أعمالهم عندما ندقق فيها[1].

ولذلك نلاحظ هؤلاء يستخدمون عملية الانتقاء في النصوص، والعالِم لا ينتقي النصوص، بل يدرس جميع النصوص بصورة موضوعية، والخروج بالمحصّلة العلمية من خلالها جميعاً، لا أن يأخذ نصاً يتحيز له ويتحيز لرأيه، ويترك نصاً آخر على خلاف رأيه، إلاّ بمقدار ما يُلزم الخصم بما يلتزم به.

وقد مارس هؤلاء العملية ـ مع الأسف ـ بهذه الطريقة، فهو يسند إلى الكتاب الفلاني نصاً من النصوص، ولكن لا يذكر النص الآخر الذي يفسّره في ذلك الكتاب، فهذه العملية تعتبر عملية تضليلية.

القضية الثالثة: لوحظ في هذه العمليات الخيانة وعدم الأمانة في النقل، فهم يقطّعون النصوص ويحذفون منها بعض الكلمات، وينسبون نصوص وكلمات إلى علماء لم يقولوها أبداً، وإنَّما يذكرها العالِم ـ أحياناً ـ في كتابه عن غيره، ثم يجيب عليها، ولكن هؤلاء يذكرون نص الإشكال وينسبونه إلى العالِم، وكأنَّه كلام العالِم نفسه، مع أنَّ هذا العالِم يذكر الموضوع في كتابه بعنوان شبهة تثار حول المذهب، ثم يجيب عنها، ويذكر رقم الصفحة والجزء والسطر، وما أشبه ذلك، وكأنَّ القضية

(١) ونحن وإن كنّا نؤمن ونتمنى أن يكون هناك حوار حقيقي في هذه المجالات بصورة علمية ودقيقة، وتحكمها الضوابط العلمية، ولتكن للإنسان حريته في إبداء الرأي والحديث، ولكن لا نؤمن أن يستخدم اسم العلم وشكله وسيلة للتضليل والخداع وتزوير الحقائق وبمجرد الظهور بالمظهر العلمي وبالصورة العلمية، ولكن الواقع هو واقع بعيد عن العلم والعلماء والضوابط. منه ﷺ.

مرتبطة بهذا العالم[١].

القضية الرابعة: نلاحظ في هذه المحاولات أنّها محاولات تكرارية، وليس فيها شيء جديد إلاّ هذا الأسلوب الخياني الخادع وهذه الصورة العلمية المشوهة، فإنّ الشبهات التي يثيرها هؤلاء الذين يدّعون العلم والفضل ما هي إلاّ شبهات قديمة ذكرها بعض السابقين عليهم في زمن الأئمة عليهم السلام من المذاهب الإسلامية أو الشيعية الأُخرى، مثل: الزيدية، والواقفية، أو ذكرها جماعة من أهل السنة، وهي شبهات كانت تثار منذ ذلك الوقت ولا زالت، وأجاب عنها أئمتنا عليهم السلام وعلماؤنا بأجوبة مفصّلة وواضحة، ولكن مع ذلك يأتي هؤلاء ويكررونها مرة أُخرى دون أن يشيروا إلى هذه الحقيقة، وكأنّها شيء جديد مبتكر قد توصلوا إليه بالبحث والتمحيص.

إنّ هذه المحاولات لابد أن ننظر إليها من خلال هذه الأبعاد والقضايا الرئيسية.

المحصلة العامة للفصل الثاني

وحاصل الكلام في هذا الفصل: إنا من خلال القرآن الكريم، ومن خلال الروايات التي وردت عن النبي صلى الله عليه وآله عن طريق الجمهور، ومن خلال العقل

---

(١) ومن الحوادث التأريخية المشابهة بهذا الصدد: عندما صدر الجزء الأول من كتاب المستمسك، للمرحوم الإمام الحكيم قدس سره ، فصدر حوله منشور يطعن بالإمام الحكيم، وأنّه يمثل في منهجه الفقهي المنهج الوهابي، وكان يستخدم المنشور هذه الطريقة، فمثلاً عندما كان يتعرض الإمام الحكيم قدس سره إلى مسألة: هل يجوز تنجيس المراقد المطهرة للأئمة عليهم السلام ، أو لا يجوز تنجيسها؟ وأنّ حكمها حكم المساجد التي لا يجوز تنجيسها، أو يختلف حكمها في ذلك.

يذكر ـ الإمام الحكيم قدس سره ـ بعض الشبهات حول الموضوع بعنوان أنّه قد يقال، ثمّ يجيب عليها.

ولكن المنشور يذكر الشبهات ـ التي يثيرها الإمام الحكيم قدس سره ويجيب عليها ـ على أنّها آراء الإمام الحكيم قدس سره. منه قدس سره.

والسيرة العقلائية، وكذلك الروايات التي وردت عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عن طريقهم عليهم السلام، يصبح من الواضح أنَّ الإمامة التي هي ضرورة من ضرورات الرسالة الخاتمة، هي مختصة في أهل البيت عليهم السلام.

الفصل الثالث

الاستدلال على اختصاص الإمامة بالأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام

هناك أربعة أدلة يمكن اعتمادها في الاستدلال على اختصاص الإمامة بالأئمة الاثني عشر من أهل البيت (عليهم السلام)، وهي:

١ـ روايات أهل البيت (عليهم السلام)

٢ـ روايات الجمهور

٣ـ احترام المسلمين لأهل البيت (عليهم السلام)

٤ـ تطور الشيعة والتشيع

الدليل الأول: روايات أهل البيت (عليهم السلام)

إنّ الروايات الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) تذكر هذا الاختصاص بصورة واضحة، سواء في تسمية الأئمة الاثني عشر تفصيلاً، أم الإشارة إلى العدد إجمالاً.

وفي هذا الاستدلال نشير إلى:

أولاً: الروايات بصورة عامة مع ذكر بعضها.

ثانياً: النتائج التي يمكن أن نستخلصها من هذه الروايات.

ثالثاً: الشبهة التي قد تثار حول الاستدلال بهذه الروايات.

أولاً: الروايات بصورة عامة مع ذكر بعضها

أما الروايات فهي من حيث العدد والمضمون يمكن أن نقول عنها بأنّها متواترة، حيث إنّ الحر العاملي ـ صاحب كتاب الوسائل ـ ذكر في كتابه (إثبات

الهداة)، تحت عنوان (النصوص العامة على إمامة الأئمة عليهم السلام)[1]، ما يقرب من ألف رواية من طرق أهل البيت عليهم السلام لإثبات هذا الموضوع، وقد أسندها بعدد كبير ـ أيضاً ـ من الروايات التي وردت من طرق جمهور المسلمين، وممن يسمون اصطلاحاً بـ(أهل السنة)، وأكثر هذه الروايات التي ذكرها تذكر الأئمة الاثني عشر إما بأسمائهم، أو بعددهم وعنوانهم العام.

وإذا تمّ الرجوع إلى أجيال الرواة الذين رووا هذه الروايات، والكتب التي دونت فيها، فلا شك سيتحقق للإنسان المنصف القطع بصدور بعض هذه الروايات ـ على الأقل ـ من الأئمة عليهم السلام.

إذن، فمن الممكن القول: إنّ هذه الروايات متواترة إجمالاً، أي: أنّ بعضها قد صدر عن النبي صلى الله عليه وآله، أو أئمة أهل البيت عليهم السلام، وفيها النص على أنّ الأئمة هم اثنا عشر.

وأشير إلى بعض هذه الروايات تبركاً وتيمناً بذكرها:

الرواية الأولى: روى الكليني: «عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد البرقي[2]، عن أبي هاشم داود بن القاسم الجعفري، عن أبي جعفر الثاني عليه السلام ـ الإمام الجواد عليه السلام ـ قال: أقبل أمير المؤمنين عليه السلام ومعه الحسن بن عليّ عليه السلام وهو متكئ على يد سلمان فدخل المسجد الحرام فجلس[3]، إذ أقبل رجل حسن الهيئة واللّباس فسلّم على أمير المؤمنين، فرد عليه السلام ثمّ قال: يا أمير المؤمنين أسألك عن ثلاث مسائل إن أخبرتني بهنَّ علمت أنّ القوم ركبوا من أمرك ما قضي عليهم وأن

---

(١) إثبات الهداة ١: ٤٣٣ ـ ٦٧٥، الباب التاسع.

(٢) يوجد إجماع على توثيقه، نعم يوجد حديث حول روايته في أنّه كان يتساهل ـ أحياناً ـ في الرواية عن الضعفاء، ولكن من يروي عنه هذه الرواية يعتبر من أجلّة الثقاة والأصحاب، ولذلك لا يوجد شك فيها من هذه الناحية. منه قدس سره.

(٣) ويبدو أنّ هذه الرواية كانت قبل خلافة الإمام علي عليه السلام، لأن سلمان لم يكن حيّاً عندما تولى الإمام علي عليه السلام الخلافة. منه قدس سره.

ليسوا بمأمونين في دنياهم وآخرتهم، وإن تكن الأُخرى علمت أنّك وهم شرع سواء. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: سلني عمّا بدا لك، قال: أخبرني عن الرَّجل إذا نام أين تذهب روحه، وعن الرجل كيف يذكر وينسى، وعن الرَّجل كيف يشبه ولده الأعمام والأخوال؟ فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحسن فقال: يا أبا محمّد أجبه، قال: فأجابه الحسن عليه السلام.

فقال الرَّجل: أشهد أن لا إله إلاّ الله ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنَّ محمّداً رسول الله ولم أزل أشهد بذلك، وأشهد أنّك وصيُّ رسول الله صلى الله عليه وآله والقائم بحجّته ـ وأشار إلى أمير المؤمنين ـ ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنّك وصيّه والقائم بحجّته ـ وأشار إلى الحسن عليه السلام ـ وأشهد أنَّ الحسين بن عليّ وصيُّ أخيه والقائم بحجّته بعده، وأشهد على عليّ بن الحسين أنّه القائم بأمر الحسين بعده، وأشهد على محّمد بن عليّ أنه القائم بأمر عليّ بن الحسين، وأشهد على جعفر بن محّمد بأنّه القائم بأمر محّمد، وأشهد على موسى أنّه القائم بأمر جعفر بن محّمد، وأشهد على عليّ بن موسى أنّه القائم بأمر موسى بن جعفر، وأشهد على محّمد بن عليّ أنّه القائم بأمر عليّ بن موسى، وأشهد على عليّ بن محّمد بأنّه القائم بأمر محّمد بن عليّ، وأشهد على الحسن بن عليّ بأنّه القائم بأمر عليّ بن محّمد، وأشهد على رجل من ولد الحسن ـ الإمام الحسن العسكري عليه السلام ـ لا يكنّى ولا يسمّى حتّى يظهر أمره فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً. والسّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ثمَّ قام فمضى. فقال أمير المؤمنين: يا أبا محّمد اتبعه فانظر أين يقصد؟ فخرج الحسن بن عليّ عليهما السلام فقال: ما كان إلاّ أن وضع رجله خارجاً من المسجد فما دريت أين أخذ من أرض الله، فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأعلمته، فقال: يا أبا محّمد أتعرفه؟ قلت: الله ورسوله وأمير المؤمنين أعلم[1]، قال: هو الخضر عليه السلام»[1].

(١) هنا يلاحظ أنّ الإمام الحسن عليه السلام لا يقول: لا أعرفه، ولكن تحدث لأبيه تأدباً بهذه الصورة. منه قدس سره.

هذه الرواية معتبرة السند، وقد رويت بعدة طرق، وبعض هذه الطرق صحيحة السند، كما يرويها الكليني بسند آخر[٢]، ويرويها الصدوق بعدة أسانيد، ويرويها الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة بعدة أسانيد أيضاً، ويرويها الطبرسي والنعماني ـ أيضاً ـ في كتاب الغيبة[٣]، والكثير من هذه الأسانيد صحيحة.

الرواية الثانية: عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال أبي لجابر بن عبد الله الأنصاري: إنَّ لي إليك حاجة فمتى يخفُّ عليك أن أخلو بك فأسألك عنها، فقال له جابر: أيَّ الأوقات أحببته، فخلا به في بعض الأيّام فقال له: يا جابر أخبرني عن اللوح الّذي رأيته في يد أُمي فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وما أخبرتك به أُمي أنّه في ذلك اللّوح مكتوبٌ؟

فقال جابر: أشهد بالله أنّي دخلت على أُمك فاطمة عليها السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله فهنّيتها بولادة الحسين، ورأيت في يديها لوحاً أخضر، ظننت أنّه من زمرُّد، ورأيت فيه كتاباً أبيض شبه لون الشمس، فقلت لها: بأبي وأُمّي يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ما هذا اللّوح؟ فقالت: هذا لوح أهداه الله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيه اسم أبي واسم بَعْلي واسم ابنيَّ واسم الأوصياء من ولدي وأعطانيه أبي ليبشّرني بذلك.

قال جابر: فأعطتنيه أُمّك فاطمة عليها السلام فقرأته واستنسخته، فقال له أبي: فهل لك يا جابر أن تعرضه عليَّ؟ قال: نعم، فمشى معه أبي إلى منزل جابر فأخرج صحيفة من رقّ، فقال: يا جابر أُنظر في كتابك لأقرأ أنا عليك، فنظر جابر في نسخته فقرأه أبي فما خالف حرف حرفاً... »[٤].

---

(١) الكافي ١: ٥٢٥ ـ ٥٢٦، ح١.

(٢) الكافي ١: ٥٢٦ ـ ٥٢٧، ح٢.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة: ٣١٣، ح١. الغيبة للطوسي: ١٥٤، ح١١٤. الاحتجاج ١: ٣٩٥. كتاب الغيبة للنعماني: ٩٦، ح٢.

(٤) هنا الرواية طويلة، وفيها ذكر أسماء الأئمة عليهم السلام واحداً واحداً حتى ينتهي بذكر الإمام الثاني عشر، وهو: محمد بن الحسن العسكري عليهما السلام، فمن رام التفصيل، فليراجع

ويبدو أنَّ هذه الرواية مروية بعدة طرق، ولكنَّها تجتمع ـ فيما يبدو ـ على بكر بن صالح، وهو ضعيف.

الرواية الثالثة: عن سلم بن قيس[(١)] قال: «سمعت عبد الله بن جعفر الطيّار يقول: كنّا عند معاوية أنا، والحسن، والحسين، وعبد الله بن عبّاس، وعمر بن أُمّ سلمة، وأُسامة بن زيد، فجرى بيني وبين معاوية كلامٌ فقلت لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثمَّ أخي عليُّ بن أبي طالب أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا استشهد عليٌّ فالحسن بن عليٍّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثمَّ ابني الحسين من بعده أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فذا استشهد فابنه عليُّ بن الحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم وستدركه يا عليّ، ثمَّ ابنه محمّد بن عليّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وستدركه يا حسين، ثمَّ تكمّلة اثني عشر إماماً تسعة من ولد الحسين، قال عبد الله بن جعفر: واستشهدت الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعمر بن أُم سلمة وأُسامة بن زيد، فشهدوا لي عند معاوية.

قال سليم: وقد سمعت ذلك من سلمان وأبي ذرّ والمقداد وذكروا أنّهم سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ»[(٢)].

الرواية الرابعة: عن أبي حمزة قال: «سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: إنَّ الله خلق محّمداً وعلياً وأحد عشر من ولده من نور عظمته، فأقامهم أشباحاً في ضياء نوره يعبدونه قبل خلق الخلق، يسبّحون الله ويقدّسونه وهم الأئمّة من ولد

الكافي ١: ٥٢٧ ـ ٥٢٨ ، ح٣. منه ﷺ.

(١) الإشكال في هذه الرواية بإبن عياش الذي يوجد حوله حديث كثير، وخلاصته: أنَّ أبان بن عياش هو الراوي الوحيد لكتاب سليم بن قيس، وأبان هذا كان قد لجأ إليه سليم في بيته أواخر حياته بعد مطاردته من قبل السلطة، ثم توفي سليم عنده، ويوجد كلام أنَّ أبان هذا هل هو شخصية موثوقة بحيث حفظ ما كتبه سليم بن قيس؟ أو أنّه أدخل عليه بعض التحريف، بعد التسليم والقبول ـ تاريخياً ورجالياً ـ بوجود كتاب سليم بن قيس، حيث كان معروفاً به في عصره. منه ﷺ.

(٢) الكافي ١: ٥٢٩ ، ح٤. الخصال: ٤٧٧، ح٤١.

رسول الله صلى الله عليه وآله»[١].

فهنا يذكر: ـ أيضاً ـ: (الأئمة الاثني عشر) دون أن يسميهم واحداً واحداً، ما عدا علياً عليه السلام.

الرواية الخامسة: عن زرارة قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: الاثنا عشر الإمام من آل محمّد عليهم السلام كلّهم محدَّث من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن ولد عليّ، ورسول الله وعليٌّ عليهما السلام هما الوالدان...»[٢].

وتوجد مجموعة من هذه الأسانيد لهذه الروايات.

وهناك مجموعة أُخرى كبيرة جداً من هذه الروايات تقارب الألف رواية، كما يوجد في فصول أُخرى من الكتب المذكورة ما يدعم هذه الروايات، كالروايات التي وردت في حبّهم ومودّتهم، أو في الإرجاع إليهم، وكذلك ما ورد ـ أيضاً ـ في شأن عداوتهم وبغضهم، فإذا أردنا جمع كل هذه الروايات مع روايات النص عليهم يصبح لدينا عدد كبير جداً مما يؤكد هذه الحقيقة.

ثانياً: النتائج التي يمكن أن نستخلصها من هذه الروايات

إن هذه الروايات باعتبار وجود محور (الاثني عشر) فيها يمكن أن تكون مفسرة ـ كما سوف أشير ـ لما ورد في روايات جمهور المسلمين من ذكر (الخلفاء الاثني عشر) بصورة مطلقة، أو بعنوان (من قريش)، حيث يمكن أن تمثل بمجموعها قضية واحدة، وتتحدث عن أمر وموضوع واحد.

كما نفهم من هذه الروايات أنَّ اختصاص الإمامة بالأئمة الإثني عشر عليهم السلام قضية واضحة جداً لا شبهة ولاشك فيها، وهي مجمع عليها عند علماء أتباع أهل البيت عليهم السلام.

وبذلك لا مجال للإصغاء لما يحاول أن يثيره بعض المتحذلقين من الكتاب

---

(١) الكافي ١: ٥٣٠ ـ ٥٣١ ، ح٦. الأصول الستة عشر: ١٥.

(٢) الكافي ١: ٥٣١ ، ح٧. بصائر الدرجات: ٣٤٠، ح٥.

الذين يحاولون إثارة الشكوك حول وجود هذه الحقيقة على مستوى مصادر أهل البيت عليهم السلام بدعوى أنَّ القضية لم تكن واضحة لدى جماعة أهل البيت عليهم السلام، لوجود رواية هنا أو هناك لدى هذا الصحابي من أصحاب أهل البيت أو من أتباعهم، تشير إلى عدم وضوح هذه القضية لديه.

إن عدم وضوح القضية لدى بعض الأصحاب ـ لو ثبت ـ فإنَّ ذلك قد يكون بسبب ظروف الكتمان والتقية التي كان يعيشها أهل البيت عليهم السلام وجماعتهم، وحينئذٍ يصبح من الطبيعي غموض مثل هذه القضية الخطيرة لدى بعض هؤلاء الأصحاب في فترة من الزمن، أو تظاهرهم بذلك، لهذا السبب أو لأي سبب آخر.

ثالثاً: الشبهة التي قد تثار حول الاستدلال بهذه الروايات

إن بعض المتكلمين يثير شبهة حول الاستدلال بهذه الروايات على إمامة أئمة أهل البيت عليهم السلام، باعتبار إنتهائها إليهم عليهم السلام، وهي تدل على إمامتهم، فلا يمكن الاستدلال بقول إنسان على إمامته وهو يدّعي لنفسه الإمامة، يعني: من غير طريقهم نحتاج إلى إثبات إمامتهم عليهم السلام حتى يمكن الأخذ منهم وتصديقهم بدعواهم ذات الطابع الغيبي كي لا نقع بمحذور الدور.

وهذا من قبيل قبول دعوى النبوة، فالنبي عندما يدعي النبوة لا يمكن تصديقه إلاّ من خلال دليل آخر خارج عن حدود النبي نفسه، وهو المعجزة، وبذلك يمكن تصديقه بدعوى النبوة، فالأئمة عليهم السلام هنا يدّعون لأنفسهم الإمامة، ويروون هذه الروايات، مع أنها ـ هذه الروايات ـ لم تكن دليلاً خارجا عن دعوى إمامتهم؛ ولذا نحتاج إلى إثبات إمامتهم بدليل آخر خارج هذه الدعوى، وإلاّ تكون هذه الدعوى من قبيل الدور.

ولكن هذه الشبهة إذا تمّ فحصها بصورة دقيقة لا نرى لها محتوىً علمي حقيقي، لأن تشبيه إثبات الإمامة بهذه الروايات بدعوى النبوة وقضية المعجزة تشبيه وقياس مع الفارق، وذلك لأن النبي يدعي الارتباط بعالم الغيب، وهو غير

عالم الشهادة، وطبيعة عالم الغيب يحتاج التصديق به إلى أمر غيبي، لأنّه قد يشتبه على المدعي، فقد يقال: لا يمكن قيام الحجة على هذا الجانب الغيبي إلاّ بالمعجزة.

على أنّ التصديق بالأنبياء ـ أيضاً ـ يمكن أن يتحقق في كثير من الأحيان من دون معجزة، فالمعجزة إنّما يلزم وجودها من أجل إقامة الحجة على الناس حتى لا يبقى مجال لأحد من الناس أن يدّعي عدم الإيمان بالله بسبب عدم وضوح الدليل والبرهان، وإلاّ فإنّ الكثير من الناس آمنوا برسول الله ﷺ وبالأنبياء السابقين قبل قيام المعجزة، لأنّه عندما يأتي شخص كرسول الله ﷺ ـ عُرف بالصدق والأمانة، وعاشره الناس طيلة أربعين عاماً ولم يجدوا في حياته أي نقطة ضعف، لا في حديثه، ولا في ما يذكره من حقائق ووقائع، ولا في أي جانب من سلوكه ـ ويخبر الناس بأمر ما، فإنّ الناس الذين لا يكون في قلوبهم مرض أو لا يتعرضون إلى عملية التضليل والتشكيك والإيهام من قبل الآخرين، يصدّقون هذا الإنسان ـ عادة ـ ويأخذون منه.

وقد كان رسول الله ﷺ يستدل بهذا المنطق على المشركين في بداية الأمر لإقناعهم بالرسالة قبل تمامية معجزة القرآن ووضوحها، فقد كان يقف ﷺ على جبل أبي قبيس ويخاطب المشركين في بداية إعلانه للرسالة الإسلامية ويقول لهم: لو أنّي أخبرتكم أنّ وراء هذا الجبل قافلة متوجهة إلى مكة، فهل كنتم تصدقوني بذلك وتخرجون لاستقبالها؟ فكانوا يجيبون: نعم، لأنّه لا يوجد لديهم أي احتمال في أن يكون إنساناً كاذباً أو مخادعاً مضللاً أو مشتبهاً، بل كانوا يعرفونه بالصدق والأمانة والذكاء وإلى غير ذلك من الخصوصيات التي يحصل من خلالها ـ عادة ـ اليقين بإخباره.

إذن، فالتصديق قد يحصل ـ أيضاً ـ من دون المعجزة، ولكن مع ذلك لو افترضنا أنّ دعوى الرسالة لا يمكن تصديقها إلاّ بالمعجزة، فإن قضية الرسالة الإلهية هي قضية (غيب) يخبرهم فيها النبي عن أمر غيبي مرتبط بنزول الوحي

الإلهي والملك عليه، ولأنَّ درجة الاشتباه في الأمور الغيبية عالية نسبياً، كما أنَّ درجة القبول بها واطئة وقليلة نسبياً، فيمكن افتراض حينئذٍ عدم التصديق بها، لاحتمال أن يكون الشخص صادقاً وأميناً في نفسه، لكن قد يتوهم الوحي ويتخيله أو يشتبه عليه، فيحتاج إلى دليل واضح يلغي كل هذه الاحتمالات.

أما قضية النص على إمامة الأئمة الاثني عشر فهي قضية مادية حسية ميدانها عالم الشهادة، فالإمامة وإن كانت غيبية كالنبوة من جهة، ولكن النص عليها من قبل الرسول ﷺ أمر حسي، وقد نصّ ﷺ في مناسبات عديدة وبوسائل مختلفة ـ كما تشير هذه الروايات ـ على إمامة هؤلاء الأئمة وذكرهم واحداً واحداً في هذه المناسبات، فلماذا لا نصدّق حديثهم عليهم السلام حينئذٍ عندما يخبرون عن هذه الحقيقة الحسية وقد اجمع المسلمون ـ بدون أي شك أو تردد ـ على وثاقتهم وصلاحهم ودينهم وهديهم؟!.

فمثلاً: عندما يذكر الإمام الحسن عليه السلام مثل هذه الحادثة التي شاهدها بعينه وهي قضية حسية، لماذا لا نصدقه عليه السلام فيها؟! مع أنَّ المسلمين جميعاً يجمعون على أنّه عليه السلام جامع لكل صفات الصدق والذكاء والخبرة، وغيرها من المواصفات التي يحتاجها الإنسان لحصول هذا النوع من اليقين والوثوق.

وسوف نتبين هذا الإجماع من المسلمين بشأن وجود صفات الكمال لدى أهل البيت عليهم السلام، عند ذكر الروايات الواردة من طرق الجمهور، بالنص على خلافة الاثني عشر، حيث نلاحظ هناك أنَّ بعض علماء الجمهور يتحير في تفسير هذه النصوص وتأويلها على مذهبهم، ويؤكد في الوقت نفسه وجود هذه المواصفات في أئمة أهل البيت عليهم السلام.

إذن، لا نحتاج في تصديق الأئمة الاثني عشر في هذه الأحاديث إلى الاعتقاد بإمامتهم، بل نحتاج إلى الاعتقاد بصلاحهم، بمعنى صدقهم ودقتهم بحيث لا يشتبه عليهم الحال، وحفظهم لما شاهدوه وسمعوه بحيث لا ينسونه أو يغفلون

عنه، ولا نحتاج إلى أن نعتقد بإمامة الأئمة قبل ذلك حتى يثبت لنا صحة هذه الأحاديث، إذ من الواضح أنَّ السلامة ـ بمعنى القدرة على الحفظ وعدم الاشتباه ـ ليس أمراً مرتبطاً بالإمامة، وهذا يعني: أنَّ كل إنسان يملك مثل هذه المواصفات يمكننا أن نصدقه بما يقول، ويحصل لنا اليقين بكلامه وإخباره من دون حاجة أن نعتقد بإمامة ذلك الإنسان.

فإذا ثبت تواتر هذه الروايات عن أهل البيت ﷺ ـ وقد ثبت ذلك ـ فيمكن أن تكون دليلاً كافياً على إثبات اختصاص الإمامة في أئمة أهل البيت ﷺ.

الدليل الثاني: روايات الجمهور

وردت عن طريق الجمهور مجموعة من الروايات بصيغ وطرق متعددة تنص على أنَّ الخلفاء أو الأمراء بعد رسول الله ﷺ هم اثنا عشر خليفة، أو اثنا عشر أميراً، حسب الاختلاف في التعبير، وتنتشر هذه الروايات في أكثر الكتب المعروفة لدى جمهور المسلمين، كصحيح البخاري، ومسلم، والترمذي، وكذلك في المجاميع المعروفة لدى المسلمين، ومن حيث العدد وتعدد طرقها يمكن أن يقال عنها بأنَّها متواترة، حيث إنَّ الطرق التي ذكرت لها حوالي ثلاثين طريقاً[1].

لذا لا يوجد في كتبهم ـ سواء كتب الحديث أم الكلام ـ التي تتناول هذه الروايات بالبحث والتمحيص والمتابعة أي شك في صدورها عن النبي ﷺ، ولا يثير أي واحد من علمائهم ذلك، فصدور هذه الروايات أمر مسلَّم به لدى (جمهور المسلمين)[2].

---

(١) يراجع في بيان طرق هذه الروايات: إثبات الهداة ١: ٦٧٨ ـ ٧٤٥، حيث روى طرقاً عديدة، يذكرها عن مؤلفي الشيعة والجمهور. وكتاب شرح إحقاق الحق١٣: ١ ـ ٤٢. وكتاب أهل البيت ﷺ في الكتاب والسنة: ٧٣ ـ ٧٦، وغيرها من الكتب التي تناولت هذا الموضوع.

(٢) وقد تناول أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ هذا الموضوع بالتحليل، ونعم ما أفاد فيه، في بحثه حول المهدي: ١٠٦حيث قال: «وليست الكثرة العددية للروايات هي الأساس

ويذلك يمكن الاستدلال بهذه النصوص على اختصاص الإمامة بالأئمة الإثني عشر عليهم السلام.

وجوه الاستدلال

ويمكن الاستدلال بهذه الروايات بعدة وجوه:

الوجه الأول: الانحصار في التطبيق

إنَّ عنوان (الاثني عشر خليفة) لا يمكن تطبيقه واقعياً إلاَّ على الأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام، إذ لا توجد هناك أي فرضية معقولة يمكن

الوحيد لقبولها، بل هناك إضافةً إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحتها، فالحديث النبوي الشريف عن الأئمة أو الخلفاء أو الأمراء بعده وأنّهم اثنا عشر إماماً أو خليفة أو أميراً ـ على اختلاف متن الحديث في طرقه المختلفة ـ قد أحصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت أكثر من مائتين وسبعين رواية مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسنة، بما في ذلك البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبي داود، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم على الصحيحين.

ويلاحظ هنا أنّ البخاري الذي نقل هذا الحديث كان معاصراً للإمام الجواد والإمامين الهادي والعسكري وفي ذلك مغزىً كبير، لأنّه يبرهن على أنّ هذا الحديث قد سجل عن النبي ﷺ قبل أن يتحقق مضمونه وتكتمل فكرة الأئمة الاثني عشر فعلاً، وهذا يعني أنّه لا يوجد أي مجال للشك في أن يكون نقل الحديث متأثراً بالواقع الإمامي الاثني عشري وانعكاساً له، لأنّ الأحاديث المزيفة التي تنسب إلى النبي ﷺ وهي انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنياً لا تسبق في ظهورها وتسجيلها في كتب الحديث ذلك الواقع الذي تشكل انعكاساً له، فما دمنا قد ملكنا الدليل المادي على أنّ الحديث المذكور سبق التسلسل التأريخي للأئمة الاثني عشر، وضبط في كتب الحديث قبل تكامل الواقع الإمامي الاثني عشري، أمكننا أن نتأكد من أنّ هذا الحديث ليس انعكاساً لواقع، وإنّما هو تعبير عن حقيقة ربانية نطق بها من لا ينطق عن هوى، فقال: «إنّ الخلفاء بعدي اثنا عشر». وجاء الواقع الإمامي الاثني عشري ابتداءً من الإمام علي وانتهاءً بالمهدي ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث النبوي الشريف». منه ﷺ.

انطباق هذا العنوان عليها، باستثناء فرضية: الأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام، الذين نعرفهم.

ملاحظات حول الانحصار في التطبيق

ومن أجل توضيح ذلك نشير إلى عدة ملاحظات لها دور مهم في فهم هذه الروايات:

الملاحظة الأولى: حاول علماء الجمهور ـ عند مواجهة هذه الروايات ـ تفسيرها بما ينسجم مع مذهبهم في (الإمامة)، ولكنّهم بقوا متحيرين في تفسيرها وتأويلها، حيث نجدهم يختلفون في تفسيرها بذكر الاحتمالات المتعددة، فيذكر أحدهم احتمالاً في تفسيرها، ويأتي عالم آخر فيفسرها بطريقة أُخرى، ولا يرى هذا الاحتمال أو ذلك متطابقاً بصورة دقيقة مع مدعاهم، وهو أمر يكشف عن عدم وجود تصور واضح لديهم عن مفهوم هذه الروايات مع قبولها المطلق من قبلهم، ولا عن المصداق الذي تنطبق عليه!!! بل إنَّ بعضهم ـ وهو من كبار العلماء ـ اعترف بالعجز المطلق عن تفسيرها، لأنّه رأى أنَّ جميع ما يذكر من احتمالات في تفسيرها غير منطقي، أولا ينسجم مع مباني عقائدهم[1].

ونلاحظ بهذا الصدد أنَّ بعض علماء الجمهور عندما حاول تفسير هذه الروايات اعترف بانطباقها على الأئمة الاثني عشر أنفسهم، إذا أُريد من الخلافة الإمامة بدون السلطة الخارجية[2].

---

(١) من هؤلاء العلماء ابن العربي المالكي المعروف قال: «ولم أعلم للحديث معنى»، عارض الأحوذي في شرح الترمذي ٩: ٦٩، وكذلك ابن الجوزي الذي قال: «قد أطلت البحث عن معنى هذا الحديث وتطلبت مظانه وسألت عنه فلم أقع على المقصود» فتح الباري١٣: ١٨٣.

(٢) كما نُقل ذلك عن الفضل بن روزبهان ـ العالم المعروف بتعصبه وهو من كبار المتكلمين من جمهور المسلمين ـ في إحدى تفسيراته لهذه الروايات، وإليك نصه: «وأما حمله ـ أي الحديث ـ على الأئمة الاثني عشر فإن أريد بالخلافة وراثة العلم

وهذا مما يثير الاستغراب من ناحية، ويؤكد حقيقة ما ذكرناه من ناحية أُخرى.

وخلاصة ما يذكرونه أربعة احتمالات، سأشير إليها في الملاحظة الثالثة، وسأضيف إليها احتمالات أُخرى ليتكامل البحث، ولكن مع كل ذلك لا نجد أمامنا إلا احتمالاً واحداً منها منطبقاً مع الواقع، وهو أن يكون المقصود منها هو الأئمة الاثنا عشر من أهل البيت عليهم السلام المعروفون في تاريخ المسلمين.

الملاحظة الثانية: تختلف هذه الروايات في نصوصها وصيغها، ولكن بأجمعها تتفق على نقطة مركزية واحدة، وهي: نقطة (الاثني عشر)، فإن هذا هو القاسم المشترك بين كل هذه الروايات على اختلاف صيغها، وأشير إلى بعض هذه الصيغ من أجل أن يكون لدينا إلمام بها:

أولا: رواية جابر بن سمرة، فقد أكثر أهل الحديث ذكرها، وأجمع علماء الجمهور على العمل بها، باستثناء الأحناف ـ أتباع أبي حنيفة ـ فإنَّهم لم يأخذوا بها، وإن كانوا قد تحيروا في تطبيقها، حيث تختص هذه الرواية من بين الروايات أنَّها تصف هؤلاء الخلفاء بأنَّهم من قريش. ولكن جاءت هذه الرواية بصيغ متعددة:

أ) قال جابر: «سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول بأنَّ الخلفاء ـ أو الأمراء ـ بعدي اثنا عشر، ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله تكلم بكلام لم أسمعه، وسألت أبي عنه فقال أبي: إنَّه قال: كلهم من قريش».

والمعرفة وإيضاح الحجة والقيام بإتمام منصب النبوة فلا مانع من الصحة؛ ويجوز هذا الحمل، بل يحسن، وإن أريد به الزعامة الكبرى والأيالة العظمى فهذا أمر لا يصح؛ لأنَّ من اثني عشر اثنين كانا صاحبي الزعامة الكبرى، وهما علي والحسن والباقون لم يتصدوا للزعامة الكبرى. ولو قال الخصم: إنَّهم كانوا خلفاء لكن منعهم الناس من حقهم. قلنا: سلّمت أنَّهم لم يكونوا خلفاء بالفعل؛ بل بالقوة والاستحقاق؛ وظاهر أن مراد الحديث أن يكونوا خلفاء قائمين بالزعامة والولاية؛ وإلاَّ فما الفائدة في خلافتهم في إقامة الدين» طرق حديث الأئمة الإثنا عشر: ١٥.

ويضفي هذا نوعاً من الغموض حول نص هذه الرواية، فإنّه يشهد بأنّ النبي ﷺ قال: «الخلفاء اثنا عشر»، ولكن قال كلاماً آخر لم يسمعه جابر بصورة مضبوطة، وينسبه إلى أبيه، وهو: «كلهم من قريش»، ولعل هذا هو السبب في عدم قبول أبي حنيفة واتباعه لهذا الشرط في الخليفة، وسوف نعالج هذا الموضوع لنرى الحقيقة.

ب) رواية أُخرى يرويها البخاري بصيغة (أمير)، لا بصيغة (خليفة) يقول ﷺ: «اثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنّه قال: كلهم من قريش»[1].

ج) ورواية أُخرى، جاءت بطريقة أُخرى، يقول ﷺ: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة»، فقال كلمة صمَّنيها الناس، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش»[2].

د) وكذلك رواية بصيغة أُخرى، عن جابر يقول: «دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول: إنَّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة، قال: ثم تكلم بكلام خفيّ عليَّ، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: كلهم من قريش»[3].

وهنا يضيف مسلم هذه الإضافة: «إنَّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة».

هـ) رواية أُخرى وبصيغة أُخرى: «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا

---

(١) صحيح البخاري ٨: ١٢٧، وفي نص آخر بعد كلمة «اثنا عشر»، يقول جابر بن سمرة: ثمَّ تكلّم بشيء لم أفهمه، فسألت الذي يليني فقال: قال: «كلّهم من قريش»، راجع سنن الترمذي ٣: ٣٤٠، ح٢٣٢٣، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح!!!، ومسند ابن حنبل ٥: ١٠٨.

(٢) صحيح مسلم ٦: ٤.

(٣) صحيح مسلم ٦: ٣.

عشر رجلاً، ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عليَّ، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال: كلهم من قريش»[١].

و) رواية يرويها عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: «كتبت إلى جابر بن سمرة مع غلامي نافع: أن أخبرني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فكتب إلي: سمعت رسول الله ﷺ يوم جمعة عشية رجم الأسلمي يقول: لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»[٢].

وهنا يدخل قضية «كلهم من قريش» بصورة مسلَّمة دون أن ينسبها إلى أبيه.

ثانياً: رواية عبد الله بن مسعود، وهي: عن مسروق: «كنّا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يُقرئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، هل سألتم رسول الله ﷺ: كم تملك هذه الأُمّة من خليفة؟ فقال عبد الله بن مسعود: ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثمَّ قال: نعم، ولقد سألنا رسول الله ﷺ فقال: اثنا عشر، كعدَّة نقباء بني إسرائيل»[٣] وامتياز هذه الرواية هو التشبيه بنقباء بني إسرائيل.

ثالثاً: وفي نصّ آخر: «لا تهلك هذه الأُمّة حتّى يكون فيها اثنا عشر خليفة، كلهم يعمل بالهدى ودين الحق»[٤].

وهنا يلاحظ إضافة «كلهم يعمل بالهدى ودين الحق»، ولعلها هي الكلمة التي يقول جابر بن سمرة بأنّي لم أسمعها، وأنَّ أبي سمعها وقال عنها: «كلهم من قريش».

---

(١) صحيح مسلم ٦: ٣.
(٢) صحيح مسلم ٦: ٤.
(٣) مسند ابن حنبل ١: ٣٩٨. المستدرك ٤: ٥٠١. ينابيع المودة ٣: ٢٩٠ ، ح٥.
(٤) فتح الباري ١٣: ١٨٤.

فالرواية قد تكون بهذه الصيغة «كلهم يعمل بالهدى ودين الحق»، لا «كلهم من قريش»، أو مع «كلهم من قريش»، وبذلك يكون رسول الله صلى الله عليه وآله قد بيّن سيرة هؤلاء الخلفاء وصفاتهم.

رابعاً: وفي رواية أُخرى يقول صلى الله عليه وآله: «يكون منّا اثنا عشر خليفة ينصرهم الله على من ناواهم ولا يضرّهم من عاداهم»[(١)].

خامساً: في رواية أُخرى في مسند الفردوس، عن شهردار بن شيرويه الديلمي، عن أبي سعيد الخدري قال: «صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله الصلاة الأولى، ثم أقبل بوجهه الكريم علينا ـ والظاهر من الصلاة الأولى صلاة الفجر ـ فقال: معاشر أصحابي إنَّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح وباب حطّة في بني إسرائيل، فتمسكوا بأهل بيتي والائمة الراشدين من ذريتي، فإنكم لن تضلوا أبداً.

فقيل: يا رسول، كم الأئمة بعدك؟ فقال: اثنا عشر من أهل بيتي، أو قال: من عترتي»[(٢)].

سادساً: وفي رواية أُخرى يسمي النبي صلى الله عليه وآله الخلفاء بأنّهم: عليٌّ، والحسن، والحسين، والتسعة من أولاد الحسين، ويذكر اثني عشر خليفة، ويسميّهم واحداً واحداً[(٣)].

---

(١) مناقب آل أبي طالب١: ٢٥٠، وفي رواية : «اثنا عشر قيماً من قريش لا يضرهم عداوة من عاداهم»، راجع مجمع الزوائد٥: ١٩١. المعجم الكبير٢: ٢٥٦.

(٢) كفاية الأثر: ٣٤. وذكر صاحب ينابيع المودة٣: ٢٥٤ ، ح٥٩ ـ وهو من علماء الحنفية ـ عن ابن عباس، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «أنا السماء، وأما البروج فالأئمة من أهل بيتي وعترتي، أولهم عليٌ وآخرهم المهدي، وهم اثنا عشر».

(٣) عن ابن عباس: «قدم يهودي على رسول الله صلى الله عليه وآله يقال له: نعثل، فقال له: يا محمّد، إني أسألك عن أشياء تلجلج في صدري ـ إلى أن قال ـ : فأخبرني عن وصيّك مَن هو؟ فما نبيّ إلاّ وله وصيٌ، وإنّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون، فقال: نعم، إنّ وصيّي والخليفة من بعدي عليّ بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن

سابعاً: وفي رواية أخرى كذلك عن جابر بن سمرة ـ أيضاً ـ قال: «كنت مع أبي عند النبي ﷺ فسمعته يقول: بعدي اثنا عشر خليفة. ثم أخفى صوته، فقلت لأبي: ما الذي أخفى صوته؟ قال: قال: كلّهم من بني هاشم»[١].

ونلاحظ أنّ هذه الروايات مختلفة في أمور عديدة، وحتى في النص الذي يروى عن جابر بن سمرة، ولكن الشيء الذي تجمع عليه هذه الروايات مع اختلافها في الخصوصيات التي أشرت إليها هو عنوان (اثنا عشر خليفة)، أو (أميراً).

الملاحظة الثالثة: ما المقصود واقعاً من الخلفاء الاثني عشر؟ وما هو المصداق الخارجي لهم؟

توجد عدّة تفاسير لذلك:

التفسير الأول: أنّ النبي ﷺ كان يقصد من الاثني عشر خليفة هم الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام المعروفون لدى الإمامية، وهذا التفسير هو الذي تتبناه الإمامية الاثنا عشرية ويعتقدون به، وهو تفسير معقول ينطبق على واقع محدّد وواضح ومعروف، وهؤلاء الأئمة موجودون في الخارج، ومعروفون ومعترف بهم كجماعة لها مواصفات خاصة وعالية وموضع احترام لدى المسلمين كما سأشير إلى

والحسين، وتتلوه تسعة من صلب الحسين عليه السلام، أئمة أبرار.

قال: يا محمّد، فسمّهم لي، قال: نعم إذا مضى الحسين فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه جعفر، فإذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فاذا مضى فابنه علي، فاذا مضى علي فابنه الحسن، فاذا مضى الحسن فبعده ابنه الحجة بن الحسن بن علي، فهذه اثنا عشر إماماً عدد نقباء بني إسرائيل، قال: فأين مكانهم في الجنّة؟ قال: معي في درجتي»، بحار الأنوار٣٦: ٢٨٤.

وهناك رواية عن جابر بن عبد الأنصاري عن رسول الله ﷺ يذكر: أن الأوصياء من بعده اثنا عشر، ثم يعددهم، راجع ينابيع المودة ٣: ٢٨٣، ح٢.

(١) ينابيع المودة ٣: ٢٩٠، ح٤.

ذلك.

ونحن نعتقد أنَّ التفسير الصحيح للروايات هو هذا التفسير، باعتبار انطباقه على الواقع الخارجي تماماً، وينسجم مع مجموعة من القرائن الأُخرى المؤكدة لهذه الحقيقة، مما ورد في أهل البيت وفي هؤلاء الأئمة وآبائهم عليهم السلام، من تعريف، وثناء، وحث على الحب والموالاة.

التفسير الثاني: إنَّ المقصود من الخلفاء الاثني عشر هم الخلفاء الذين حكموا في التأريخ الإسلامي، وكانت لهم الخلافة الخارجية الفعلية.

ولكن إذا نظرنا إلى واقع الذين حكموا بعد الرسول صلى الله عليه وآله نجد أنَّ عددهم أكثر من اثني عشر. وعندئذٍ، فإذا أردنا أن نأخذ في تفسير ذلك خصوص المعروفين بالخلفاء الراشدين فهم أقل من اثني عشر، وإذا أردنا أن نضيف إليهم الأمويين يكون عددهم أكثر من اثني عشر، وإذا أردنا أن نضيف إليهم العباسيين أيضاً يصبح العدد أكثر من ذلك بكثير، وإذا أردنا أن نضيف إليهم الخلفاء العثمانيين فيكون العدد أضعافاً مضاعفة من هذا العدد، وبذلك فلا يكون هذا التفسير متطابقاً مع عنوان (اثني عشر).

التفسير الثالث: أن يكون المقصود هم الخلفاء الذين حكموا بالفعل وكانت لهم الولاية الخارجية، بمعنى السلطة والقدرة، ولكن مع إضافة خصوصية وصفة لهم، وليس جميع من حكم وتسلط واستلم الأمر، وهي خصوصية الاستقامة ولو في الجملة، فقد يكون لأحدهم مشكلة في حكمه أو عمله، ولكن إذا كان بصورة عامة يمثل الحاكم الإسلامي الذي يصدق في نظر عموم الناس بأنَّه حاكم إسلامي، لأنَّه كان مستقيماً في سلوكه العام.

وعندئذٍ، يمكن تطبيق هذا العنوان ـ بنظر أصحاب هذا التفسير ـ على الخلفاء الراشدين، باعتبارهم كانوا يتمثلون بهذه الصفة، ويضاف إليهم الإمام الحسن عليه السلام، لأنَّه حكم بالفعل أيضاً، فيكونون خمسة، ثم يضاف إليهم معاوية،

بدعوى أنَّ الحكم في زمنه كان بصورة عامة ملتزم بالالتزامات الإسلامية العامة ـ وقد تم التسليم له بالخلافة من قبِل الإمام الحسن عليه السلام في الصلح المعروف ـ فيكونون بذلك ستة، ويضيف بعضهم إلى العدد يزيد بن معاوية!، باعتبار أنَّ الحكم كان بصورة عامة يلتزم بالضوابط العامة أيضاً، بادعاء بعضهم!!، ثم يضيف إليه عمر بن عبد العزيز ـ أيضاً ـ لوجود مواصفات الالتزام العامة به، ثم يأخذ أصحاب هذا التفسير بالتفتيش عن خلفاء من هذا القبيل، بحيث ينطبق عليهم في الجملة عنوان الحاكم الإسلامي للوصول بالعدد إلى اثني عشر.

وكل ذلك من أجل الخروج من هذه المخمصة ـ إذا صح التعبير ـ في تفسير هذه الروايات، بحيث ينطبق عنوان الاثني عشر على حقيقة خارجية، ولكنها انتقائية لا تضبطها ضابطة واضحة.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: إنَّ هؤلاء المفسرين تحدثوا عن عصرهم وذكروا اثني عشر خليفة بهذه المواصفات، فما هو الموقف من العصور الأُخرى التالية للخلافة الإسلامية؟ فإذا أردنا أن نطبق هذا العنوان على أولئك الذين حكموا على طول التأريخ الإسلامي في ثلاثة عشر قرناً من الزمن إلى آخر الخلافة العثمانية نجد أنَّ العدد الذي يتصف بمثل هذه المواصفات الانتقائية أكبر بكثير من العدد الذي ذكره هؤلاء، ولاسيما إذا توسعنا في هذا العنوان، وتنازلنا عن الالتزام بضرورة أن يكون خليفة رسول اله صلى الله عليه وآله واجداً لصفات الكمال الذي تؤهله لهذه الخلافة، وقلنا: بأنَّ هذا العنوان ينطبق على أولئك الذين كان يصدر منهم الظلم والجور والانحراف أمثال: معاوية ويزيد وغيرهما.

التفسير الرابع: أن يكون المقصود من الخلفاء الاثني عشر الخلفاء الذين حكموا في التأريخ الإسلامي، ولكن في المدة التي كانت القيم والمثل والتعاليم الإسلامية في قوتها وعزتها، حتى لو كان شخص الحاكم منحرفاً.

وهذا التفسير يحاول أن يستند إلى عبارة: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً»،

ويأخذ كلمة: «عزيزاً منيعاً» أساساً لتشخيص هذا العدد، فالحاكم والخليفة قد يكون منحرفاً وظالماً وفاسداً كيزيد بن معاوية، ولكن القيم والدين الإسلامي في ذلك الوقت كان عزيزاً منيعاً قوياً!!، فنأخذ عدد الخلفاء من حيث خصوصية عزة ومنعة وقوة الدين والاسلام.

وهذا التفسير لا ينطبق على الواقع أيضاً، لأنّه إذا أخذنا هذا الجانب وهذه الخصوصية في العدد، فلا شك أنّ هذه العزة والمنعة للدين ـ إذا أُريد منها العزّة الظاهرية ـ قد بقيت واستمرت إلى ما بعد انقضاء هذا العدد من الخلفاء، فمثلاً في عصر هارون الرشيد كان الدين في أعزّ وأمنع مراحله وعلو قدرته، حتى كان يعبّر عنه بالعصر الذهبي.

فإذا أردنا أن نحسب الخلفاء من أبي بكر وحتى هارون الرشيد نجد أنَّ العدد أكثر من اثني عشر خليفة، فلا ينطبق هذا التفسير مع الواقع[1].

التفسير الخامس: يفترض أنّ العزة ليست عزّة الدين، وإنّما عزّة القدرة والقوة والمنعة للدولة الإسلامية، وما كان يتمثل فيه الحكم الإسلامي من سلطة وهيمنة وإمكانيات كبيرة، وهذا التفسير لا ينطبق ـ أيضاً ـ على الواقع، لأن الحالة الإسلامية وإن كانت في طول التأريخ الإسلامي في مدٍّ وجزرٍ، من حيث القدرة والقوة والمنعة[2]، ولكن إذا أردنا أن نحصي الخلفاء في حالات المدّ لا في حالات

(١) من المحتمل قوياً أنّ جملة «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً»، قد أُضيفت إلى هذه الروايات؛ لإعطاء تفسير معين لها، إذ لم ترد هذه الجملة في صحيح البخاري، كما أنّ النصوص الأخرى التي تذكر كلمة «لا ينقضي» أو «لا يزال هذا الدين قائماً» أو التي تطلق عدد الخلفاء دون قيد، والتي رواها جميع المحدثين، تعارض هذا النص، وهي متقدمة عليها بالشهرة والأوثقية، وهذه الملاحظة تسقط جميع هذه التفاسير التي تعتمد على هذه الخصوصية. منه ﷺ.

(٢) حيث يلاحظ أنّه في زمان قد يكون المسلمون أقوياء، ثمّ تتدهور القوة الإسلامية لهم، كما في آخر الخلافة العباسية، أو في زمن المغول، ثمّ يتحول المغول بعد ذلك إلى مسلمين، فترتفع القدرة والقوة الإسلامية، ثمّ تدهورت هذه القوة عندما انقسم

الجزر، نجد أنَّ عددهم أكثر بكثير من اثني عشر خليفة.

التفسير السادس: محاولة تفسير هذا العدد بعزّة الرسالة الإسلامية من جهة قوتها كدين وفكر وثقافة، أي: الهيمنة المعنوية لها، مع قطع النظر عن قدرة الحكم أو قدرة الأُمة الإسلامية، بل قوة النظرية الإسلامية، حيث إنَّ عزّة الرسالة الإسلامية معنوياً قد تتفاوت وتختلف مع عزّتها المادية، فمثلاً إذا أردنا أن ننظر إليها من زاوية القدرة والسلطة قد نجد أن هناك تدهوراً في القدرة الإسلامية عند غزو المغول للعالم الإسلامي، بحيث تمكنوا أن يطيحوا بالدولة الإسلامية ويغزوها في عقر دارها، ويستولوا على عاصمتها بغداد، ولكن الدين الإسلامي الأصيل كفكر وثقافة وحضارة كان قوياً، بحيث تمكن في فترة قصيرة أن يحوّل المغول إلى مسلمين، إذ لم تكن هناك أي نظرية أُخرى مطروحة ذلك الوقت مقابل النظرية الإسلامية.

وهكذا الحال في قوة الصليبية المسيحية التي كانت تتغلب مادياً في بعض الأحيان على القوة الإسلامية، ولكن بقيت ضعيفة أمامها فكرياً وعقائدياً.

وهذا التفسير كسابقه إذا أردنا النظر إليه من هذه الزاوية، فإننا نجد بأنَّ عدد الخلفاء في هذه الفترة أكثر عدداً من الاثني عشر، فلا ينطبق هذا التفسير مع الواقع.

التفسير السابع: إنَّ المقصود من العزة هي عزّة الأُمّة الإسلامية كأُمّة، لا كنظرية ورسالة ودولة حاكمة، وإنَّما الأُمّة كجماعة في مقابل الأمم الأُخرى التي انقسمت على نفسها وتفككت وأصبحت جماعات وشيعاً، فإنَّها بذلك تختلف عن حالة الأُمة الإسلامية.

وهذا التفسير ليس أحسن حالاً من سوابقه، لأننا نجد أنَّ الأُمّة الإسلامية

المسلمون إلى ملوك وطوائف، وأصبحوا متوزعين في مختلف المناطق الإسلامية، ثمّ بعد ذلك رجعت الحالة للقوة الإسلامية في عهد الخلافة العثمانية في بعض أدوارها حتى تمكنت أن تنتشر في أوربا وتغزوها وتقع أكثر منطقة أوربا الشرقية تحت سيطرة الحكم الإسلامي. منه ﷺ.

كأمّة على أقل تقدير استمرت قوتها وعزتها إلى أواخر العهد العباسي قبل سيطرة المغول عليها وإضعافها وتمزيقها، ومن ثمّ فعدد الخلفاء يكون أكثر من اثني عشر.

فرقم (اثني عشر) لا يمكن أن ينطبق على أي واحد من هذه الاحتمالات التي ذكرها علماء الجمهور أو التي يمكن افتراضها بما أضفناه إليها من فروض.

ولذا لا نجد أي تفسير آخر يمكن أن ينطبق مع هذا العنوان غير الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

تنويه وإضاءة

ويؤكد هذا التفسير معالجة سؤال مهم حول هذه الروايات وهو: لماذا لم يسأل الأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عن تشخيص هؤلاء الخلفاء وصفاتهم وأسمائهم؟ حيث لا نجد ذلك في التراث السني الذي تناول عدد الخلفاء بصورة عامة بهذه الدرجة من الاهتمام والوضوح.

وتوجد عدة فروض واحتمالات لتفسير هذه الظاهرة:

الفرض الأول: إنَّ الأُمة لم تهتم بذلك بالرغم من اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بذكر هؤلاء الخلفاء.

ويؤيد هذا الاحتمال ـ عادة ـ هو حمل كلام النبي صلى الله عليه وآله على بيان الملاحم في حركة الأُمة الإسلامية.

أو بدعوى: أنَّ المستوى الثقافي العام للصحابة لم يكن يدعوهم لإثارة مثل هذه الأسئلة حول هذه التفاصيل.

ولكن هذا الاحتمال يبدو واهياً للغاية إذا أخذنا بنظر الاعتبار أهمية موضوع الخلافة والخلفاء الذي أثاره النبي صلى الله عليه وآله هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنَّ هذا الموضوع قد ذكره الرسول صلى الله عليه وآله على مرأى ومسمع من جمهور الصحابة، وليس في حديث خاص؛ ولذا تمكن أن يشق هذا الحديث طريقه عبر التأريخ الإسلامي بهذا

الوضوح.

فدعوى الإهمال واللامبالاة في الموقف العام للصحابة يؤدي إلى الإساءة البالغة لهذا المجتمع الرسالي الذي كان له فضل عظيم في بناء القواعد الإسلامية، وفيهم من أعاظم رجالات الإسلام.

الفرض الثاني: إنَّ المسلمين سألوا النبي ﷺ، ولكنَّه ﷺ لم يهتم ببيان ذلك لهم، أو أعرض عن ذلك عمداً.

وهذا الاحتمال كسابقه في الوهن، إذ إن الذي أثار الموضوع وذكر العدد ـ كما تنص هذه الروايات ـ هو الرسول ﷺ، وليس من المنطقي أن يذكر ذلك ثمَّ لا يهتم أو يعرض عن بيانه وتوضيحه.

الفرض الثالث: أن يكون الأصحاب قد سألوا النبي ﷺ عن ذلك، وهو ﷺ أجابهم عن ذلك أيضاً، ولكن هذه الحقيقة التأريخية ضاعت في طيات التأريخ الإسلامي الذي تعرض في بعض أدواره إلى عمليات (قمع) علمي وتاريخي، من خلال منع التدوين لحديث رسول الله ﷺ، وإحراق ما كُتب في هذا المجال وغيره، لإعفاء آثار مثل هذه الحقائق التي كانت تتنافى مع سياسات السلطة الحاكمة، ولاسيما في الصدر الأول الإسلامي، حيث كانت مثل هذه الحقائق تضر بشرعية هذه السلطة.

وهذا الاحتمال وإن كان معقولاً، ويؤيد حقيقة أن يكون المراد من الخلفاء الاثني عشر هم أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهو احتمال لا زال يطرحه كثير من علماء أتباع أهل البيت عليهم السلام، ويثيره ـ أحياناً ـ بعض المنصفين من علماء الجمهور، وهو يصدق بصورة واضحة على بعض الحقائق التي تحدث بها رسول الله ﷺ بصورة واضحة.

ولكن يمكن أن يقال في مقام رده ونفيه: إنَّ النبي ﷺ لو كان قد ذكر ذلك بصورة واسعة وواضحة، فمن البعيد جداً أن لا يصل لنا ذلك عن طريق أهل البيت عليهم السلام.

ولم تصلنا مثل هذه الحادثة التي تمَّ فيها هذا الإعلان عن أسماء الأئمة، أو

تشخيصهم بصورة واضحة كما حدث ذلك بالنسبة إلى حادثة غدير خم التي حاول التأريخ أن يخفيها، ولكن الإمام علي عليه السلام في خلافته تصدى لها بصورة واضحة، ليثبتها في التأريخ الإسلامي، كما تصدى غيره لإثباتها.

الفرض الرابع: إنَّ النبي صلى الله عليه وآله قد اهتم بهذا الأمر، وكذلك المسلمون، ولكنَّه صلى الله عليه وآله في بيانه لهذا العدد كان يتبع سياسة عامة، وهي الإثارة والإشارة إلى أهل البيت عليهم السلام في الإمامة، وكان يتدرج في ذلك كلما سنحت له الفرصة، حيث كان يلاحظ الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تمر بها الرسالة الإسلامية، فإنَّ طرح مثل هذا الموضوع بوضوح والتأكيد له يثير مشكلات وأزمات في الوضع السياسي، بسبب وجود المطامع في السلطة، بعد انتصارات الإسلام ومحاولة إثارة العداوات والأحقاد للوصول إلى الأهداف الخاصة، مما جعله صلى الله عليه وآله يتحفظ في هذا الطرح، كما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] مما يعبر عن وجود هذه الخشية حتى حُسمَ الموضوع في آخر حياته صلى الله عليه وآله، فكانت حادثة الغدير.

ولكن النبي صلى الله عليه وآله لم يقتصر على ذلك، بل قام ببيان هذه الحقيقة في الأوساط والمناسبات الخاصة، لإبقائها ثابتة في أعماق التأريخ وأدواره.

ولا شك أنَّ الكثير من الحقائق قد تعرضت إلى القمع والتحريف، ولكن بقيت هذه الحقيقة ثابتة وساطعة من خلال هذا العمل المخطط لرسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان يراعي فيه إبلاغ الرسالة من ناحية، والمصالح الإسلامية العليا من ناحية ثانية، وظروف الرسالة وتطوراتها من ناحية ثالثة. والله أعلم بالمصالح.

الوجه الثاني: الموقف العام تجاه الأئمة عليهم السلام

إنَّ واقع الموقف الإسلامي العام تجاه أئمة أهل البيت عليهم السلام يشهد بحقيقة

(١) المائدة: ٦٧.

انطباق هذا العنوان عليهم، فإنّه بالرغم من اختلاف المسلمين الواسع والكثير في مختلف القضايا ـ سواء القضايا الفقهية أم العقائدية أم الاجتماعية ومواقفهم المختلفة الأُخرى ـ لكن نجد هناك إجماعاً من جميع المسلمين ـ لا نجده في أيٍّ مفردة أُخرى ـ على احترام الأئمة الاثني عشر عليهم السلام، الأمر الذي يؤكد فهم أنَّ المقصود من الخلفاء الاثني عشر هم هؤلاء الأئمة، فإن هذا الواقع الإسلامي نعتقد أنَّ أحد أسبابه هو هذا الفهم للروايات على مستوى الأُمّة.

فنحن نلاحظ أنَّ المسلمين قد يحترم بعضهم هذا الخليفة أو ذاك، ولكن الإجماع على احترام وتقدير الاثني عشر من الأئمة بالتحديد وبصورة واسعة ومسلّمة بين المسلمين له دلالة خاصة، وإن كانت درجة هذا الاحترام متفاوته، ولكن حالة الاحترام لدى المسلمين تجاه أئمة أهل البيت عليهم السلام لا نجد لها نظيراً في أيّ مفردة أُخرى من مفردات الحالة الإسلامية.

وهذا الوجه من الاستدلال يصلح على تأكيد فكرة الاختصاص، مع قطع النظر عن هذه الروايات، إذ يدل على أنَّ الأئمة الاثني عشر هم الأفضل من بين جميع من ادعى الخلافة بين المسلمين، لوجود هذا الإجماع والتسالم.

الوجه الثالث: تطور مسيرة التشيع

إنَّ مراجعة الخط البياني لمسيرة التشيع لأهل البيت عليهم السلام، سواء على مستوى الإيمان بأئمة أهل البيت عليهم السلام، أم على المستوى العلمي والعملي للمسيرة، نرى حالة التطور الملحوظ فيها، وهذه الحالة تتطابق مع السنن الإلهية التي أشار إليها القرآن الكريم من بقاء الحق وثباته، وكذلك وراثته للأرض، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[2]، حيث نلاحظ أنَّ قضية القبول الإيماني بإمامتهم كانت في بدايتها محدودة ثمّ تطورت باستمرار

(١) الإسراء: ٨١
(٢) الأنبياء: ١٠٥.

منذ بدايتها وحتى يومنا الحاضر، كما أنّها حالة تتصاعد في خطها البياني، ولم تشهد في أي وقت من الأوقات حالة التراجع والتنازل.

فقد بدأت مسيرة التشيع والإيمان بأئمة أهل البيت عليهم السلام أيام رسول الله صلى الله عليه وآله بعدد محدود ـ كما تشير إلى ذلك بعض الروايات ـ ثم بدت حالة واضحة بصورة كاملة في زمن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، حيث أصبحت أسماء الأئمة في زمانهما متداولة، وبعدها صارت ـ أيضاً ـ أكثر وضوحاً ونموّاً في الغيبة الصغرى، ثمَّ بعد الغيبة الكبرى بقيت هذه الحالة تنمو وتتكامل حتى وصلت إلى هذا المستوى العالي والحجم الكبير الذي نراه اليوم وسوف تبقى إلى آخر الأيام بالرغم من كل محاولات القمع والمطاردة والتشريد والاستضعاف السياسي.

وعند قياس هذه الحالة في عمود التأريخ نرى أنّها كانت دائماً في مسيرة وخط بياني متصاعد من حيث الحجم والمضمون معاً، ومن حيث العدد والمستوى العلمي والممارسة العلمية والجهادية والأدوار الاجتماعية والسياسية.

وهذا الأمر يؤكد التفسير للروايات الشريفة بما ينسجم مع حركة الحق المتنامية التي يفترض فيها النمو والتكامل، فهي حالة شبيهة بحالة التوحيد لله تعالى، فإنَّه بدأ حالة صغيرة ومحدودة في أدوار بعض الأنبياء، ثمَّ أخذت حالة الاستقرار منذ زمن إبراهيم عليه السلام، وكانت حالة خاصة بشخصه عليه السلام، ثمَّ بدأت تتكامل بعد ذلك، وعندما ننظر إليها في عمود الزمان منذ إبراهيم عليه السلام وحتى يومنا الحاضر، نرى انها حالة متصاعدة دائماً وما ذلك إلاّ لأنها حالة (حق).

ولذا لابد من أخذ هذا الجانب في قضية الإيمان بالأئمة الاثني عشر بنظر الاعتبار.

ولا يوجد تفسير منطقي لهذه الظاهرة إلاّ هذا التفسير التأريخي الغيبي، بعد فقدان التفسير المادي لها وهو القدرة والسلطة، حيث كان هذا النمو مقروناً بالآلام والمحن والاستضعاف والمطاردة والقمع والتشريد.

وهذا الوجه من الاستدلال يصلح أن يكون دليلاً مستقلاً ـ أيضاً ـ مع قطع

النظر عن الروايات.

الوجه الرابع: الثناء على أهل البيت عليهم السلام

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله ـ مما يعترف به جميع المسلمين ويقبلون به دون تردد ـ المدح والثناء على أئمة أهل البيت عليهم السلام، سواء في الحث على حبّهم والتمسك بعروتهم، أم أتباع طريقتهم، أم النهي عن بغضهم وعداوتهم والانفصال عنهم، ولاسيما فيما ورد عنه صلى الله عليه وآله من تأكيد إمامة آخرهم وهو الإمام المنتظر (عج) مما يجمع عليه ـ أيضاً ـ جميع المسلمين.

وهذه الخصوصية يمكن الاستدلال بها على هذه الحقيقة في فهم الروايات، أو بصورة مستقلة، فإنَّ جميع المسلمين يؤمنون بأنَّ الإمام المنتظر هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله.

إذن، لابد أن نأخذ في هؤلاء (الاثني عشر)، أنَّ واحداً منهم هو الإمام المنتظر عجل الله فرجه.

فتطبيق روايات الخلفاء الاثني عشر على الأئمة الاثني عشر عليهم السلام ينسجم مع الروايات التي جاءت في حق أهل البيت عليهم السلام والإمام المنتظر، ولا يوجد لدى جميع المسلمين في جماعة من الناس هذا القدر من المدح والثناء والذكرلهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله، كما ورد بالنسبة إلى أهل البيت عليهم السلام، ولذلك نجد الانسجام الكامل بين الروايات الواردة في أهل البيت عليهم السلام وروايات الخلفاء الاثني عشر عندما نفسرها بأهل البيت عليهم السلام.

وأما على فرضية أن يكون خلفاؤه غير أهل البيت عليهم السلام، فيفترض حينئذٍ أن يذكر الرسول صلى الله عليه وآله هذه الحقيقة ويبينّها في روايات أُخرى تشير إليها وتوضح هذا الجانب منها.

وهذا مما لا نجده إلاّ في الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

الوجه الخامس: عنوان قريش

تذكر بعض هذه الروايات أنَّ هؤلاء الخلفاء من قريش، وعنوان قريش وإن كان ينطبق على أئمة أهل البيت عليهم السلام لأنَّهم من بني هاشم، وهم سادات قريش، إلاَّ أنَّنا نستبعد جداً أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله قد ذكر قريش في هذه الروايات، وإنَّما هو أمر أُضيف إليها أو كان تحريفاً لكلمة أُخرى.

والقرينة على ذلك هو أنَّه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وآله شيء مهم في مدح قريش إلاَّ بعض الروايات التي تنهى عن ذمهم أو معاداتهم، وهذه الروايات لا تدل على مدح قريش بقدر ما تدل على محاولة معالجة مشكلة واجهها الرسول صلى الله عليه وآله بشأنهم، وهي: أنَّ عموم قريش كان موقفها العام منه صلى الله عليه وآله هو العداء والعدوان، وقد بذلوا بصورة عامة كل الجهود لمقاومة دعوته، سواء في الدور المكي، أم المدني، أم في دور ما بعد وفاته[1] صلى الله عليه وآله.

فهم الذين كذبوه وحاصروه وطاردوه في مكة، ثمَّ قاتلوه في المدينة، وبقي موقفهم سلبياً تجاهه صلى الله عليه وآله وتجاه أهل بيته عليهم السلام من بعده صلى الله عليه وآله، كما يشير إلى ذلك الإمام علي عليه السلام في بعض خطبه، عندما يتحدث عن الموقف العام لقريش ويهتف: «مالي ولقريش»[2].

وهذا الأمر كان يؤدي ببعض الناس عموماً والمسلمين خصوصاً أن يذكروا قريشاً بالذّم، لأنَّ الناس عندما يرون حالة عامة في جماعة ما يطلقون الأحكام ـ

(١) وهذه الحالة من أشد الامتحانات والابتلاءات التي ابتلي بها رسول الله صلى الله عليه وآله وابتلي بها الكثير من الأنبياء عليهم السلام قبله صلى الله عليه وآله ، وهي أن يقف القريبون من الرسول موقف العداء بصورة عامة. منه قدس سره.

(٢) فقد جاء في خطبته عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة: «مالي ولقريش! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأُقاتلنهم مفتونين، وإني لصاحبهم بالأمس، كما أنا صاحبهم اليوم! والله ما تنقم منَّا قريش إلاَّ أنَّ الله اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيِّزنا. .. » نهج البلاغة ١ : ٨١ ، خطبة ٣٣.

عامة ـ على تلك الجماعة ولا يستثون منها أحداً، وهي قضية موجودة كحالة اجتماعية عامة.

وقد حاول النبي ﷺ في هذه الروايات أن ينهى الناس عن ذم قريش عموماً، لأنَّ فيهم مجاهدين، وفيهم أصحاب صادقون في إيمانهم وارتباطهم بالرسالة الإسلامية، وفيهم من ضحّى في سبيل الرسالة المحمدية، وفيهم بنو هاشم الذين هم قريبون من رسول الله ﷺ وقدّموا التضحيات الكبيرة، فالقضية لم تكن بهذه الصورة التي يتصورها الناس في إطلاق الذم العام على قريش.

ولو كان يرى الرسول ﷺ أنَّ خصوصية قريش هي الخصوصية المركزية في هؤلاء، لكان من المفروض أن يصدر عنه عدد معتّد به من الروايات يثني فيها على قريش وموقعها، كما كان عليه أن يوضح هذه الحقيقة، مع أنّنا لا نشاهد ذلك حتى في روايات الجمهور.

الخلاصة

عندما لا نرى أمامنا أي تفسير منطقي لعنوان اثني عشر ينطبق على الواقع الخارجي غير الأئمة الاثني عشر عليهم السلام من ناحية، ونجد أمامنا هذه القرائن والشواهد التي تؤكد أنَّ المقصود من ذلك هو الأئمة الاثني عشر عليهم السلام، كل ذلك يمكن أن يكون بمجموعه دليلاً على أنَّ المقصود من هذه الروايات التي أجمع على صدورها المسلمون هم الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام.

الدليل الثالث: احترام المسلمين لأهل البيت عليهم السلام[1]

نلاحظ أنّ هناك إجماعاً في التأريخ الإسلامي من قبل جميع المسلمين،

(١) لقد تقدمت الإشارة إلى هذا الدليل والدليل الرابع ـ الذي سوف يأتي ـ في وجوه الاستدلال بالدليل الثاني السابق (الوجه الثاني والثالث)، ونذكرهما هنا بشيء من التوضيح، وإن كان تكراراً لأصل الوجهين، حيث ذكرنا أنّه يمكن الاستدلال بهما بصورة مستقلة. منه قدس سره.

بمختلف مذاهبهم واتجاهاتهم الفكرية والفقهية والجغرافية، على احترام الأئمة الاثني عشر عليهم السلام وتقديسهم، وإن كانوا يختلفون في درجة هذا الاحترام أو في خلفيته.

فشيعة الأئمة الاثني عشر يحترمونهم انطلاقاً من الاعتقاد بإمامتهم، كما أنَّهم يرتفعون بهم إلى درجة عالية من الفضل، ويرون أنَّهم أفضل البشر والمخلوقات بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي هذه الخصوصية قد يختلفون فيهم عن سائر المسلمين، لأنَّ بقية المسلمين لا يقدسونهم بهذه الدرجة والخلفية، ولكنَّهم يحترمونهم بدرجة كبيرة أيضاً، وهذا الإجماع لا نراه لأي جماعة من المسلمين في كل التأريخ الإسلامي.

ولتوضيح أهمية هذا الإجماع ودليليته لابد من دراسة خلفيته.

فقد يقال: إنَّ خلفية هذا الإجماع هو: أنَّ هؤلاء هم أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو نبي المسلمين، وأفضل الخلق عند الله تعالى وعند الناس، والناس بطبيعتهم يعظمون أبناء العظماء الذين يقدسونهم، فمثلاً المسيحيون لا يزالون يعظمون (الصليب)، لأنَّه رمز للخشبة التي صلب عليها المسيح في نظرهم، فهم يعظمون الصليب لانتمائه لعيسى عليه السلام، وكذا الحال بالنسبة لأئمة أهل البيت عليهم السلام فالمسلمون يعظمونهم ويحترمونهم لانتسابهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقربهم منه صلى الله عليه وآله.

نعم، مما لاشك فيه أنَّ الكثير من المسلمين كانوا يعظمون أهل البيت عليهم السلام لانتمائهم للرسول صلى الله عليه وآله، بدافع حبهم له صلى الله عليه وآله، ولكن هذا الإجماع الإسلامي منهم على احترام هذه الثلة لم يكن بسبب هذه الخصوصية والعلاقة؛ بدليل أنَّ الكثير من المسلمين الذين يعظمون ويحترمون أئمة أهل البيت عليهم السلام انتهى بهم الأمر وبأتباعهم السياسيين إلى قتل هؤلاء الأئمة، ومطاردة أبنائهم وشيعتهم في مختلف الأدوار، بل وصل الأمر ببعض هؤلاء المسلمين إلى درجة يرون أنَّ سبَّ علي عليه السلام على المنابر أمراً واجباً ولازماً وضرورياً، ومن الشعارات التي اتخذوها لدولتهم.

فقد تبنت الدولة الأموية سبَّ علي عليه السلام ـ الذي هو رمز الأئمة عليهم السلام وأبوهم وأطهرهم وأفضلهم ـ على منابر المسلمين رسمياً، وعلى لسان كل إمام جمعة في كل العالَم الإسلامي لعشرات السنين.

وهكذا عندما ننظر إلى قضية الإمام الحسين عليه السلام، التي هي أشدّ من سبّ الإمام علي عليه السلام في بعض أبعادها، وقد تكون أقل منها في بُعد آخر(١). فما جرى على الإمام الحسين عليه السلام أمراً مهولاً جداً، حيث إنه يقتل عليه السلام مع أهل بيته وأصحابه، ثمّ تسبى عيالات رسول الله صلى الله عليه وآله أمام مشهد عام من المسلمين، ولم تكن قضية سرّية جرت في ظلمات السجون، أو في زاوية من زوايا التأريخ، وإنّما في قلب العالم الإسلامي ذلك الوقت(٢).

وهكذا في الدور العباسي، فقد تعرّض أهل البيت عليهم السلام عموماً، والأئمة عليهم السلام بالخصوص إلى المطاردة والقتل، ومنها الجعجعة بالإمام الصادق عليه السلام، التي أقل ما يقال فيها: إنّها كانت تهديداً بالسجن والقتل وانتهاكاً لحُرمات رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، أو السجن والتعذيب للإمام الكاظم عليه السلام، وبعد ذلك ما جرى على الأئمة عليهم السلام من قتل وسمّ وغير ذلك، كما جرى للإمام الرضا والإمام الجواد عليهما السلام.

فلو كانت العلاقة برسول الله هي سبب هذا الاحترام لم يتعرض الأئمة عليهم السلام لمثل هذه المصائب من قبل هؤلاء المسلمين.

إذن، فهذا الإجماع لم يكن مجرد حبّ ناشئ من الانتماء لرسول الله صلى الله عليه وآله، بل لا يمكن أن يُفسّر مع هذه الصورة والظروف إلاّ على أساس آخر، وهو أنَّ أئمة أهل

---

(١) فقضية الإمام الحسين عليه السلام كانت قضية محدودة من حيث الوقت، وتمّ التراجع عنها بسرعة، أما قضية الإمام علي عليه السلام فقد كانت قضية رسمية ومفروضة على جميع العالم الإسلامي، وبقيت حالة ثابتة ومؤكدة ولها مداليل معنوية أخرى. منه قدس سره.

(٢) فإنّ الكوفة ودمشق كانتا تمثلان قلب العالَم الإسلامي، وقد جرت هذه القضية في هذين البلدين.

البيت عليهم السلام من خلال شخصيتهم وسلوكهم وعملهم وإنجازاتهم ومواقفهم فرضوا حقيقة أنّهم أفضل الناس جميعاً في نظر المسلمين، بالرغم من وجود عدد كبير ممن نصبوا العداء لهم، وتآمروا عليهم، ووضعوا الخطط للتشهير بهم من قريش وغيرهم، فمعاوية وضع مخططاً معروفاً للتشهير بالإمام علي عليه السلام، والتشهير والتسقيط بالإمام الحسن عليه السلام بصورة خاصة، كي لا يفسح له المجال أن يكون الخليفة من بعده بعد الهدنة، وحين عجز عن تحقيق هدفه قتل الإمام الحسن عليه السلام من خلال دس السم له.

ولكن مع كل ذلك تمكّن الأئمة عليهم السلام من كسب هذا الإجماع المطلق لدى المسلمين بكل مذاهبهم واتجاهاتهم الفكرية والسياسية، مما يعني أنَّ هناك خصوصية فيهم عليهم السلام دون غيرهم، تمكنوا من خلالها أن يحققوا هذا الإجماع، بالرغم من الظروف العسيرة التي لم يواجهها أي أحد من المسلمين.

وهذا يدل على اختصاص الإمامة بهم دون غيرهم، بعد التسليم بضرورتها.

الدليل الرابع: تطور الشيعة والتشيع

إن هذا الدليل ـ الذي قد يكون من الأدلة الغريبة[1] ـ يقوم على ملاحظة تطور حال شيعة أهل البيت عليهم السلام مع قطع النظر عن مسيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام.

إنَّ مسيرة التشيع لأهل البيت عليهم السلام كانت تتصف بخصوصيتين رئيسيتين، وعند الجمع بينهما يمكن الوصول إلى استنتاج أن الإمامة مختصة بالأئمة الإثني عشر عليهم السلام، والخصوصيتان، هما:

الخصوصية الأولى: إنَّ هذه المسيرة بدأت منذ زمن رسول الله صلى الله عليه وآله نطفة

(١) فكما استدللنا على إمامة أهل البيت عليهم السلام بصورة عامة بالروايات التي وردت في شيعتهم، وكان ذلك من الأدلة الغريبة التي لم أرها في مقام الاستدلال، فهنا نستدل ـ أيضاً ـ على اختصاص الإمامة بالأئمة الاثني عشر عليهم السلام بالالتفات إلى مسيرة شيعة أهل البيت. منه قدس سره.

وبذرة، (نطفة) في طهرها وصِغر حجمها، و (بذرة) في نموها وتكاملها، ثمَّ أخذت هذه النطفة تنمو حتى أصبحت أُمّة صالحة من الناس، تتحمل مسؤولية الأنبياء والأئمة، وأخذت هذه البذرة، تتحول تدريجياً إلى شجرة طيبة: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾.

إن هذا التطور قضية مهمة جداً لابد من النظر إليها من خلال تطابقها مع سنن التأريخ التي تحدث عنها القرآن الكريم، سنن ثبات الحق وبقائه وتكامله، وزهوق الباطل وانتهائه: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1]، فالبذرة التي تحولت إلى الشجرة الطيبة، وصمدت في وجه الضغوط والمؤثرات والمؤامرات، وحققت إنجازات عظيمة جداً في تاريخ العالَم الإسلامي.

دور الشيعة في التأريخ الإسلامي

ويمكن أن أُشير ـ بصورة سريعة ـ إلى بعض عناوينها ـ وإنَّ كان كل واحد منها يحتاج إلى بحث كامل ـ بحيث يمكن أن نفهم ـ ما عبرت عنه ـ بأنَّها مصداق لقوله تعالى: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ عندما نلاحظ:

أولاً: الدور العظيم جداً لهذا المسيرة في تحقيق وحدة الأُمّة الإسلامية، والفضل كل الفضل ـ بعد الله تعالى ورسوله ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام ـ إنَّما هو لمسيرة الشيعة في حفظ وحدة الأُمّة، فلولا التشيع والالتزام بخط أهل البيت عليهم السلام ومذهبهم، لوجدنا الأُمّة الإسلامية منقسمة إلى أُمم وجماعات لا يجمعها شيء، وأصبحت الحقائق القائمة الآن في وحدة الأُمة الإسلامية من جهة عقيدتها وهمومها وتوجهاتها أثراً بعد عين، بسبب الظلم والجور والتشريد والافتراء، وقد

---

(١) الإسراء: ٨١

كان للتشيع دور عظيم في المحافظة على هذه الوحدة، اقتداء بأهل البيت عليهم السلام وخطهم، وصبراً على المحن والآلام، وتفضيلاً للمصلحة الإسلامية العليا على المصالح الخاصة[1].

ثانياً: المحافظة على القرآن الكريم والسنة النبوية، وبقاء باب البحث والعلم الذي نعبّر عنه بخط الاجتهاد مفتوحاً، ونعني بذلك البحث العلمي المضبوط بالقواعد والأصول، والذي يكون قادراً على مواجهة التحديات والتطورات التي يشهدها المجتمع الإنساني وتطوراته، ومعالجتها بالحلول الإسلامية الأصيلة.

لقد كان لشيعة أهل البيت عليهم السلام الفضل بعد الأئمة عليهم السلام في إبقاء هذا الخط مفتوحاً، وإلاّ لإنغلق هذا الخط ـ كما هو معروف ـ حيث كان هناك إجماع لدى مذاهب المسلمين في بعض الأدوار على غلق باب الاجتهاد[2]، ولكن الشيعة بقوا مصرّين على هذا المنهج من البحث، وتحملوا في سبيله الكثير من الأذى، حتى أصبح في هذا العصر المنهج العام المعترف به في الأوساط الإسلامية العامة.

فالشيخ الطوسي قدس سره الذي تميز في مرجعيته بالإنفتاح على مختلف مذاهب المسلمين، ويمكن أن نقول عنه: إنَّه كان ممن تكامل على يده الكتابة في بحوث (الخلاف)، وكان كتابه (الخلاف) من أكبر وأقدم الموسوعات الفقهية التي تناولت المذاهب الإسلامية، وهكذا حاله في علم الكلام والتفسير، فإنَّه أول من ألَّف في التفسير المقارن فكان تفسيره (التبيان)، ومنه أخذ هذا المنهج الشيخ الطبرسي صاحب تفسير مجمع البيان، إلى غير ذلك من الفتوحات التي حققها الشيخ الطوسي قدس سره في هذا المجال، وبالرغم من ذلك كله كان قد تعرض إلى الأذى

(١) راجع كتاب الوحدة الاسلامية من منظور الثقلين لشهيد المحراب: ١٢٥.

(٢) لقد حاول المعتزلة أن يأسسوا لهذا الخط العلمي في مجال علم الكلام في بعض الأدوار، ولكنّهم انقرضوا ولم يتمكنوا أن يصمدوا أمام عمليات القمع والمطاردة، كما أنّ منهجهم محدود ولا يتسم بالشمول لجميع المجالات الإسلامية. منه قدس سره.

والمطاردة الطائفية.

وكان قبله العلامة الكبير ابن الجنيد البغدادي ﵁ الذي ألّف في الفقه واستدل فيه بالأدلة المتبعة لدى مختلف المذاهب الإسلامية، وكان يفتي لجميع المسلمين وللدولة الإسلامية أيضاً، وتعرض إلى القذف والهجوم عليه من متعصبي بعض المذاهب الإسلامية.

إذن، ففتح باب الاجتهاد والاستمرار فيه كان بسبب عمل وصمود هؤلاء، حتى أصبح هذا الأمر الآن من الأمور المسلّمة عند المسلمين.

ثالثاً: المحافظة على وجود الأُمّة الإسلامية، فقد تعرضت الأُمّة الإسلامية في عهد المغول إلى ضربة قوية كادت أن تطيح بوجودها، لأنَّ المغول كانوا يمثلون قوَّة قاهرة ومدمرة من حيث التنظيم العسكري والعدد والوحشية، كما أنَّهم كانوا يمثلون الوثنية والهمجية والتخلف الحضاري، وتمكنوا اجتياح العالم الإسلامي بقوة هائلة ومدمرة، وتمكنوا من جميع المناطق المهمة في العالم الإسلامي، مثل: آسيا الوسطى، وإيران، والعراق، وسورية، هذه المناطق التي كانت تمثل حواضر العالم الإسلامي آنذاك، وقد دمّروا المناطق التي استولوا عليها تدميراً كاملاً، فكانوا يقتلون العلماء ويحرقون الكتب والتراث الإسلامي، ويدمرون الأبنية والمدارس والمعاهد... إلخ، وكان اندفاعهم قوياً وعنيفاً، وكان يمكن أن ينهوا وجود الأُمّة الإسلامية ـ وليس الدولة الإسلامية فقط ـ من خلال القتل العام والتدمير للتراث والمعاهد، وتفكيك البنية الاجتماعية.

وهنا نلاحظ ـ من خلال التحقيق العلمي للبحث التأريخي ـ كان للشيخ خواجه نصير الدين الطوسي ﵁ الدور العظيم في المحافظة على وجود الأُمّة

الإسلامية وتراثها[١]، فقد وقع هذا العالم الرباني ـ الذي كان مختصاً بعلم الهيئة والفلك ـ أسيراً بيد المغول الذين قتلوا جميع العلماء المأسورين باستثنائه، لأنّهم كانوا يطمعون في أن يقدم لهم خدمة علمية فيما يتعلق بقضايا علم الهيئة والنجوم والفلك، وقد تمكن هذا الأسير أن يحافظ على البقية الباقية من العلماء على اختلاف مذاهبهم، كما يعترفون بذلك، وأن يحافظ على التراث تحت هذا الغطاء، ثمّ يحولهم بعد ذلك إلى مسلمين، بل يصبحون سلاطين للمسلمين، ويرفعون راية الإسلام، ويدافعون عنها، وتمكنوا أن يحولوا بعد ذلك المنقطة الشرقية للعالم الإسلامي ـ من مناطق آسيا الوسطى الآن ـ إلى منطقة إسلامية عظيمة جداً، كل ذلك بسبب الدور والموقف الذي وقفه الشيخ خواجه نصير الدين الطوس رحمه الله هذا من الإنجازات العظيمة التي تستحق الحديث الكثير والواسع عنها.

وكذلك إذا أردنا أن ننتقل ونأتي إلى العصر الحديث، نجد الإنجازات العظيمة التي تمكن أن يحققها شيعة أهل البيت عليهم السلام:

أ) إرجاع الإسلام للحياة الاجتماعية، في إقامة الدولة الإسلامية المباركة، والنهضة الإسلامية المعاصرة، فقد كان رجوع الإسلام إلى الحياة ـ بعد سقوط الدولة الإسلامية بفعل الغزو العسكري والثقافي الغربي ـ على يد شيعة أهل البيت وعلمائهم، وهذه قضية عظيمة جداً إذا أردنا أن ننظر إليها بدقة، وننظر إلى حجم التآمر العالمي الذي جرى على الإسلام، وكيف تمكن شيعة أهل البيت عليهم السلام أن يحققوا هذا الإنجاز العظيم في مواجهة هذا التآمر العالمي.

---

(١) ونلاحظ في هذا المجال الظلم العظيم الذي يقوم به بعض الحاقدين وناصبي العداوة لأهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، من محاولة تحويل هذا الدور العظيم إلى اتهام الخواجه نصير الدين الطوسي رحمه الله بالتعاون مع الدولة المغولية، للإطاحة بالخلافة الإسلامية، وهو افتراء ظالم حاقد لا أساس له ـ في التأريخ الإسلامي ـ من الصحة والواقع. منه رحمه الله.

ب) موقف شيعة أهل البيت عليهم السلام من الغزو الثقافي والعسكري للعالم الإسلامي، فإنَّ علماء أهل البيت عليهم السلام هم العلماء الوحيدون الذين وقفوا وقاتلوا بأنفسهم في مواجهة الغزو العسكري الاستكباري في الحرب العالمية الأولى.

فلننظر إلى تاريخ الحرب العالمية الأولى ـ التي رفع فيها الغرب شعار (حرية الشعوب)[١] ـ فإننا لا نجد أمامنا من قاتل هؤلاء الغزاة عسكرياً من العلماء، غير علماء الشيعة في العالم العربي، أو حتى في مركز الخلافة العثمانية. ففي الحرب العالمية الأولى حاولت الحضارة الغربية رفع شعار آخر غير التسلط والهيمنة الصليبية، من أجل غزو العالم الإسلامي، وتمزيق الأُمّة الإسلامية، وهذا الشعار هو شعار الحرية، والتحرير من الهيمنة التركية، وقد ساعدهم على ذلك بعض الأحزاب التركية التي حولّت الدولة الإسلامية إلى دولة قومية، وتخلوا عن الإسلام، وأخذوا يفرضون التركية كحالة قومية على العالم الإسلامي[٢].

وهنا استغل المستعمرون هذه الانتكاسة في الخلافة العثمانية، فرفعوا شعار التحرير بالنسبة إلى العالم الإسلامي، لإسقاط المقاومة مقابل غزوهم في الحرب العالمية الأولى، ولذلك وقف كثير من علماء المسلمين متحيرين مقابل هذه القضية، فهم بين نارين: نار شعوبهم التي تنشد الحرية وتريد أن تتحرر من التسلط التركي، وكان هناك الكثير من أبناء هذه الشعوب قد قدموا شهداء في سبيل الحرية. ونار الغزو العسكري الأجنبي الكافر.

(١) نعم، في الجزائر وليبيا وشبه القارة واجه علماء المسلمين الغزاة، عندما دخلوا إليها بعنوان الاستعمار والهيمنة والتسلط، كل ذلك كان قبل الحرب العالمية الأولى، وكان الشعار فيها هو الهيمنة الغربية الصليبية. منه قدس سره.

(٢) وهذا ما صنعه (حزب الإتحاد والترقي) في الخلافة العثمانية، ومنهم أخذ كمال مصطفى أتاتورك هذا الاتجاه في فرض العلمانية التركية على تركيا، والتخلي عن الخلافة الإسلامية.

ولكن علماء الشيعة وقفوا موقفاً واحداً واضحاً مقابل هذا الغزو ـ بالرغم من الاختلاف الطائفي والمذهبي بينهم وبين الدولة العثمانية ـ ورفعوا شعار الجهاد ضد الغزو الأجنبي واشتركوا فيه، ولذلك لم تتمكن أن تسيطر هذه القوى على العراق إلاَّ في نهاية الحرب العالمية، بسبب هذا الموقف المبدئي والشجاع، ولا نجد في كل خريطة العالم الإسلامي علماء قاتلوا في الحرب العالمية الأولى ضد المستعمرين شخصياً غير علماء الشيعة في العراق، وفي بعض أطراف إيران.

وهذه القضية لابد من أخذها بنظر الاعتبار عند الحديث عن الإنجازات.

ج) نلاحظ موقف الشيعة والتشيع الثابت والصامد في قضية فلسطين، فإنَّ مواقف علماء الشيعة في قضية فلسطين يشاركهم فيها الكثير من علماء السنّة، ولكن إذا أردنا أن ننظر إلى عمق الموقف وجوهره وروحه لا نجد روحاً وجوهراً صافياً عميقاً ومتجذراً في قضية فلسطين، كما هو في موقف علماء الشيعة من هذه القضية[1].

الخصوصية الثانية إنَّ مسيرة التشيع لم تكن وراءها قدرة، أو سلطان، أو مال، أو عدد، أو غير ذلك من الإمكانيات المادية التي يعرفها الإنسان في عالم الدنيا، بحيث يمكن أن يفسر هذا النمو والتطور مادياً، فيقال: من الطبيعي عندما تكون المسيرة وراءها الأموال والسلطة والعدد الكبير والإمكانيات الواسعة أن تبدأ صغيرة، ثمَّ تصبح كبيرة ومتنامية، كما هو الحال في كل معالم الطبيعة، بل كانت مسيرة مضمخة بالدماء والآلام والمحن والمصائب والضغوط، ومحفوفة بالتشريد

(١) سواء كان ذلك موقف الإمام الخميني ﷺ تجاه قضية فلسطين، أم مواقف المراجع العظام الذين سبقوه في ذلك، أم موقف العبد الصالح خليفته آية الله السيد الخامنئي حفظه الله تعالى، أم موقف المجاهدين الذين يجاهدون في جنوب لبنان، ومن تبعهم بإحسان في هذا الموقف الرافض لكل الحلول الاستسلامية، مهما كانت صيغتها وحدودها، فنحن لا نجد الآن في عالمنا الإسلامي موقفاً بهذه الصيغة والصفاء والعمق غير موقف شيعة أهل البيت ﷺ. منه ﷺ.

والمطاردة والفقر، إلى غير ذلك على طول التأريخ الإسلامي.

مضافاً إلى العوامل التي كانت معيقة لها، بل ومدمّرة ومحاصرة لحركتها، فهي مسيرة مقموعة ومحاصرة ومطاردة، ومع ذلك كله كانت تتنامى عدداً ومضموناً، ولم يكن التنامي في العدد فحسب، بل كانت تتنامى في المضمون أيضاً، وفي الصبر والثبات والمعرفة والفهم للحياة والمواقف الجليلة والإنجازات الهامة.

وهذا الجانب الذي يكمّل الصورة يوصلنا إلى أنَّ المسيرة بهذه الصفة والخصوصية لا يمكن أن تُفسّر إلاً على أساس أنّها مسيرة حق، وأنَّ الجماعة التي تلتزم بالإيمان بأئمة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام هي على الحق، وتتعرض لما تعرضت له هذه الجماعة من آلام وأذى وتبقى.

نعم، قد نجد بقاء جماعة على غير الحق، ولكن المهم في الوصول إلى هذا الاستنتاج هو أن تبقى المسيرة متنامية ومتكاملة باستمرار، أما أن تبقي محجمة صغيرة محدودة على البقاء والحياة، غير قادرة على الأداء والإنجاز فهذا أمر ممكن، أما أن تكون دائماً متكاملة مع أنّها دائماً محاصرة ومطاردة ومشردة وملاحقة، فهذا لا يمكن أن يُفسّر إلاً بأن يكون هذا المضمون والمحتوى على الحق والاستقامة، وهذا ينسجم مع السُنة التأريخية.

ولذلك نرى أنَّ هذه الخصوصية من الخصوصيات التي يجب دراستها بصورة دقيقة، لنفهم من خلالها الاستدلال على اختصاص الإمامة بالأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

وبهذا القدر أكتفي بالحديث (عن الإمامة)، أسأله تعالى القبول والتوفيق والسداد، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

وقد كان ذلك في اليوم السابع والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة أربعمائة وواحد وعشرين بعد الألف من هجرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

محمد باقر الحكيم

فهرس المصادر

القرآن الكريم: كتاب الله عز وجل

١ـ **كتاب الأم**، الإمام أبو عبد الله بن إدريس الشافعي، الطبعة: الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢ـ **الأصول الستة عشر**، عدة محدثين ورواة، المطبعة: مهدية، الثانية ١٤٠٥هـ/١٣٦٣ش، الناشر شبستري.

٣ـ **الطبقات الكبرى**، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، المطبعة دار صادر ـ بيروت.

٤ـ **مسند أحمد**، أحمد بن حنبل، الناشر: دار صادر ـ بيروت ـ لبنان.

٥ـ **صحيح البخاري**، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة الجعفي البخاري، طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول.

٦ـ **صحيح مسلم**، أبو الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري، الناشر دار الفكر بيروت، لبنان.

٧ـ **سنن ابن ماجه**، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٨ـ **المحاسن**، الشيخ الثقة الجليل الأقدم أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، سنة الطبع: ١٣٧٠ هـق/١٣٣٠هـش، تحقيق: تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني (المحدث) الناشر: دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

٩ـ **سنن أبي داوود**، الحافظ أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأولى ١٤١٠ هـ ق.

١٠ـ **سنن الترمذي**، الحافظ عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ ق، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

١١ـ **الغارات**، لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي، طبع على طريقة أوفست في مطابع بهمن، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث.

١٢ـ **بصائر الدرجات**، للثقة الجليل والمحدث النبيل شيخ القميين أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، المطبعة: مطبعة الأحمدي ـ طهران.

١٣ـ **سنن النسائي**، الشيخ الحافظ أبو عبد الرحمن احمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي، الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـق، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

١٤ـ **السنن الكبرى**،====== الطبعة: الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

١٥ـ **فضائل الصحابة**، ====== الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

١٦ـ **جامع البيان**، أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري، تحقيق: تقديم: الشيخ خليل الميس/ ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار. سنة الطبع: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م. الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

١٧ـ **تفسير العياشي**، المحدث الجليل أبو النظر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمر قندي العياشي، الناشر: المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

١٨ـ **الكافي**، ثقة الإسلام أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، المطبعة: حيدري، الخامسة ١٣٦٣هـش، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري.

١٩ـ **تفسير القمي**، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي، الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـق الناشر: مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر ـ قم ـ إيران.

٢٠ـ **نور الأبصار**، السيد مؤمن بن السيد حسن الشبلنجي الشافعي، طبعة الشريف الرضي، قم.

٢١ـ **المعجم الكبير**، الحافظ أبو القاسم سليمان بن احمد الطبراني، الطبعة الثانية، الناشر دار إحياء التراث العربي.

٢٢ـ **المعجم الأوسط**،====== سنة الطبع ١٤١٥هـق، الناشر دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٣ـ **دعائم الإسلام**، أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن احمد بن حيون التميمي المغربي، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي،

سنة الطبع: ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

٢٤ـ **شرح الأخبار**، القاضي النعماني المغربي، المطبعة: مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، الثانية ١٤١٤ هـ ق، تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلالي.

٢٥ـ **كتاب الغيبة**، الشيخ الأجل بن أبو زينب محمد بن إبراهيم النعماني، المطبعة: مهر ـ قم، الأولى ١٤٢٢ هـ ق، تحقيق: فارس حسون كريم.

٢٦ـ **الخصال**، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، طبع جماعة المدرسين، ١٨ ذي القعدة الحرام ١٤٠٣ هـق.

٢٧ـ **علل الشرائع**،======= تحقيق: تقديم السيد محمد صادق بحر العلوم، سنة الطبع: ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

٢٨ـ **الأمالي، الطبعة**:-------- الأولى ١٤١٧هـق، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة قم، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

٢٩ـ **كمال الدين وتمام النعمة**،-------- سنة الطبع: محرم الحرام ١٤٠٥هـ/١٣٦٣ش، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٣٠ـ **من لا يحضره الفقيه**،======= الطبعة: الثانية، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٣١ـ **عيون أخبار الرضا**،====== المطبعة: مطابع مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ـ لبنان ١٤٠٤ هـ ق.

٣٢ـ **كفاية الأثر في النص على الأئمة ألاثني عشر**، أبو القاسم علي بن أبو محمد بن علي الخزاز القمي الرازي، المطبعة: الخيام ـ قم ١٤٠١ هـ.ق.

٣٣ـ **المستدرك**، الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري، المطبعة: دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.

٣٤ـ **نهج البلاغة**، خطب الإمام علي عليه السلام جمعه أبو الحسن الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى الموسوي، المطبعة: النهضةقم الأولى ١٤١٢ هـ ق، تحقيق: شرح: الشيخ محمد عبده.

٣٥ـ **الأمالي**، الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ ق، الناشر دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان.

٣٦ـ **الاختصاص**،====== الطبعة الثانية ١٤١٤هـق، الناشر دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان.

٣٧ـ **الإرشاد**،====== الطبعة: الثانية: ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتراث، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

٣٨ـ **تفسير الثعلبي**، الإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعلبي المالكي، المطبعة: بيروت ـ لبنان ـ دار إحياء التراث العربي، الأولى ١٤٢٢ هـ ق.

٣٩ـ **الأحكام السلطانية**، أبو الحسن الشافعي الماوردي.

٤٠ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ابن حزم الأندلسي، طبعة دار الكتب العربية، الأولى ١٤١٦هـ

٤١ـ **السنن الكبرى**، الحافظ أبو بكر احمد بن الحسين بن علي البيهقي، الناشر: دار الفكر.

٤٢ـ **دلائل الإمامة**، المحدث الشيخ أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الصغير (الشيعي) المطبعة: مؤسسة البعثة، الأولى ١٤١٣ هـ ق.

٤٣ـ **الأمالي**، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة، الطبعة: الأولى ١٤١٤ هـ ق، الناشر دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ـ قم.

٤٤ـ **الغيبة**،======= المطبعة: بهمن، الأولى شعبان ١٤١١ هـ ق.

٤٥ـ **الاستيعاب**، ابن عبد البر، المطبعة: بيروت ـ دار الجيل، الأولى ١٤١٢ هـ ق.

٤٦ـ **الإنتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**======== المطبعة بيروت ـ دار الكتب العلمية.

٤٧ـ **تأريخ بغداد**، الحافظ أبو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ق الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٤٨ـ **أسباب نزول الآيات**، الواحدي النيسابوري، سنة الطبع ١٤٨٨ هـ ق، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ القاهرة.

٤٩ـ **تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبين**، المحسن ابن كرامة، المطبعة: محمد ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، تحقيق: السيد تحسين آل شبيب الموسوي.

٥٠ـ **المستصفى**، الإمام أبو حامد بن محمد بن محمد بن محمد الغزالي، سنة الطبع: ١٤١٧هـ /١٩٩٦م، تحقيق: تصحيح: محمد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

٥١ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل**، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، سنة الطبع: ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، عباس ومحمد محمود الحلبي وشركاهم ـ خلفاء.

٥٢ـ **إعلام الورى بأعلام الهدى**، أمين الاسلام ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، المطبعة: ستارة قم، الأولى ربيع الأول ١٤١٧ هـ ق.

٥٣ـ **مجمع البيان في تفسير القرآن**،-------- تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م. الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان.

٥٤ـ **الاحتجاج**، أبو منصور احمد بن علي بن أبو طالب الطبرسي، سنة الطبع: ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، تحقيق: تعليق وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر ـ النجف الأشرف.

٥٥ـ **شواهد التنزيل**، الحافظ عبيد الله بن احمد الحاكم الحسكاني الحذاء الحنفي النسابوري، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الناشر: مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ـ مجمع إحياء الثقافة الإسلامية.

٥٦ـ **المناقب**، الموفق بن احمد بن محمد المكي الخوارزمي، المطبعة: مؤسسة النشر الإسلامي الثانية ربيع الثاني ١٤١٤ تحقيق: الشيخ مالك المحمودي ـ مؤسسة سيد الشهداء عليه السلام الناشر: مؤسسة

النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٥٧ـ **تأريخ مدينة دمشق**، الإمام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ابن عساكر، المطبعة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان، سنة الطبع: ١٤١٥هـ ق.

٥٨ـ **مناقب آل أبي طالب**، مشير الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب، المطبعة: الحيدرية النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ ق.

٥٩ـ **تفسير الرازي**، الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، الطبعة الثالثة. الناشر: منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ـ النجف الأشرف.

٦٠ـ **أسد الغابة**، الشيخ عز الدين أبو الحسن علي بن أبو الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ابن الأثير، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.

٦١ـ **الفتوحات المكية**، أبو عبد الله محمد الحاتم الطائي (ابن عربي) الناشر: دار صادر ـ بيروت ـ لبنان.

٦٢ـ **شرح نهج البلاغة**، عز الدين بن هبة الله المدائني المعتزلي (ابن أبي الحديد)، الطبعة: الأولى ١٣٧٨هـق/١٩٥٩م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٦٣ـ **الدر النظيم**، جمال الدين يوسف بن حاتم بن فوز بن مهند الشامي المشغري العاملي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٦٤ـ **عيون الحكم والمواعظ**، الشيخ كافي الدين أبو الحسن علي

بن محمد الليثي الواسطي، المطبعة: دار الحديث، الأولى، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي،

٦٥ـ **سعد السعود**، العالم رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسني الحسيني، المطبعة: أمير ـ قم، سنة الطبع ١٣٦٣.

٦٦ـ **رياض الصالحين**، الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، الطبعة الثانية ١٤١١ هـ ق، الناشر دار الفكر المعاصر بيروت لبنان.

٦٧ـ **ذخائر العقبى**، الحافظ محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، سنة الطبع: ١٣٥٦ الناشر: مكتبة القدسي لصاحبها حسام الدين القدسي ـ القاهرة.

٦٨ـ **لسان العرب**، الإمام أبو الفضل جمال الدين ممد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، الناشر: نشر أدب الحوزة ـ قم إيران.

٦٩ـ **تهذيب الكمال**، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، تحقيق وضبط وتعليق: الدكتور بشار عواد معروف، الطبعة: الرابعة ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

٧٠ـ **سير أعلام النبلاء** الإمام شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: إشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط/ تحقيق: حسين الأسد، الطبعة: التاسعة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

٧١ـ **ميزان الإعتدال**،====== دار المعرفة للطباعة والنشر، تحقيق: علي محمد البجاوي.

٧٢ـ **تاريخ الإسلام**، ======= المطبعة: لبنان/ بيروت ـ دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ ق.

٧٣ـ **نظم درر السمطين**، جمال الدين محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد الزرندي الحنفي المدني، الطبعة الأولى ١٣٧٧ هـ ق.

٧٤ـ **معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول**، شمس الدين محمد بن يوسف الزرندي الشافعي. تحيقيق: ماجد بن أحمد العطية.

٧٥ـ **تفسير ابن كثير**، الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: تقديم يوسف عبد الرحمن المرعشلي سنة الطبع: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

٧٦ـ **السيرة النبوية**،======= سنة الطبع: ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ـ لبنان.

٧٧ـ **مجمع الزوائد**، الحافظ نور الدين علي بن أبو بكر الهيثمي، سنة الطبع ١٤٠٨ هـ ق، الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٧٨ـ **تاريخ ابن خلدون**، العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.

٧٩ـ **القاموس المحيط**، القاضي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.

٨٠ـ **عمدة الطالب**، جمال الدين احمد بن علي الحسيني بن عنبة، الطبعة الثانية ١٣٨٠ هـ ق، الناشر منشورات المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

٨١ـ **إمتاع الأسماع**، تقي الدين أحمد بن علي بـن عبـد القـادر بـن محمد المقريزي، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م، تحقيق: تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: منشورات محمد علـي بيـضون، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

٨٢ـ **لسان الميزان**، الإمام شهاب الدين أبو الفضل احمد بـن علـي بن حجر السقلاني، الطبعة: الثانيـة ١٣٩٠هـ /١٩٧١ م، الناشـر: مؤسـسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان.

٨٣ـ **الإصابة**،====== الطبعـة: الأولـى: ١٤١٥، تحقيـق: الـشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٤ـ **تهذيب التهذيب**، ======الطبعة: الأولـى ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

٨٥ـ **فتح الباري**، المطبعة: دار المعرفة للطباعة والنـشر بيـروت ـ لبنان، الثانية.

٨٦ـ **الفصول المهمة في معرفة الأئمة**، علـي بـن محمـد بـن أحمـد المالكي المكي (ابن الصباغ) المطبعة: سرور، الأولى ١٤٢٢ هـ ق.

٨٧ـ **الجامع الصغير**، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكـر السيوطي، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ق، الناشر: دار الفكر للطباعـة والنـشر والتوزيع ـ بيروت.

٨٨ــ **الـدر المنثـور**،======= الناشـر: دار المعرفـة للطباعـة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.

٨٩ـ **تأويل الآيات**، الـسيد شـرف الـدين علـي الحـسيني الاسـتر

آبادي النجفي، المطبعة: أمير ـ قم، الأولى رمضان ١٤٠٧ هـ ق.

٩٠ـ **الصواعق المحرقة**، ابن حجر الهيثمي، شركة الطباعة الفنية المتحدة، مصر.

٩١ـ **كنز العمال**، العلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري، سنة الطبع: ١٤٠٩هـ /١٩٨٩م، تحقيق: ضبط وتفسير: الشيخ بكري حياني/ تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

٩٢ـ **إحقاق الحق وإزهاق الباطل**، الشهيد السيد نور الله الحسيني التستري.

٩٣ـ **التفسير الصافي**، المولى محسن الفيض الكاشاني، المطبعة: مؤسسة الهادي قم المقدسة، الأولى ١٤١٦ هـ ق.

٩٤ـ **إثبات الهداة**، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، المطبعة: العلمية قم.

٩٥ـ **بحار الأنوار**، العلامة محمد باقر المجلسي، الطبعة: الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، الناشر: مؤسسة الوفاء ـ بيروت ـ لبنان.

٩٦ـ **ينابيع المودة لذوي القربى**، الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، المطبعة: أسوة، الأولى ١٤١٦ هـ ق، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني. الطبعة: الأولى ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣ م، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.

٩٧ـ **الفقه على المذاهب الأربعة**، عبد الرحمن الجزيري، دار إحياء التراث العربي، الأولى، بيروت.

٩٨ـ **دلائل الصدق**، الشيخ محمد حسن بن محمد المظفر النجفي.

٩٩ـ **المراجعات**، الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، تحقيق: حسين الراضي، الطبعة: الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

١٠٠ـ **طرق حديث الأئمة الاثنا عشر**، الشيخ كاظم آل نوح، المطبعة مطبعة المعارف ـ بغداد ١٣٧٤، سنة الطبع: ١٣٩٨.

١٠١ـ **فضائل الخمسة من الصحاح الستة**، العلامة السيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي، المطبعة: ليلى، الأولى ١٤٢٢ هـ ق.

١٠٢ـ **الغدير**، الشيخ عبد الحسين احمد الأميني النجفي، الطبعة الرابعة ١٣٩٧ هـ ق، الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان.

١٠٣ـ **نشأة التشيع والشيعة**، الشهيد السيد محمد باقر الصدر، المطبعة: قدس، الثانية ١٤١٧هـ /١٩٩٧ م، تحقيق: تحقيق وتعليق: عبد الجبار شرارة.

١٠٤ـ **المدرسة القرآنية**،====== المطبعة: السرور، الأولى ١٤٢٤ هـ ق

١٠٥ـ **الإسلام يقود الحياة**،====== المطبعة: ستارة، الأولى ١٤٢٦هـ

١٠٦ـ **شرح إحقاق الحق**، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي/ تصحيح: السيد إبراهيم الميانجي، الناشر: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ـ قم ـ إيران.

١٠٧ـ **الميزان في تفسير القرآن**، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، الناشر: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ـ قم المقدسة.

١٠٨ ـ **هوية التشيع**، الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، الناشر: دار

الصفوة ـ بيروت ـ لبنان الطبعة: الثالثة ١٤١٤هـ /١٩٩٤م.

١٠٩ـ **علوم القرآن**، شهيد المحراب آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم، المطبعة: مؤسسة الهادي قم، الطبعة، الثالثة ربيع الثاني ١٤١٧ هـ ق.

١١٠ـ **الزهراء ﷺ أهداف.. مواقف.. نتائج**، ====== نشر، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، المطبعة: العترة الطاهرة، الأولى ٢٠٠٦م.

١١١ـ **المجتمع الإنساني في القرآن الكريم**، ====== نشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، المطبعة: العترة الطاهرة، الثانية ٢٠٠٦م.

١١٢ـ **الرسول الأعظم**، ====== طبع مؤسسة شهيد المحراب، الأولى ١٤٢٤ هـ ق.

١١٣ـ **الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين**،====== نشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، المطبعة: العترة الطاهرة، الرابعة١٤٢٩ هـ ق.

١١٤ـ **دراسات في ولاية الفقيه**، الشيخ المنتظري، المطبعة: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة، الأولى، جماد الثانية ١٤٠٨ هـ ق.

١١٥ـ **صراط الحق**، محمد آصف المحسني.

١١٦ـ **أهل البيت في الكتاب والسنة**، محمد الريشهري، المطبعة: دار الحديث، الثانية ١٣٧٥ هـ ش.

فهرست الموضوعات

القسم الأول
نظرية الإمامة
المدخل

الفصل الأول
ضرورة الإمامة

الفصل الثاني
إختصاص الإمامة في أهل البيت عليهم السلام

الفصل الثالث

اختصاص الإمامة بالأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام

القسم الثاني

الإستدلال

المدخل

الفصل الأول

الاستدلال على ضرورة الإمامة

الفصل الثاني

الاستدلال على اختصاص الإمامة في أهل البيت عليهم السلام

الفصل الثالث

الاستدلال على اختصاص الإمامة بالأئمة الاثني عشر

إصدارات مؤسسة تراث الشهيد الحكيم ﷺ

١ـ القصص القرآني

٢ـ المجتمع الإنساني في القران الكريم

٣ـ تفسير سورة الصف

٤ـ تفسير سورة الحشر

٥ـ تفسير سورة الممتحنة

٦ـ تفسير سورة الحديد

٧ـ دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة- جزءان

٨ـ الإمامة وأهل البيت عليهم السلام

٩ـ الشيعة والتشيع

١٠ـ الحجة والولاية

١١ـ الحج. تاريخه، أبعاده، أحكامه

١٢ـ الزهراء عليها السلام. أهداف، مواقف، نتائج

١٣ـ الإمام الحسين عليه السلام

١٤ـ الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين

١٥ـ الأربع عشرة. مناهج ورؤى

١٦ـ موسوعة الحوزة والمرجعية- خمسة مجلدات

١٧ـ بين مقاومتين

١٨ـ الخطاب الإعلامي وسر النجاح

١٩ـ دور الفرد في الاقتصاد الإسلامي

٢٠ـ الأصالة والمعاصرة

٢١ـ رفض الطغيان

٢٢ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

٢٣ـ التوبة

٢٤ـ نافذة على الإنفاق

٢٥ـ ضوء على القتل

٢٦ـ شيعة العراق.. تاريخ.. مواقف

٢٧ـ الشعائر الحسينية

٢٨ـ وبشر الصابرين

٢٩ـ انتفاضة صفر وشهيد المحراب

٣٠ـ الحب في الله

٣١ـ دموع القلم

٣٢ـ في رحاب المنتديات

٣٣ـ البحث القرآني عند السيد محمد باقر الحكيم

٣٤ـ الفكر السياسي للشهيد السيد محمد باقر الحكيم

٣٥ـ من النجف إلى النجف

٣٦ـ أبحاث المؤتمر الأول لإحياء التراث الفكري والعلمي للشهيد الحكيم ﭭ

٣٧ـ أبحاث المؤتمر الثاني لإحياء التراث الفكري والعلمي للشهيد الحكيم ﭭ

٣٨ـ أبحاث المؤتمر الثالث لإحياء التراث الفكري والعلمي للشهيد الحكيم ﭭ

٣٩ـ الإبداع الفكري